جابرييل غارسيا ماركيز
الحائز على جائزة نوبل للآداب

الحب في أزمنة الكوليرا

ترجمة الدكتور محمد العبد حمود

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

دار العودة. بيروت

جابرييل غارسيا ماركيز
الحائز على جائزة نوبل للآداب

الحب في أزمنة الكوليرا

ترجمة الدكتور محمد العبد حمود

دار العودة . بيروت

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

الى تاشيا
ماركيز

الى إلفانا
محمد

« على الدروب التي تنشق هنا
تعبر ربة متوَجة »

ليياندور دياث

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

لا مفر من ذلك : رائحة اللوز المر تذكره مصير الحب الذي عاكسه القدر . تنبه الدكتور جوفينال اربينو إلى ذلك فور دخوله إلى المنزل الذي لا يزال غارقاً في الظلام حيث استُدعي على عجل ، لمعالجة حالة لم يعد يعتبرها طارئة منذ سنوات عدة . إنه اللاجىء الأنتيلي جريميا دي سانت آمور ، معاق بفعل الحرب ، مصور أولاد ، وخصمه الودود في لعبة الشطرنج ، الذي تخلص من عذابات الذاكرة بتنشق سيانور الذهب .

وجد الجثة ممددة على السرير ، مغطاة بشرشف ، حيث كان ينام دائماً قرب المنضدة التي وضع عليها الدست الذي استخدمه في عملية تبخير السم . على الأرض ، جثة لكلب دانمركي ضخم ربط بقائمة السرير ، لبانه بلون الثلج ، وبقربه العكازان . ومع أن روعة الفجر تكاد تبدأ بالتسلل عبر النافذة لتضيء الغرفة الخانقة المرقشة التي كانت مخدعاً ومختبراً في آن معاً ، فقد بدا الضوء كافياً لملاحظة هيمنة الموت على الفور . سدت كل النوافذ ، وكذلك كل شقوق الغرفة ، بالخرق ، أو ألصق عليها قطع من الورق المقوى الأسود مما زاد من حدة الشعور بالاختناق . بدت هناك طاولة كبيرة نثرت عليها الزجاجات والأواني التي لا تحمل ما يدل عليها . وتحت مصباح عادي مغطى بورقة حمراء هناك دستان رماديان مشرمان . الدست الثالث ، دست المثبت ، هو بالذات الذي وجد قرب الجثة . وفي كل ناحية مجلات وصحف قديمة ، وأكداس من « النيجاتيف » ذي اللوحات

الزجاجية الحساسة للضوء ، أثاث محطم ، ولكن يداً ماهرة جعلت هذا كله بمنأى عن الغبار . وعلى الرغم من أن الهواء الذي دخل من النافذة قد عمل على تنقية جو الغرفة فإن الرفات الباردة لغراميات اللوز المر العاثرة كانت لا تزال ماثلة لمن يمتلك القدرة على التعرف اليها . لقد سبق للدكتور جوفينال ايربينو أن فكر ولأكثر من مرة ، ولكن دون أن يشكل ذلك هاجساً له ، أن هذا المكان ليس المكان الأفضل للموت برحمة الله . ولكن مع مرور الوقت انتهى به الأمر إلى الافتراض بأن فوضى المكان قرار محسوب شاءته العناية الإلّهية .

سبقه في الوصول إلى المكان أحد مفوضي الشرطة برفقة طالب طب شاب يمضي فترة تمرين في الطب الشرعي في المستوصف البلدي . قاما بتهوية الغرفة ، وغطيا الجثة منتظرين وصول الدكتور ايربينو . حيّاه كلا الرجلين بتبجيل يحمل هذه المرة من معاني العزاء أكثر مما يحمل من معاني الإجلال . إذ لا أحد يجهل عرى الصداقة الوثيقة التي تربطة مع جيريميادي سانت أمور . ضغط الأستاذ الشهير على يد كل منهما مصافحاً كما يفعل دائماً مع كل واحد من طلابه قبل بدء محاضرته في الطب العام التطبيقي . بعد ذلك ، أمسك طرف الشرشف بالإبهام والسبابة كما لو أنه يمسك بزهرة ، وكشف على الجثة بتأن وقدسية بالغة .عار كما الدودة ، هامد وملوي ، مفتوح العينين ، أزرق الجسد ، أكبر بخمسين سنة مما كان عليه في العشية . حدقتاه شاحبتان ، لحيته وشعره يميلان إلى الاصفرار ، وعلى بطنه آثار جرح قديم خيط بطريقة قاسية . عريض الصدر قوي الذراعين كرجل أمضى حياة شاقة وذلك بسبب استعماله العكازين . أما ساقاه المهملتان فقد بدتا كساقي رجل بائس. تأمله الدكتور جوفينال إيربينو للحظة والألم يعصر قلبه. نادراً ما حدث له ذلك خلال سنوات طويلة أمضاها في نضال عقيم ضد الموت .

غطاه بالشرشف ، واستعاد وقاره الأكاديمي . احتفل في العام الماضي بسنواته الثمانين بيوبيل رسمي استمر ثلاثة أيام . وفي كلمة الشكر التي ألقاها ، قاوم من جديد إغراء الإحالة إلى التقاعد . قال : « لدي متسع من الوقت للراحة بعد الموت . وبالتالي فإن ذلك ليس ضمن ما أنوي القيام به حتى الآن » . وعلى الرغم من أن قدرة أذنه اليسرى على السمع تتناقص شيئاً فشيئاً ، ومن أنه يتوكأ على عصا ذات مقبض فضي ليخفي تعثر خطاه ، فقد استمر محافظاً على أناقة شبابه ، بذلة

من الكتان مع صدرة توشحها سلسلة ساعة ذهبية ، لحية بلون الصدف مرسلة على طريقة باستور ، شعر مثبت بعناية في كل جانب من جوانب المفرق الواضح البروز ، كلها سمات أمينة للدلالة على طبعه . أما تآكل ذاكرته الذي أخذ يثير قلقه يوماً بعد يوم ، فقد حاول تعويضه ، قدر الإمكان ، عن طريق تدوين ملاحظات يكتبها بعجلة على قصاصات متناثرة من الورق ، تختلط في جيوبه كما في محفظته ، مع زجاجات الأدوية وألف شيء آخر . إنه الطبيب الأكثر تمرساً والأكثر قدماً في المهنة ، وفي الوقت عينه الرجل الأكثر تمايزاً بين المواطنين . حالت طريقته غير الساذجة على الإطلاق في الإفادة من سطوة اسمه بينه وبين إقامة الصداقات التي يستحق .

التعليمات التي أعطيت للمفوض والطالب كانت سريعة ودقيقة ، لا داعي لتشريح الجثة ، فرائحة المنزل كافية للاستنتاج بأن سبب الوفاة هو تنشق أبخرة سيانور الذهب المنشّط بفعل أحد حوامض التصوير ، وجريميادي سانت أمور يعرف الكثير في هذا المجال ، وبالتالي فلا مجال للظن بأن الأمر حدث صدفة . وضع حداً سريعاً لتحفظ المفوض بواحدة من الضربات القاضية التي يتميز بها : « لا تنسى بأنني أنا من سيوقع على شهادة الوفاة » . بدت خيبة الأمل على الطبيب الشاب ، إذ لم تتح له الفرصة أبداً من قبل لمعرفة تأثير سيانور الذهب على جسد بشري . فوجىء الدكتور إيربينو لعدم رؤية الطالب لهذا في كلية الطب ، ولكنه أدرك سبب ذلك على الفور ، شدة الخجل واللهجة الأنديزية : بدون شك انه حديث العهد في الإقامة في المدينة . خاطبه قائلاً : « لا نفتقر هنا أولئك الذين يؤدي بهم الحب إلى الجنون ، وستجد حتماً واحداً من هؤلاء سيمنحك هذه الفرصة ، بين يوم وآخر » . ولكنه ما كاد ينتهي من التلفظ بهذه الكلمات ، حتى انتبه إلى أنه بين حوادث الانتحار التي لا تعد ، والتي ما زال يتذكرها ، فإن هذه الحادثة هي أول انتحار بالسيانور دافعه ليس حباً تعيساً . عند ذلك ، سبب ما جعله يبدل نبرة صوته المألوفة . قال مخاطباً الطالب :

« إذا ما صادفت حالاً مشابهة ، إنتبه جيداً ، إذ غالباً ما تجد تبراً في قلوبهم » .

توجه إلى المفوض وكأنه يخاطب أحد مرؤوسيه . أمره بتخطي الشكليات كي يتم الدفن بعد ظهر اليوم نفسه وبأقصى درجة من التكتم . قال : « سأتحدث مع العمدة في ما بعد». كان يعرف حياة الزهد الخالص التي عاشها جيريميادي سانت أمور ، وأنه كان يكسب من فنه من المال أكثر بكثير مما يلزمه للإنفاق على شؤون معاشه ، مما يعني أن في أحد أدراج المنزل ما يكفي من المال لدفع نفقات الدفن . قال :

« أما إذا لم تعثر على مال ، فلا بأس ، أنا أتحمل النفقات كلها » .

أمر أن يقال للصحف أن المصور مات ميتة طبيعية ، رغم أنه فكر بأن الخبر قد لا يثير اهتمامهم على أية حال . قال : « إذا استدعت الضرورة فسأتصل بالحاكم » . المفوض ، موظف طيب ورصين ، يعرف أن صرامة الأستاذ في الأمور المدنية تثير السخط حتى لدى أصدقائه الحميمين ، ذهل للبساطة التي تجاوز فيها الأستاذ كل الإجراءات القانونية لاستعجال عملية الدفن . الأمر الوحيد الذي رفض القيام به هو الاتصال بالأسقف كي يسمح بدفن جيريميادي سانت أمور في مكان مبارك . المفوض المربك من إحساس بالوقاحة اعتراه ، حاول التماس العذر :

«أنا على يقين بأن هذا الرجل كان قديساً » .

- بل هو ظاهرة أكثر ندرة أيضاً ، أضاف الدكتور ايربينو : قديس ملحد . ولكن هذه الأمور من إختصاص الله » .

في البعيد ، في الطرف الآخر من المدينة الكولونيالية ، تسمع أجراس الكاتدرائية تدعو للقداس الكبير . ثبّت الدكتور ايربينو نظارتيه نصف الدائريتين ، الذهبيتي الإطار ، وتفحص في ساعة الجيب المربعة الناعمة التي يفتح غطاؤها بواسطة نابض : إنه يكاد يتخلف عن موعد قداس العنصرة .

في الغرفة ، آلة تصوير كبيرة مثبتة على عجلات كما في الحدائق العامة ، وزينة يظهر فيها مشهد غسق بحري صور بطريقة ماهرة وقد غطيت الجدران بصور أطفال في مناسباتهم المشهودة : المناولة(*) الأولى ، وهم يرتدون فرو الأرانب ، احتفال سعيد بذكرى ميلادهم . سبق للدكتور ايربينو أن رأى هذه الجدران وهي

(*) المناولة هي تناول القربان المقدس عند المسيحيين .

تتغطى قليلاً قليلاً ، سنة إثر سنة خلال التأملات الممتعة لجولات الشطرنج المسائية . وغالباً ما كان يفكر بشيء من الأسى ، إنه في هذا المعرض للصور التي أخذت كيفما اتفق، تكمن بذرة مدينة المستقبل التي ستحكم وتنحرف على يد هؤلاء الصبية الحيارى ، والتي لن يبقى فيها مجرد بقية من مجدها .

على طاولة المكتب ، وبالقرب من إناء يحوي عدة غلايين لها شكل القاروس[1] تبدو رقعة الشطرنج التي تظهر جولة لم تكتمل . ورغم رغبته في الإسراع ومزاجه المكتئب ، لم يقاوم الدكتور ايربينو رغبته في تأملها . أدرك أنها جولة الأمسية الماضية، لأنه يعرف أنه إذا كان جيريميا دي سانت أمور يلعب كل أمسيات الأسبوع مع ثلاثة منافسين مختلفين على الأقل ، فإنه يحرص على إنهاء الجولة ، ثم يقوم بترتيب الرقعة والبيادق داخل العلبة المخصصة لذلك ثم يضعها في درج المكتب . وهو يعرف أيضاً أنه يلعب بالبيادق البيضاء ، ويبدو أنه كان سيهزم هذه المرة ، لا محالة ، بعد أربع نقلات . « إذا كان الأمر يتعلق بجريمة قتل فلدينا هنا دليل ممتاز ، قال في نفسه ، فأنا لا أعرف سوى رجل واحد قادر على نصب هذا الكمين الجيد » . بدت له الحياة مستحيلة إذا لم يتمكن من معرفة السبب الذي دفع هذا الجندي الجامح الذي اعتاد أن يقاتل حتى آخر قطرة من دمه إلى عدم إكمال المعركة الأخيرة التي خاضها في حياته .

في الساعة السادسة صباحاً ، استرعى إنتباه الحارس ، فيما هو يقوم بجولته الأخيرة ، اللافتة المثبتة على باب المدخل : «أدخل دون أن تقرع الباب ، ثم أخطر الشرطة». بعد ذلك بقليل ، وصل المفوض والطالب ، قاما بالتنقيب في المنزل بدقة في محاولة لإيجاد تفسير لرائحة اللوز المر التي تفوح في المكان بشكل جلي . خلال الدقائق التي مضت في تأمل جولة الشطرنج غير المكتملة ، عثر المفوض بين الأوراق المنثورة على المكتب مغلفاً موجهاً للدكتور جوفينال ايربينو وقد ختم بعدة أختام من الشمع مما جعل تمزيقه ضرورياً للوصول إلى الرسالة . أزاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة للحصول على مزيد من الإنارة . ألقى بادىء الأمر نظرة سريعة على الإحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط متأن وعلى

(١) القاروس : نوع من السمك .

الوجهين . وفي اللحظة التي أنهى فيها قراءة المقطع الأول أدرك أنه تأخر عن المناولة بمناسبة العنصرة . قرأ ، يعتريه إحساس بالضيق ، يتوقف أحياناً ، يعيد قراءة بعض الصفحات عله يعثر على الخيط المفقود . عندما أنهى قراءة الرسالة بدا وكأنه يعود من مكان غاية في البعد ، ومن غياهب الزمن . ظهر عليه الإرهاق رغم جهوده لإخفاء ذلك . صارت شفتاه زرقاوين كشفتي الجثة . ولم يتمكن من السيطرة على ارتجاف أصابعه عندما قام بطي الرسالة ووضعها في جيب صدرته . عندها تذكر حضور المفوض والطالب فابتسم لهما عبر سحب أساه .

« لا شيء مميز ، إنها رغباته الأخيرة »

لم يقل سوى نصف الحقيقة ، ولكنهما اعتقدا أنها الحقيقة كاملة لأنه أمرهما بنزع بلاطة معينة وجدا تحتها دفتر حسابات شبه بال ومفاتيح الخزنة . لم يعثروا على ما اعتقدوه من نقود ، ولكن هناك ما يكفي على كل حال لدفع نفقات الدفن وسداد بعض الديون الصغيرة. عرف الدكتور ايربينو أنه لن يصل الكنيسة قبل البدء في تلاوة الإنجيل . قال :

« إنها المرة الثالثة التي أتخلف فيها عن القداس منذ أن بلغت سن الرشد . ولكن الله يفهم ذلك »

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق لإنهاء ترتيب جميع التفاصيل ، على الرغم من أنه بالكاد تمكن من كبح جماح رغبته بإشراك زوجته بما في الرسالة من اعترافات . أخذ على عاتقه مهمة إخطار اللاجئين الكاريبيين الكثر الذين يقيمون في المدينة بالأمر . هذا إذا ما رغبوا في التعبير عن إجلال أخير للذي كان الأكثر حكمة وحيوية واندفاعاً بينهم ، حتى بعد أن غدا إحساسه باليأس ظاهراً للعيان . وسيخطر أيضاً أترابه في لعبة الشطرنج الذين يتفاوتون بين لاعبين محترفين يشار اليهم بالبنان وبين مساكين مغمورين. وسيخطر كذلك أصدقاء آخرين أقل مواظبة في التردد عليه ، ولكنهم قد يرغبون في المشاركة بمأتمه . قبل أن يطلع على الرسالة الوصية ظن أنه أول العارفين بالوفاة ، ولكن بعد قراءة الرسالة لم يعد واثقاً من شيء . على كل حال ، سيقوم بإرسال إكليل من الغاردينيا إذ من المحتمل أن يكون جيريميا دي سانت أمور قد تاب في اللحظة الأخيرة . موعد الدفن في الخامسة ، وقت مناسب

في أشهر الحر هذه . إذا ما احتاجوا اليه يجدونه في المنزل الريفي للدكتور لاسيدس أوليفيلا تلميذه المفضل الذي يحتفل في هذا اليوم بيوبيله الفضي في عالم الطب بإقامة مأدبة غداء للمناسبة .

يتبع الدكتور جوفينال ايربينو نمط حياة تسهل معرفته منذ أن ولت السنوات الصاخبة لبداياته الأولى ، حيث اكتسب احتراماً ومنزلة لا نظير لها في الولاية . ينهض مع صياح الديك . ساعة يبدأ فيها بتناول أدويته السرية : برومور البوتاسيوم لبعث الحيوية ، أملاح الحامض الصفصافي من أجل آلام العظام ، في الأيام الماطرة ، يتناول نقاطاً من مهماز الجودر لعلاج الدوخة ، الأطرب لأجل النوم المريح . إنه يتناول شيئاً باستمرار ، ويفعل ذلك خفية دائماً . لأنه في الفترة الطويلة التي أمضاها سواء في ممارسة مهنة الطب أو سواء كأستاذ في الكلية ما انفك يعلن معارضته للعلاجات المخففة لمظاهر الشيخوخة : احتمال الآخرين لآلامهم بدا أكثر سهولة له من احتماله آلامه الخاصة . ولكي يتغلب على خوفه من كل تلك الأدوية المتنوعة ، كان يحمل دائماً في جيبه مادة مكوفرة ، يتنشقها بعمق ، عندما لا يكون ثمة من يراه .

يمضي ساعة في مكتبه لتحضير المحاضرة في الطب التطبيقي التي يلقيها كل يوم في كلية الطب ، من الإثنين حتى السبت ، مستمراً في ذلك حتى عشية موته . إنه قارىء مثابر لكل جديد أدبي . يتولى مكتبي يعتمده في باريس أمر إرسال الكتب له بالبريد ، أو يستوردها خصيصاً له من برشلونه مكتبي محلي ، هذا مع الإشارة إلى أنه لا يتابع الأدب المكتوب باللغة الإسبانية بالاهتمام نفسه الذي يوليه للأدب المكتوب باللغة الفرنسية . وفي مطلق الأحوال ، لا يقوم بقراءة ذلك أبداً في الصباح ، وإنما بعد القيلولة ولساعة من الزمن ، وفي المساء قبل النوم . بعد أن ينهي إعداد المحاضرة ، يقوم ببعض التمارين المنشطة لعملية التنفس في قاعة الحمام في مواجهة النافذة المفتوحة ، يتنفس دائماً من الجهة التي ينبعث منها صياح الديكة ، إذ من تلك الناحية يأتي الهواء النقي . يستحم بعد ذلك ، يسوي لحيته ، يضمخ شاربه في جو عابق بماء الكولونيا الحقيقي من نوع فارينا جيجنبير ، ثم يرتدي بزة من الكتان الأبيض ذات صدرة ، يعتمد قبعة طرية وينتعل

جزمة من الجلد . إنه في الثمانين ، وما يزال يحتفظ بعفوية الأساليب والفكر المرح ، أمور عاد بها من باريس بعد فترة قصيرة من آفة انتشار وباء الكوليرا ، تسريحة الشعر الأنيقة مع الفرق البادي في الوسط لم تتبدل منذ مطلع شبابه ، اللهم ، إلا اللون الذي غدا معدنياً . يتناول إفطاره مع أفراد عائلته ولكنه يتبع نظام حمية خاص : نقيع زهرة الافسنتين للعناية بمعدته ، رأس ثوم بقشره ويأكل فصوصه واحداً واحداً مع الخبز البيتي ، يمضغها بعناية كوقاية من اختناقات القلب . ونادرة هي الأيام التي ليس لديه فيها ، بعد الانتهاء من محاضرته ، التزام يتعلق بمبادراته المدنية ، نشاطاته الكاثوليكية أو ابداعاته الفنية والاجتماعية .

يتناول غداءه في المنزل بشكل شبه دائم ، ينام قيلولة تستمر عشر دقائق جالساً على مصطبة الحديقة، يصغي كما لو أنه في حلم إلى أغاني الخادمات تحت ظلال أشجار المانغا ، إلى مناداة الباعة في الشارع ، إلى الجلبة الصاخبة للمحركات في الخليج الذي ترفرف رائحة عفونته في المنزل ، ما بعد ظهر الأيام الحارة ، كما لو أنها ملاك حكم عليه بالتعفن . يمضي ساعة بعد ذلك في مطالعة آخر ما صدر من كتب وخصوصاً الروايات والدراسات التاريخية ، ثم يعطي دروساً في اللغة الفرنسية والغناء لببغاء أليف بات منذ سنين موضع اهتمام في المحيط . في الرابعة ، وبعد أن يشرب دورقاً كبيراً من شراب الليمون المثلج يتصرف لعيادة مرضاه . رغم تقدمه في السن ، يرفض استقبال مرضاه في عيادته ويستمر في معالجتهم في منازلهم ، كما فعل دائماً منذ أن كانت المدينة متواضعة الحجم حيث بمقدوره الوصول سيراً على الاقدام إلى أية ناحية منها .

عندما رجع من أوروبا لأول مرة كان يتنقل بعربة الأسرة التي يجرها حصانان مذهبان ، وعندما صارت هذه العربة غير صالحة للاستعمال استبدلها بعربة من طراز فكتوريا يجرها حصان واحد . وقد استمر في استخدامها ، ليس دون شيء من الاحتقار لطرازها ، بعد أن أخذ هذا النوع من العربات بالاختفاء عن وجه الأرض ، وما تبقى منه يستعمل لنزهات السواح وحمل الأكاليل في المآتم فقط . وعلى الرغم من رفضه أن يحال إلى التقاعد ، فقد كان مدركاً أنه لن يُستدعى إلا لمعالجة حالات ميؤوس منها ، ولكنه اعتبر ذلك شكلاً من أشكال الاختصاص .

إنه قادر على معرفة ما يعاني منه المريض من مجرد رؤيته لهيئته . يبدي حذراً متزايداً من الأدوية المرخص بها ، وينظر بقلق إلى الإفراط في اللجوء إلى الجراحة يقول : « المبضع هو أكبر دليل على فشل الطب » . وهو يعتقد استناداً إلى الدليل القاطع أن كل دواء سم وأن خمساً وسبعين بالمائة من الأطعمة تعجل بالموت . على كل حال اعتاد أن يقول في الصف : « القليل المعروف من الطب ، يعرفه قلة من الأطباء » . من اندفاع المراهقة انتقل إلى حالة يحددها هو كإنسان قدري : « كل انسان هو سيد موته ، والشيء الوحيد الذي بمقدورنا القيام به هو مساعدته على الموت دون خوف وألم » . ومع ذلك ، وعلى الرغم من آرائه المتطرفة التي تشكل جزءاً من الفولكلور المحلي ، فقد استمر طلابه القدامى بأخذ رأيه مع أنهم هم أنفسهم باتوا أطباء محترفين بارزين لأنهم يقرون له بما عرف في ذلك الوقت باسم النظرة الطبية . ومهما يكن من أمر فقد كان دائماً طبيباً مرتفع الأجر ، خاصة وأن زبائنه يقطنون في المنازل الفخمة لحي « قيس ـ روا » .

وتيرة أيامه متشابهة إلى حد أنه بمقدور زوجته معرفة أين تجده لإخطاره بأمر طرأ أثناء تطوافه المسائي . في شبابه ، كان يعرج على مقهى « الباروس » قبل العودة إلى المنزل . وهناك جوّدَ لعب الشطرنج عن طريق والد زوجته وبعض اللاجئين الكاريبيين ، ولكنه لم يعد أبداً إلى هذا المقهى منذ إطلالات القرن الأولى ، وحاول أن ينظم دوريات وطنية في لعبة الشطرنج برعاية « النادي الاجتماعي » . في تلك المرحلة وصل جيريميا دي سانت أمور بركبتيه العاجزتين عن الحركة ولكن بدون مهنته كمصور للأولاد . في أقل من ثلاثة أشهر صار معروفاً لكل من يتقن تحريك بيدق على رقعة شطرنج ، إذ ما من أحد تمكن أن يكسب جولة منه . بدا ذلك لقاء معجزاً بالنسبة للدكتور جوفينال اربينو ، لأن لعبة الشطرنج صارت رغبة جامحة بالنسبة اليه ، ولم يعد يجد منافسين كثراً قادرين على إشباع تلك الرغبة .

وإذا كان جيريميا دي سانت أمور صار ما صار عليه بيننا فالفضل في ذلك يعود إليه . لقد غدا الدكتور جوفينال اربينو من يحميه ويكفله في كل أمر ، دون أن يكلف نفسه عناء معرفة من هو ، وماذا يفعل ، ومن أية حرب غير مجيدة خرج على تلك الصورة من الإعاقة والإرهاق . انتهى به الحال إلى إقراضه المال اللازم لإقامة

محترف التصوير ، وقد قام جيريميا دي سانت أمور بسداد المبلغ حتى آخر قرش بدقة القباطيني (*) منذ أن قام بتصوير الطفل الأول المرتعد من بريق المغنيسيوم .

الشطرنج هو سبب هذا كله . مواعيد الجولات كانت السابقة في البداية وكان الطبيب هو المستفيد منها بفعل التفوق الملحوظ للخصم ، إفادة أخذت تتناقص يوماً بعد يوم إلى أن باتا متكافئين . في ما بعد ، عندما أقدم دون غاليليو داكونت على إقامة أول دار للسينما في إحدى الحدائق ، وصار جيريميا دي سانت أمور أحد أكثر الزبائن مواظبة على الحضور ، انتقل موعد جولات الشطرنج إلى العشيات ، في الفترة التي لا يقدم فيها أي عرض سينمائي جديد . بلغت صداقته للطبيب حداً يرافقه معه لرؤية العرض ، ولكن أبداً برفقة زوجته . ومرد ذلك يعود في قسم منه إلى أن الزوجة تفتقد الصبر الكافي لمتابعة الحبكات المعقدة ، وفي قسمه الآخر لأنه يظن ، مجرد حدس ، أن صحبة جيريميا دي سانت أمر لا يروق لأحد .

نهار الأحد يومه المختلف . يحضر القداس الاحتفالي في الكاتدرائية ثم يرجع إلى المنزل يبقى فيه ، يرتاح ويطالع على مصطبة الحديقة . نادراً ما يقوم بعيادة مريض في يوم الرب هذا إلا عند الضرورة القصوى . ومنذ عدة سنوات يرفض القيام بأي واجب اجتماعي في هذا النهار ما لم يكن مرغماً على ذلك . في أحد العنصرة هذا ، وبمصادفة غريبة ، وقعت حادثتان غريبتان في الوقت عينه : موت صديق ، والاحتفال باليوبيل الفضي المهني لطالب قديم مشهور . ومع ذلك ، وبدلاً من أن يعود مباشرة إلى منزله بعد أن وقع شهادة وفاة جيريميا دي سانت أمور ، كما كان يظن نفسه فاعلاً ، فإنه انقاد إلى مشيئة فضوله .

ما إن صعد إلى العربة حتى استعجل قراءة رسالة المتوفى ، وأمر الحوذي بالتوجه إلى عنوان معقد في حي العبيد القديم . بدا قراره غريباً قياساً على عاداته إلى حد أراد الحوذي معه التأكد من أنه ليس في الأمر خطأ ما . ليس في الأمر خطأ : العنوان واضح ، والذي كتبه لديه من الأسباب ما يكفي ليكون على معرفة جيدة به . عاد الدكتور اربينو بعد ذلك إلى الورقة الأولى من الرسالة وغاص مرة

(*) القباطيني : صانع القباطين ، تاجر القباطين .

جديدة في ذلك السيل من الاعترافات غير المرغوب فيها ، والتي يمكن أن تغير مجرى حياته ، فيما لو توصل إلى الاقتناع بأنها ليست هذيان إنسان يائس .

بدأت حال الطقس بالتغير باكراً جداً . الجو غائم وبارد ولكن لا مجال لهطول المطر قبل انتصاف النهار . محاولاً اختيار الطريق الأكثر قصراً ، سلك الحوذي الأزقة المرصوفة في المدينة الكولونيالية، وكان عليه أن يتوقف مرات عدة كي لا يجفل الحصان من ضوضاء التجمعات والهيئات الدينية العائدة من إحياء طقوس العنصرة . في الشوارع ، أكاليل ورقية ، موسيقى ، أزهار ، وصبايا يحملن المظلات الملونة ويرتدين تنانير من الموسلين يتفرجن على الاحتفال من على الشرفات . في ساحة الكاتدرائية ، حيث يمكن بالكاد رؤية نصب « بطل التحرير »(١) وسط أشجار النخيل الإفريقية والمصابيح ، تسبب رهط الخارجين من القداس بزحمة سير خانقة ، كما لم يعد هناك طاولة واحدة شاغرة في مقهى « الباروآس » المحترم المرموق . عربة الخيل الوحيدة في المكان هي عربة الدكتور اربينو التي تتميز عن مثيلاتها من العربات الأخرى القليلة النادرة التي لا تزال تعمل في المدينة بغطائها المبرنق الذي ما يزال يحتفظ ببريقه ، وبزخارفها البرونزية كي لا تتآكل بفعل ملح البارود . الإطارات والدعائم مطلية باللون الأحمر ومزينة بدسارات مذهبة كما في حفلة ساهرة في أوبرا فيينا . وفي الوقت الذي كانت فيه أكثر العائلات رهافة تكتفي من الحوذي بارتداء قميص نظيف كان يصر هو أن يرتدي سائق عربته الزي المخملي الباهت نابضة(٢) مروضي السيرك التي عدا عن كونها زياً بائداً تتم بإلزام ارتدائها عن نقص في الرأفة بسبب شدة القيظ في الكاريبي .

وعلى الرغم من ولعه الشديد بالمدينة الذي يبلغ حد الهوس ، وعلى الرغم من معرفته لها أفضل من أي كان ، فإنه لم يتح للدكتور جوفينال اربينو، إلا في ما ندر ، سببٌ يدفعه كما في هذا الأحد ليتجول علناً في رائحة عفونة حي العبيد القديم . قام الحوذي بدورات عدة سائلاً غير مرة عن الطريق . تعرف الدكتور اربينو عن كثب على كثافة المستنقعات ، ركودها المنبىء ، رياح أمعائها التي تشبه

(١) بطل التحرير : هو سيمون بوليفار (ملاحظة للمترجم)
(٢) النابضة : قبعة رسميات تطوى وتنشر بواسطة نوابض .

www.liilas.com/vb3 NAYAHEEM

رياح أمعاء الغريق والتي تنساب إلى غرفة نومه في فجر ليلة سهاد ممزوجة بشذا ياسمين فناء الدار كنسيم عابر لا شأن له مع حياته . لكن تلك الرائحة النتنة التي طالما جملها الحنين تحولت إلى واقع لا يطاق عندما أخذت العربة تهتز في حفر الطريق الموحلة حيث تتصارع العقبان على نفايات المسلخ التي قذف بها المد . وخلافاً لما هو عليه الحال في مدينة « فيس ـ روايال » ذات البيوت المبنية من الحجر فإن البيوت هنا مبنية من الأخشاب التي فقدت لونها ، كما أنها ذات سقوف من الصفيح ، ترتفع غالبيتها على أوتاد خشبية كي لا تغمرها المياه المتدفقة من مزاريب السماء ، إرث أسباني . يلفها جميعاً البؤس والخيبة ، ومع ذلك ينبعث قصف موسيقي من عمق المطاعم الحقيرة البائسة ، عربدة دونما دين أو خلق ، عنصرة الفقراء . عندما وصلا العنوان أخيراً ، كانت العربة ملاحقة من قبل عصابة من الأولاد الأشقياء العراة الذين يهزأون من زي الحوذي المسرحي والذي كان عليه أن يطردهم بضربات من السوط . الدكتور ايربينو الذي أعد نفسه للقيام بزيارة سرية أدرك في وقت متأخر جداً أن النوايا السليمة أخطر ما تكون في مثل سنه .

ليس في المظهر الخارجي للمنزل الذي لا يحمل رقماً ما يميزه عن البيوت الأخرى الأقل حظاً سوى نافذة ذات ستارة من الدانتيل ، وبوابة خارجية منتزعة من إحدى الكنائس القديمة . قرع الحوذي الباب ، وعندما تأكد من سلامة العنوان ، ساعد الطبيب على النزول من العربة . فتحت البوابة دون ضجة ، وفي الظل الداخلي ظهرت امرأة ناضجة تتشح بسواد كامل وتضع وردة حمراء فوق أذنها . وعلى الرغم من أن عمرها ليس دون الأربعين ، فقد بدت خلاسية متعاظمة ، ذات عينين ذهبيتين قاسيتين وشعر مرتب بشكل رأسها حتى ليبدو كأنه قبعة من القش الحديدي . لم يعرفها الدكتور ايربينو على الرغم من رؤيته لها مرات عدة خلال أوقات التفكير أثناء جولات الشطرنج في مختبر المصور ، ووصف لها مرة أو مرتين بويقات الكينين لعلاج الحمى الرباعية . مد لها يده فاحتوتها بين يديها لتساعده في الدخول أكثر مما لتسلم عليه . تتميز قاعة الاستقبال بنضارة وجلبة غابة صغيرة ، كما أنها متخمة بالأثاث والأشياء الرائعة ، كل في مكانه المناسب . تذكر الدكتور دون حسرة متجر بائع تحف قديمة في باريس في يوم اثنين خريفي من القرن الماضي في الرقم ٢٦ من شارع مونمارتر . جلست المرأة قبالته ، وحدثته بلغة

إسبانية مرتبكة :

« أنت هنا في بيتك يا دكتور . لم أتوقع حضورك بمثل هذه السرعة » .

شعر الدكتور ايربينو بأنه قد خدع . تأملها بعين القلب . تأمل مدى حدادها ، جلال أساها . أدرك عندها أن زيارته زيارة عديمة الفائدة ، لأن هذه المرأة تعرف أفضل منه كل ما قاله وبرره رسالة المتوفي جيريميا دي سانت أمور . هذا صحيح . لقد رافقته حتى في الساعات القليلة التي سبقت موته ، كما رافقته خلال نصف عمره بتفان وحنان وانقياد ، أمور تشبه الحب إلى حد كبير ، دون أن يتنبه إلى ذلك أحد في عاصمة المقاطعة الخامدة هذه حيث تعتبر أسرار الولاية ملكاً للجمهور . لقد تعارفا في مضيفة للمشردين في « بور ـ أو ـ برنس » مسقط رأسها ، حيث أمضى هو أوقات فراره الأولى . بعد مضي سنة واحدة ، لحقت به إلى هنا للمكوث مدة قصيرة ، مع أن كليهما كان يعرف ودون أي اتفاق على ذلك بأنها قدمت لتبقى إلى الأبد .

تقوم بتدبير شؤون المنزل وترتيب المختبر مرة في الأسبوع ، ولكن حتى أكثر الجيران ميلاً لسوء الظن لم يخلطوا بين ظاهر الأمر وباطنه ، لأنهم يفترضون كما كل الناس ، أن عجز جيريميا دي سانت أمور لا ينحصر برجليه فقط . الدكتور ايربينو نفسه إفترض ذلك لأسباب طبية متينة الأسس ، ولم يشك أبداً بإمكان وجود امرأة في حياته لو لم يكشف له عن ذلك في الرسالة . ومهما يكن من أمر ، فقد بدا صعباً عليه أن يتصور راشدين حرين ، بلا ماض ، وبمنأى عن الأحكام المسبقة لمجتمع منطو على نفسه ، يختاران مخاطرة الغراميات المحرمة . قدمت له التفسير : « تلك هي رغبته » . إضافة إلى أن العلاقة السرية برجل لم يكن أبداً رجلها بشكل كامل والتي عرفا خلالها غير مرة دفقاً من السعادة الفورية ، لم تكن تبدو لها وضعاً غير مرغوب فيه . بل على العكس : لقد أثبتت لها الأيام أنها قد تكون نموذجية .

في المساء ، ذهبا إلى السينما ، كل بمفرده ، جلسا على مقعدين متباعدين كما اعتادا أن يفعلا منذ شهرين على الأقل ، منذ أن قام المهاجر الإيطالي دون غاليلو داكونت بإقامة صالة في الهواء الطلق في أطلال دير يعود إلى القرن السابع

عشر . شاهدا فيلماً مقتبساً عن كتاب عرف رواجاً في السنة الماضية ، وقد سبق للدكتور ايربينو أن قرأه والألم يعصر قلبه بسبب وحشية الحرب : « لا جديد في الغرب » . التقيا بعد ذلك في المختبر ، لاحظت أنه ساهم ووطاني(*)، عزت ذلك لرؤية المشاهد القاسية لجرحى يحتضرون في الوحل . أرادت الترويح عنه فدعته للعب جولة في الشطرنج . وافق على ذلك ليرضيها ، ولكنه لعب دون تركيز ، مختاراً البيادق البيضاء بالطبع ، إلى الوقت الذي عرف فيه أنه سيخسر الجولة بعد أربع نقلات فاستسلم دون مجد . عرف الطبيب عند ذلك أنها هي اللاعب الآخر في الجولة الأخيرة وليس الجنرال جيرونيمو أرغوت كما حسب لأول وهلة . تمتم مذهولاً :

« إنها جولة معلم ! » .

أشارت إلى أن الفضل في ذلك لا يرجع اليها ولكن إلى جيريميا دي سانت أمور الذي ، غارقاً في ضباب الموت ، أخذ يحرك البيادق بدون شغف. عندما توقف عن متابعة الجولة حوالي الساعة الحادية عشرة ، لأن موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت ، طلب إليها أن تدعه وحيداً . أراد كتابة رسالة إلى الدكتور جوفينال ايربينو الذي يعتبره الأكثر مدعاة للاحترام بين من عرف ، صديق روحه ، كما يطيب له أن يقول ، على الرغم من أن الجامع الوحيد بينهما هو الشطرنج بمفهومه كحوار للعقل وليس باعتباره علماً . عرفت عند ذلك أن جيريميا دي سانت أمور قد بلغ نهاية احتضاره ، وأنه لم يبق له في هذه الحياة سوى الوقت الكافي لكتابة الرسالة . لم يستطع الطبيب تصديق ذلك ، فقال متعجباً :

« هذا يعني أنك كنتِ تعرفين ! » .

أكدت أنها لم تكن تعرف ذلك فقط ولكنها ساعدته على تحمل آلام الاحتضار بالحب نفسه الذي بذلته لمساعدته في بلوغ السعادة ، فالأحد عشر شهراً الأخيرة لم تكن شيئاً آخر سوى هذا : احتضار رهيب .

قال الطبيب : « واجبك يقضي أن تبلغي عنه ».

ـ أجابت مستنكرة : « ليس بمقدوري الإقدام على ذلك : فأنا أحبه كثيراً » .

الدكتور ايربينو الذي يظن أنه قد سمع بكل شيء ، لم يسبق له أن سمع بأمر

(*) وُطاني : المرء الذي يحمل حنيناً للوطن .

مشابه ، ويقال هكذا بمنتهى البساطة . حدق في وجهها ، حواسه الخمس غاية في التيقظ ليحضر في ذاكرته صورتها في تلك اللحظة : جسورة بثوبها الأسود ، تشبه وثناً نهرياً بعينيها الشبيهتين بعيني أفعى ، وتلك الوردة فوق أذنها . قبل ذلك بزمن طويل ، وعلى شاطىء منعزل في هاييتي ، وبينما كانا يرقدان عاريين بعد ممارسة الحب ، تنهد جيريميا دي سانت أمور قائلاً : « لن أشيخ أبداً » . فسرت ذلك على أنه تعبير بطولي على رغبة في النضال دون هوادة ضد بنات الدهر . لكنه ما لبث أن أوضح ما يعنيه : قراره بالتخلص من الحياة في الستين كان حاسماً .

لقد بلغ الستين بالفعل في الثالث والعشرين من كانون الثاني الماضي ، وحدد كموعد أخير للتنفيذ عشية عيد العنصرة ، اكبر عيد مخصص للروح القدس في المدينة . لقد كانت تعرف مسبقاً أدق التفاصيل لكل ما جرى في الليلة السابقة ، إذ غالباً ما تحدثا عن ذلك ، يتألمان معاً لتدفق سيل الأيام العاجزين عن إيقافه . يحب جيريميا دي سانت أمور الحياة بشغف وجنون ، يحب الجنس والبحر ، يحب كلبه ويحبها هي . وكلما اقترب موعد التنفيذ كان يقعي أكثر فأكثر في وهدة اليأس كما لو أن موته لم يكن قراراً شخصياً وإنما هو قدر محتوم .

قالت : « مساء البارحة عندما تركته وحيداً ، كان قد صار من غير هذا العالم » .

أرادت أن تصطحب الكلب معها . ولكنه نظر اليه وهو يغفو قريباً من العكازين ، داعبه بأطراف أصابعه . قال : « أنا آسف ولكن مستر وودرو ويلسون سيذهب معي » . وفيما هو منصرف إلى الكتابة ، طلب إليها أن تربطه إلى قائمة السرير . ربطته بعقدة مزورة تمكن الحيوان من الفرار . وكان هذا هو التصرف الوحيد غير المخلص الذي قامت به ، تسوغه الرغبة في استمرار تذكر صاحب الكلب بالنظر إلى عيني الحيوان الشتويتين . ولكن الدكتور ايربينو قاطعها ليخبرها بأن الكلب لم يفلت . أجابته : « إذن لم يُرِدْ الإفلات » . وسرت بذلك ، لأنها تفضل في أعماقها أن تستذكر صورة الحبيب الميت بالشكل الذي طلبه منها خلال السهرة عندما توقف عن كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ، ونظر إليها للمرة الأخيرة قائلاً :

« ضعي وردة من أجل ذكراي » .

وصلت منزلها بعد منتصف الليل بقليل . استلقت على السرير بكامل ملابسها لتدخن . تشعل اللفافة من عقب اللفافة السابقة لتعطيه الوقت الكافي لإنهاء الرسالة التي تعرف أنها طويلة وشاقة . قبل الساعة الثالثة بقليل ، وعندما بدأت الكلاب بالنباح ، قامت بتسخين الماء لإعداد القهوة ، ثم ارتدت ثياب الحداد ، وقطفت من الجنينة أول وردة للصباح . أدرك الدكتور ايربينو منذ وقت غير قصير مدى الجهد الذي عليه أن يبذله ليتخلص من تذكر هذه الد رأة التي يصعب الخلاص منها ، وظن أنه يعرف السبب : فقط إنسان بلا مبادىء بمقدوره التعامل هكذا مع العذاب .

استمرت تقدم له أدلة أخرى على ذلك حتى انتهاء الزيارة . لن تذهب للمشاركة في المأتم لأنها وعدت حبيبها بذلك ، مع أن الدكتور ظن أنه فهم خلاف ذلك من إحدى فقرات الرسالة . لن تذرف دمعة واحدة . لن تفسد ما تبقى من أيام عمرها في معاناة اليأس والملل على نار هادئة في بحر من دموع الذكرى . ولن تدفن نفسها حية لتنسج كفنها بين أربعة جدران كما تفعل عادة الأرامل في هذه البلاد . وبحسب مقتضى الرسالة ، فإنها تفكر ببيع منزل جيريميا دي سانت آمور الذي بات ملكاً لها بكل محتوياته ، وستستمر في العيش كالعادة دون أن تتأفف من شيء في مهلك الفقراء هذا حيث تشعر بالسعادة .

أزعجت هذه العبارة الدكتور جوفينال ايربينو فيما هو في طريق عودته إلى المنزل . « مهلك الفقراء » . النعت ليس مجانياً ، فالمدينة مدينته خارج الزمن ، تبدو دائماً كما هي : المدينة المضطرمة والمنفرة برعب لياليها واستمناءات النضوج حيث تصدأ الأزهار ويفسد الملح ، وحيث ما من جديد منذ أربعمئة سنة سوى الهرم البطيء لأشجار الغار الذاوية والمستنقعات المتعفنة . في الشتاء تتسبب زخات المطر المفاجئة والمخربة في فيضان المجارير فتحول الشوارع إلى حفر موحلة تبعث على القيء . في الصيف ، غبار لامرئي لاذع كما الجمر المتقد يتسلل حتى إلى الأماكن التي لا يتخيل إنسان إمكان وصوله إليها ، تحمله ريح عاتية تطيح بسطوح المنازل وتطير الأطفال . أيام السبت ، يغادر أوباش الخلاسيين بصخب أكواخ الصفيح والكرتون القائمة على الضفاف الموحلة برفقة دواجنهم وكل خردواتهم ليشربوا ويأكلوا ويحتلوا بغارة احتفالية الشواطىء المحصبة المقابلة

للمدينة الكولونيالية . لسنوات قليلة خلت ، كان بعض العجزة منهم لا يزال يحمل وشم العبودية الملكي المحفور بالحديد المحمى على الصدر . يمضون نهاية الأسبوع كاملة في الرقص دون انقطاع ، يشربون حتى الموت كحولاً يصنعونه بأنابيق منزلية ، يمارسون الحب بين خيس الإيكاكيا(*) . في منتصف ليل الأحد يخربون « البنبولا » الخاصة بهم بتضارب دموي من الجميع ضد الجميع . إنه الجمهور الغوغائي نفسه الذي يتسلل في كل أيام الأسبوع إلى ساحات وأزقة الأحياء القديمة مع أسفاط(*) العرض التي تحوي كل ما يمكن بيعه أو شراؤه ، فيهبون للمدينة الميتة سُعار معرض بشري عابق برائحة السمك المقلي : حياة جديدة .

الخلاص من السيطرة الإسبانية ثم إلغاء الرق عجلا من حال الانحطاط المحترم التي ولد وترعرع في جوها الدكتور جوفينال إيربينو . تتلاشى العائلات الكبيرة للزمن الغابر بصمت داخل قصورها الخاوية . في زوايا الشوارع المبلطة ، التي أثبتت جدارتها في مواجهة الحروب وإنزالات القراصنة ، تتدلى الأعشاب السيئة من الشرفات مسببة الشقوق حتى في الجدران الكلسية والرملية للبيوت المعتنى بها . الدلالة الوحيدة على الحياة في الثانية بعد الظهر ، في هدأة القيلولة ، عزف فاتر على البيانو . تحتمي النسوة من الشمس داخل الغرف الباردة والمشبعة بالبخور كما من وباء مقيت ، ويغطين وجوههن حتى في قداديس الفجر الأولى . غرامياتهن بطيئة وقاسية ، غالباً ما يعكرها التطير ، وتبدو لهن الحياة دون نهاية . عند الغروب ، تهب من المستنقعات عاصفة من البرغش الكاسر ، وتنبعث رائحة غائط خفيفة ، حارة وحزينة ، تثير في أعماق النفس يقين الموت .

فحياة المدينة الكولونيالية القديمة التي رسم الشاب جوفينال إيربينو لها صورة مثالية في مالنخولياته(*) الباريسية لم تكن آنذاك سوى أوهام من الذاكرة . في القرن الثامن عشر ، كانت تجارتها الأكثر ازدهاراً في الكاريبي ، خاصة بفعل امتيازها

(*) الخيس : حَرَجة أشجارها فراخ نمت على أرومات الأشجار القديمة المقطوعة .
(*) أسفاط : الأشياء التي تعرض عليها البضائع .
(*) مالنخوليا : داء السوداء .

القبيح كأكبر سوق للعبيد الأفارقة في الأميركتين . يضاف إلى ذلك أنها كانت المقر التقليدي لحكام غرناطة الجديدة الذي كانوا يفضلون إدارة الحكم من هنا ، مقابل محيط العالم ، وليس من العاصمة النائية والمتجمدة والتي قد يفقدهم مطرها الذي يهطل مرة كل قرن ، الحس الواقعي . مرات عديدة في السنة ، تتجمع في الخليج أساطيل من السفن الشراعية الحربية والتجارية محملة بكنوز « بوتوسي » و « كيتو » و « فيراكروز » ، عرفت المدينة يومذاك سنوات مجدها . يوم الجمعة ، الثامن من حزيران سنة ١٧٠٨ ، في الرابعة بعد الظهر ، وبينما كانت السفينة « سان جوزيه » ترفع المرساة للإبحار نحو قادش بحمولة من الحجارة والمعادن الكريمة بقيمة نصف مليار بيزوس من نقد ذلك الزمن ، أغرقها الأسطول البريطاني أمام مدخل المرفأ . وبعد قرنين طويلين من الزمن لم تكن قد انتشلت . هذه الثروة القابعة في الأعماق المرجانية مع جثة القبطان العائمة منحنية إلى جهة غرفة القيادة ، غالباً ما ذكرها المؤرخون كرمز للمدينة الغارقة في ذكرياتها .

في الجهة الأخرى في حي « لامانغا » السكني ، ينتمي منزل الدكتور جوفينال ايربينو إلى زمن آخر . إنه منزل حديث كبير وعلى مستوى واحد ، ذو رواق مكون من أعمدة دورية ، يطل فناؤه الخارجي على بركة الوخم وحطام السفن الغارقة ، نعني بذلك الخليج . من باب المدخل حتى المطبخ ، رصفت الأرض ببلاط أبيض وأسود على شاكلة رقعة الشطرنج . عزوا ذلك إلى هواية الدكتور إيربينو الثابتة ، دون أن يفكر أحد بأنه قصور عام لدى البنائين الكتلانيين الذين تولوا بناء هذا الحي لحديثي النعمة . سقف قاعة الاستقبال الكبرى عال جداً ، وكذلك الحال في كل غرف المنزل ، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع ، وقد فصلت عن قاعة الطعام بباب مزجج مزين بجذوع دالية وبالحجنات(*) وبفتيات فتن بآلهات الريف العازفين على الشبابة في حريج من البرونز . الأثاث الفخم بادي الأبهة ، بما في ذلك ساعة الحائط المثبتة في الصالون والتي لها حضور حارس حي ، يعود جميعه إلى نهاية القرن ، أثاث إنكليزي الأصل ، بلور الشربات ذات الطراز البندقي مصنوعة من الكريستال الصخري ، وفي كل ناحية الأباريق والمزهريات من صنع

(*) الحجنات : جمع حجنة قضيب قصير يحمل عنقود عنب وهي هنا زينة بشكل عنقود عنب وأوراقه .

« سيفر » ، والتماثيل المرمرية الصغيرة لآلهات الحب الوثنية . تفتقد جميع أقسام المنزل إلى هذا الانسجام الأوروبي حيث تختلط المقاعد المصنوعة من السوْحر مع الكراسي الهزازة الفييناوية الصنع والمناضد الجلدية من الأرتيزانا المحلية . في غرف النوم ، تضاف إلى الأسرة أراجيح رائعة استقدمت من سان جاسينتو طرز عليها اسم صاحبها بالحروف القوطية بخيوط من الحرير ، ذات هدب ملونة في أطرافها . المساحة المخصصة أصلاً لمناسبات العشاء في إحدى نواحي قاعة الطعام ، حولت إلى صالون صغير للموسيقى حيث تقام حفلات موسيقية خاصة لدى قدوم عازفين مشهورين ، غطي بلاطه بسجاد عجمي تم شراؤه من معرض باريس الدولي بهدف توفير المزيد من السكينة في الغرفة . وضع فونوغراف حديث قرب رف تعلوه اسطوانات جيدة الترتيب ، وفي إحدى الزوايا يقوم بيانو غطي بشال من مانيلا ، بيانو لم يعزف عليه الدكتور ايربينو منذ سنوات . في كل أرجاء المنزل ، تسهل ملاحظة حصافة وعناية امرأة واثقة الخطى .

ومع ذلك فما من ناحية في المنزل تكشف عن الهوس بالفخامة كالمكتبة ، محراب الدكتور إيربينو قبل أن تمضي به الشيخوخة . هناك حول مكتب والده المصنوع من خشب الجوز ، والمثاوي الجلدية المنجدة ، غطى الجدران ، وكذلك النوافذ ، برفوف زجاجية تضم ثلاثة آلاف كتاب ، رتبت وفق نظام شبه جنوني ، جميعها متشابهة ، جُلدت بالسختيان ، تحمل في جانبها الحروف الأولى من اسمه بخط مذهب . وخلافاً لكل الغرف التي كانت تحت رحمة الضجيج والروائح الكريهة القادمة من الميناء ، فقد حافظت المكتبة دائماً على سر دير وأريجه . ولد وترعرع في ظل الوهم الكاريبي القائل انه يكفي فتح الأبواب والنوافذ للحصول على برودة غير موجودة في الواقع . أحس الدكتور إيربينو وزوجته بادىء الأمر بضيق الصدر . ولكنهما انتهيا إلى الاقتناع بجدوى الأسلوب الروماني في مواجهة القيظ القاضي بإغلاق المنازل في حمّارة قيظ آب كي لا يدخلها هواء الشوارع الحارق ثم فتحها من جهة إلى جهة لاستقبال رياح الليل . منذ ذلك الحين ، وتحت شمس لامانغا الحارقة ، صار منزلهما الأكثر برودة ، وهكذا غدت القيلولة ممتعة في غرف النوم وكذلك الجلوس في نهاية ما بعد الظهر في الرواق لمشاهدة بواخر الشحن الضخمة الغبراء القادمة من نيو أورليانز والمراكب النهرية ذات العجلات الخشبية والتي تنقي

بأنوارها ، كما الفاصل الموسيقي ، مقذرة مياه الخليج الراكدة . إنه المنزل الأفضل حماية عندما تهب الصابيات* القادمة من الشمال ما بين كانون الأول وآذار مقتلعة السطوح ، تمضي الليل بكامله تحوم حول المنزل كما الذئاب الجائعة ، بحثاً عن شق تستطيع النفاذ منه . ما من أحد سمح لنفسه بالتفكير أن ثنائياً يقيم في مكان كهذا يملك اي مسوغ كي لا يكون سعيداً .

على كل حال ، لم يكن الدكتور إيربينو سعيداً في ذلك الصباح عندما عاد إلى منزله قبل العاشرة بقليل ، مضطرباً بسبب الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين المشاركة في قداس العنصرة فحسب ، بل إضافة إلى ذلك ، تهددان بتحويله إلى رجل آخر في عمر حسب فيه أن كل شيء قد انتهى . أراد أن ينام قليلاً قبل الذهاب إلى المأدبة الاحتفالية التي يقيمها الدكتور لاسيدس أوليفيلا ، ولكنه وجد الخدم في حال هياج يحاولون الامساك بالببغاء الذي طار وحط على أعلى غصن من أغصان شجرة المانغا عندما قاموا بإخراجه من القفص لقص جناحيه . إنه ببغاء أهوس ، منتوف الريش ، لا يتكلم عندما يطلب منه ذلك وإنما في الأوقات غير المناسبة ، وعندما يتكلم ، يتكلم بوضوح وتعقل كما الكائنات البشرية . لقد دربه على الكلام الدكتور ايربينو شخصياً ، امتياز لم يحصل عليه أي من أفراد الأسرة ، بمن في ذلك أولاده عندما كانوا صغاراً .

لقد مضى عليه عشرون عاماً في هذا المنزل ، ولا أحد يدري كم من السنوات عاش قبل ذلك . بعد ظهر كل يوم ، وإثر القيلولة ، يجلس الدكتور ايربينو معه في باحة الجنينة ، المكان الأكثر برودة في المنزل . أفاد من أكثر معارفه التربوية صعوبة حتى مكن الببغاء من تكلم اللغة الفرنسية كأكاديمي . ثم وبدافع من تعلقه بالفضيلة علمه تلاوة القداس باللاتينية ومقاطع مختارة من إنجيل القديس متى . كما حاول ، دون أن يوفق إلى ذلك ، تلقينه مبادىء آلية تتعلق بالعمليات الأربع . في واحدة من آخر رحلاته إلى أوروبا حمل معه أول حاكٍ ذي بوق مع العديد من الأسطوانات لمغنين معروفين يومذاك ، وعدداً آخر للمؤلفين الكلاسيكيين المفضلين لديه . يوماً بعد يوم ، دون كلل ، وخلال شهور عدة ، أسمع الببغاء أغنيات إيفيت

(*) الصابيات : رياح تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .

جيلبير ، اريستيد بريان اللذين كانا بهجة فرنسا في القرن الماضي ، فحفظها الطائر عن ظهر قلب . يغنيها بصوت رجل أو امرأة ، حسب المقتضى ، وينهي بعاصفة من الضحك الماجن التي لم تكن سوى صدى فاقع لضحك الخادمات عندما يسمعنه يغني بالفرنسية . صيت فراهته ذهب بعيداً إلى حد أن بعض السياح البارزين القادمين من مناطق الداخل على متن المراكب النهرية يطلبون السماح برؤيته . ذات يوم ، أراد سياح بريطانيون ، الذين غالباً ما كانوا يسافرون على متن سفن شحن الموز القادمة من نيو أورليانز ، شراءه مهما كلف الثمن . ومع ذلك فقد بلغ ذروة مجده في ذلك اليوم الذي قدم فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيديل سواريز وأعضاء حكومته بكامل ثيابهم الرسمية إلى المنزل للتثبت من مصداقية شهرته . وصلوا في الثالثة بعد الظهر مختنقين بزيهم الرسمي وربدنغوتات الجوخ التي ما فتئوا يرتدونها منذ ثلاثة أيام ، مدة الزيارة الرسمية ، تحت السماء الحارقة لشهر آب . كان عليهم المغادرة بالحرج نفسه الذي قدموا فيه ، لأنه خلال ساعتين من الجهد الميؤوس منه ، رفض الببغاء النطق بأي مقطع على الرغم من التوسلات ، والتوعدات ، والخجل البادي على الدكتو ايربينو ، الذي أصر على هذه الدعوة ـ المجازفة ، رغم التحذيرات الحكيمة لزوجته .

احتفاظ الببغاء بمنزلته بعد عجرفته التاريخية هذه ، يعطي الدليل القاطع على مكانته المقدسة . لا مكان لأي حيوان في المنزل باستثناء السلحفاة التي ظهرت في المطبخ من جديد بعد مضي ثلاث أو اربع سنوات ظُن خلالها أنها فُقدت إلى الأبد . إذ لا ينظر اليها على أنها كائن حي وإنما كتميمة جامدة تجلب الفال الحسن . ولا أحد يعرف من أي مصدر علمي استمد مثل هذا الاعتقاد . يرفض الدكتور ايربينو التسليم بأنه يكن كرهاً للحيوانات، ويستر ذلك بوابل من الأساطير العلمية والذرائع الفلسفية التي تبدو مقنعة بالنسبة للكثيرين ولكن ليس لزوجته . فهو يرى بأن الذين يغالون في محبة الحيوانات هم أقدر الناس على ارتكاب أبشع الأعمال القاسية بحق الكائنات البشرية . وان الكلاب ليست وفية بل حقيرة ، وأن الهررة انتهازية وغادرة ، وأن الطواويس تحمل في أذيالها عارضة الموت ، وأن الكتوات ليست سوى زينة مزعجة ، وأن الأرانب تثير الجشع ، وان القرود تعدي بسعار الشبق ، وملعونة هي الديكة لأنها استعملت من أجل إنكار المسيح ثلاث مرات .

في المقابل ، زوجته فيرمينا دازا ، التي لها من العمر آنذاك اثنتان وسبعون سنة ، والتي فقدت مشيتها التي تشبه مشية الغزال ، مشية تميزت بها أيام صباها ، تعبد الأزهار الاستوائية والحيوانات الأليفة . في بداية حياتها الزوجية ، أفادت من حبه المضطرم لتقتني في منزلها من الحيوانات أكثر مما يقتضيه الذوق السليم . أول ما اقتنته ثلاثة كلاب دلماسية تحمل أسماء أباطرة رومان تنازعت في ما بينها من أجل مفاتن كلبة لها شرف حمل اسم ميسالينا . كلبة تحتاج لتلد تسعة جراء إلى وقت أكثر من الذي تحتاجه لتحبل بعشرة آخرين . ثم أتى دور الهررة الأبيسينية المتميزة بجانبية النسر وعادات الفراعنة .والهررة السيامية الحولاء . فارسيات فناء الدار بعيونها البرتقالية ، تشرد في المخادع كظلال أشباح وتملأ الليالي صخباً بمواء غرامياتها المرحة . طوال بضع سنوات ، ربط بجذع شجرة المانغا في الحديقة قرد أمازوني يثير بعضاً من شفقة بسبب هيئته القلقة الشبيهة بهيئة المطران أوبديليو إي راي ، براءة النظرة عينها وخفة اليدين نفسها . ولكن كان على فيرمينا دازا أن تتخلص منه ، لا لهذا السبب ، وإنما بسبب عادته السيئة في إشباع رغبته الجنسية على نية السيدات .

كل أنواع الطيور المعروفة في غواتيمالا ماثلة في أقفاص تغص بها الممرات ، واقات(*) منذرة ، أنواع مالك الحزين طير المستنقعات ذي القوائم الطويلة الصفراء ، غزال فتي يمر برأسه من النوافذ ليقتات من أزهار المزهريات . قبل زمن قصير من اندلاع آخر حرب أهلية ، عندما أشاروا ولأول مرة إلى إمكان قيام البابا بزيارة محتملة ، استقدموا من غواتيمالا عصفور الجنة الذي أمضى للوصول مدة أطول من تلك التي أمضاها في العودة إلى بلاده ، عندما عرف الجميع ان الإعلان عن الزيارة الحبرية مجرد إشاعة نشرتها الحكومة لإثارة الهلع في صفوف المتآمرين الليبراليين . ذات يوم ، اشتريا من مراكب مهربين من « كيراساو » قفصاً من الأسلاك الحديدية يحوي ستة غربان شبيهة بالغربان التي كانت تمتلكها فيرمينا دازا وهي لا تزال صبية في بيت أبيها ، وأرادت أن تمتلكها من جديد في منزل الزوجية . ولكن أحداً لم يطق احتمال خفقات الأجنحة المستمرة ورائحة أكاليل

(*) واقات : نوع من الطيور من رتبة طويلات الساق

الموت التي تنشر النتن في المنزل. احضرا أفعى من نوع أناكوندا، طولها أربعة أمتار ، ومثل صيادٍ لا ينام ، يزعج فحيحها عتمة غرف النوم . وإن أفادوا منها ما طمحوا إليه ، فهي تطرد بأنفاسها المميتة الخفافيش والسمندلات والأنواع المختلفة من الحشرات المضرة التي تجتاح المنزل في موسم الأمطار . في ذلك الزمن ، كان الدكتور جوفينال اربينو المشدود إلى واجباته المهنية والغارق في رسالته المدنية والثقافية يشعر بالرضى لمجرد تصوره أن زوجته وسط كل تلك المخلوقات الكريهة ، ليست المرأة الأجمل في كل أنحاء الكاريبي فحسب ، وإنما الأكثر سعادة . ومع ذلك ، وذات مساء ماطر ، في نهاية نهار مضنٍ ، عرف المنزل كارثة وضعته في مواجهة مع الحقيقة . من قاعة الاستقبال وإلى مرمى البصر ، تناثرت حيوانات ميتة تسبح في بركة من الدماء . الخادمات وقفن على الكراسي لا يعرفن ما العمل ، لم يستطعن تمالك أنفسهن لهول المجزرة .

ما حدث هو أن أحد كلاب الحراسة الألمانية أصيب فجأة بسعار حاد فأخذ يمزق كل حيوان يجده أمامه مهما كان نوعه إلى أن واتت الشجاعة بستاني المنزل المجاور للتصدي له ولتمزيقه إرباً بضربات من الساطور . وبما أنه لم تعرف الحيوانات التي عض أو نقل اليها العدوى عن طريق لعابه المزبد الأخضر ، فقد أمر الدكتور بقتل ما تبقى منها على قيد الحياة وحرق جثثها في حقل بعيد . ثم طلب من قسم الخدمات في مستشفى الرحمة تعقيم المنزل رأساً على عقب . الحيوان الوحيد الذي بقي على قيد الحياة ، ولم يتنبه أحد لوجوده هو السلحفاة جالبة السعد .

سلمت فيرمينا دازا ، ولأول مرة ، بسداد رأي زوجها في قضية منزلية ، وحاذرت لمدة طويلة أن تتحدث معه عن الحيوانات . واست نفسها بصور انتزعتها من كتاب « التاريخ الطبيعي » لمؤلفه « لينيه » ، بروزتها وعلقتها على جدران الصالون ، وفقدت كل أمل برؤية حيوان في منزلها لو لم يقدم اللصوص صباح يوم جميل على خلع نافذة قاعة الاستحمام وسرقة الآنية الفضية للمائدة المتوارثة عبر خمسة أجيال . ثم تركيب أقفال مزدوجة في موضع إغلاق النوافذ ، أحكم إقفال الأبواب من الداخل بمزالج حديدية . وضع الأغراض الثمينة في الخزنة ، واستعاد ، ولو متأخراً ، العادة الحربية في النوم والمسدس تحت المخدة ، ولكنه

عارض شراء كلب حراسة ، ملقح أو لا ، طليق أو مقيد ، حتى وان لم يترك له اللصوص سوى سرواله .

« لن يدخل إلى هذا المنزل من لا يجيد النطق » .

قال هذه الكلمات ليضع حداً لمماحكة زوجته المصرة من جديد على شراء كلب ، دون أن يخطر بباله ولو لثانية واحدة ان هذا التصميم المتسرع سيكلفه حياته . فيرمينا دازا ، التي رققت السنون من طبعها الخشن تمسكت بزلة اللسان التي صدرت عن زوجها : بعد مضي بضعة شهور على حادث السرقة ، ذهبت إلى أحد المراكب القادمة من « كيراساو » واشترت ببغاء ملكياً من « باراماريبو » لا يعرف من الكلام سوى شتائم البحارة ، يلفظها بنبرة بشرية إلى حد يجعله قميناً بالثمن المرتفع البالغ إثني عشر سنتيموس .

ينتمي إلى سلالة جيدة ، أكثر خفة مما يبدو عليه ، أصفر الرأس أسود اللسان ، الوسيلة الوحيدة لتمييزه عن ببغاوات القرام غير المؤهلة لتعلم الكلام ولا حتى مع تحاميل التربنتين . الدكتور ايربينو ، خاسر جيد ، انحنى أمام دهاء زوجته وفوجىء هو نفسه بمدى تسليته وهو يرى مدى التقدم الذي أحرزه الببغاء الذي شغفت به الخادمات أيضاً . في الأمسيات الماطرة حيث يبدو ريشه مبللاً كما الحساء ، تنحل عقدة لسانه من السعادة فيقول عبارات ترجع إلى الماضي ، لم يسبق له أن تعلمها في المنزل مما يسمح بالافتراض أنه أكبر سناً مما يبدو عليه . زال آخر تحفظ للطبيب عندما حاول اللصوص التسلل من كوة مستديرة في الفناء . أخافهم الببغاء بنباح ما كان أكثر صدقاً لو أنه صدر عن كلب حقيقي وهو يصرخ : « أنذال ، أنذال ، أنذال » ، مبادرتان منقذتان لم يتعلمهما في المنزل . منذ ذلك الحين تعهده الدكتور ايربينو بالرعاية . بنى له تحت شجرة المانغا مجثماً مع إناء للماء وآخر لعصيدة الموز ، إضافة إلى بهلوانية من أجل شقلباته . في الفترة الممتدة ما بين كانون الأول وآذار حيث تصبح الليالي باردة ، وتقلبات الطقس لا تحتمل بفعل الرياح الشمالية ، ينقل لينام في غرف النوم داخل قفص تتم تغطيته ، على الرغم من أن الدكتور ايربينو يشك بأن رعامه المزمن قد يشكل خطراً على التنفس السليم لبني البشر . طوال سنوات عديدة تولوا قص ريش جناحيه وتركه طليقاً يجول على هواه بخطاه العرجاء كما المحارب القديم . ذات يوم ، أخذ يتظارف بالقيام بحركات بهلوانية على عارضات المطبخ ، فوقع في قدر السلافة ،

أخذ يصرخ برطانة قرصان « النجاة ، النجاة » ، حسن طالعه مكن الطاهية من أن تخرجه بالمغرفة مسلوقاً متوفاً وإنما على قيد الحياة . منذ ذلك يحفظونه في قفصه حتى خلال النهار ، متوهمين ان الببغاوات تنسى ما تعلمته إذا ما احتجزت في الأقفاص ، ولا يخرجونه من القفص إلا في برودة الساعة الرابعة ليعطيه الدكتور ايربينو الدروس على مصطبة الجنينة . لم يلاحظ أحد في الوقت المناسب أن ريش جناحيه بات طويلاً جداً في ذلك الصباح الذي استعدوا فيه لقصه ، فأفلت وحط في أعلى شجرة المانغا .

انقضت ثلاث ساعات دون أن يتمكنوا من الإمساك به . لجأت الخادمات ، تساعدهن في ذلك خادمات الجيران ، إلى مختلف أنواع الحيل من أجل إنزاله ، ولكنه عنيد ، لا يتزحزح من مكانه يصرخ ضاحكاً بتشنج « فليحيا الحزب الليبرالي ، يا إله اللعنة ، فليحيا الحزب الليبرالي » ، هتاف جريء كلف أكثر من سكير حياته . بالكاد تمكن الدكتور ايربينو من تمييزه بين أوراق شجر المانغا ، حاول إقناعه بالإسبانية أول الأمر ، ثم بالفرنسية ، وحتى باللاتينية ، فيجيبه الببغاء باللغات نفسها وبنفس الفصاحة ونبرة الصوت ولكن دون ان يتزحزح مع ذلك من عرينه . اقتنع أن لا أحد قادر على الوصول إليه باللطف فأمر الدكتور ايربينو بطلب مساعدة رجال الاطفائية أحدث موضوع لاهتماماته المدنية .

وفي الواقع ، وحتى عهد قريب كان يتم إطفاء الحرائق بواسطة متطوعين يستخدمون سلالم البنائين وأسطل من الماء تجلب كيفما اتفق وبأساليب فوضوية قد تتسبب أحياناً بأضرار تفوق تلك التي أحدثتها النار نفسها . ولكن اعتباراً من السنة الماضية ، وبفضل مبادرة أطلقتها جمعية الإصلاح العامة والتي كان جوفينال إيربينو رئيساً فخرياً لها بات هناك فريق إطفائي محترف ، وشاحنة صهريج مزودة بناقوس وصفارة إنذار وخرطومي ماء يعملان بالضغط . كان ذلك الحدث البارز لتلك الفترة إلى حد توقف الدروس في المدارس لدى سماع أجراس الكنائس وهي تقرع بعنف ليتاح للتلامذة رؤية رجال المطافىء وهم يكافحون النيران . لم يقوموا بغير ذلك أول الأمر . ولكن الدكتور ايربينو ذكر للسلطات البلدية ما شاهده في هامبورغ حيث تمكن رجال المطافىء من بعث الحياة في صبي عثروا عليه متجمداً في كهف إثر تساقط الثلوج طوال ثلاثة أيام . كما رآهم أيضاً ، في أحد أزقة نابولي ينزلون إنزال

تابوت أحد الموتى عن شرفة منزل في الطابق العاشر ، لأن أدراج المبنى متعرجة إلى حد حالت بين أسرته والقدرة على الوصول به إلى الشارع . وهكذا تعلم رجال المطافىء تقديم خدمات أخرى طارئة . وقامت كلية الطب بإعداد دورة خاصة لهم في مجال الإسعافات الأولية لمواجهة الحوادث الصغيرة . إذن ليس من السخف الطلب إليهم المساعدة في إنزال ببغاء مرموق عن شجرة ، خاصة وأنه يملك من المميزات ما يملكه سيد ماجد . أوضح الدكتور إيربينو : « قولوا لهم : أنا من يطلب ذلك » . انصرف إلى غرفته يرتدي ملابسه للذهاب إلى حفل الغداء . جل ما في الأمر ، أنه كان مغتماً في تلك اللحظة ، رازحاً تحت وطأة رسالة جيريميا دي سانت أمور ، لذلك لم يحفل كثيراً بمصير الببغاء .

ارتدت فيرمينا دازا بلوزة حريرية ، واسعة وفضفاضة ، تصل حتى ردفيها ، وتزينت بسلسلة عقدية أصلية مؤلفة من ست طبقات غير متساوية ، كما انتعلت حذاء من الجلد الصقيل عالي الكعبين لا تنتعل مثله إلا في المناسبات الهامة ، إذ بالكاد يسمح لها سنها بمثل هذه التجاوزات . هذا التبرج المنسجم مع ذوق المرحلة بدا غير مناسب لجدة وقورة ولكنه ملائم تماماً لقوامها النحيل الممشوق ويديها الرشيقتين الخاليتين من أية برقشة وشعرها الفولاذي الأزرق المقصوص بطريقة مائلة على مستوى الخدين . من كل المعالم البادية في صورة زفافها ، الأمور الوحيدة التي ما تزال تحتفظ بها عينان لوزيتان شفافتان وكبرياء ولد معها . أما ما انتزعته منها السنون فقد عوضته بخلقها وغمرته بفيض من قلبها . تشعر أنها على ما يرام : فقد ولت أيام المشدات المعدنية القديمة والقوام المضغوط والأرداف المرفوعة بواسطة خرق القماش ، وباتت الأجساد طليقة تتنفس كما يحلو لها وتبدو كما هي حتى في الثانية والسبعين من العمر .

وجدها الدكتور ايربينو جالسة إلى كرسي زينتها تحت رياش مروحة كهربائية ، تعتمر قبعة منفرجة الأسفل ، مزخرفة بأزهار البنفسج المطرزة باللبد . غرفة النوم واسعة ومتألقة ، سرير انكليزي الطراز تظلله ناموسية من التول الوردي ، نافذتان تطلان على أشجار الحديقة يدخل منها صرير الزيزان المضطربة وقد أحست اقتراب موسم الأمطار . منذ عودتها من رحلة الزفاف تقوم فيرمينا دازا بانتقاء ملابس زوجها وفق مقتضى الزمان والمناسبة ، تضعها في العشية مرتبة على كرسي كي يجدها

جاهزة فور خروجه من قاعة الاستحمام . لم تعد تذكر متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه ، ثم مبادرتها لتولي ذلك بنفسها . بدت تدرك تماماً أن الحب دفعها إلى ذلك في بداية الأمر ، ولكن منذ خمس أو ست سنوات بات يتوجب عليها فعل ذلك مهما كلف الأمر ، إذ لم يعد قادراً على ارتداء ملابسه بنفسه . لقد احتفلا منذ مدة وجيزة باليوبيل الذهبي لزواجهما ، ومع ذلك لا يستطيع الواحد منهما أن يعيش لحظة واحدة دون الآخر ، أو دون أن يفكر أحدهما بالآخر ، مع أنهما باتا يعرفان ذلك بدرجة أقل مع تقدمهما في الكبر . ليس بمقدور أي منهما القول بأن هذه العبودية المتبادلة مبنية على الحب أو على الرفاهية ، إذ إنهما لم يطرحا هذا السؤال من كل قلبيهما لأن كليهما فضل دائماً أن يجهل الجواب . لاحظت تعثر خطى زوجها الذي يزداد شيئاً فشيئاً ، تبدل مزاجه المفاجىء ، خلل ذاكرته ، عادته الجديدة في النحيب وهو نائم ، ولم تر في ذلك دلالات لا تقبل الجدل على التأكد النهائي وإنما عودة سعيدة إلى الطفولة . ولهذا لم تعامله كعجوز مشاكس ، بل عاملته كطفل هرم . هذا الانخداع كان نعمة إلهية لكليهما لأنه جعلهما بمنأى عن مشاعر الشفقة .

مختلفة كانت ستغدو حياتهما لو عرفا في الوقت المناسب أن مواجهة المشاكل المؤلمة في الزواج أكثر سهولة من مواجهة المضايقات الصغيرة التي تقع كل يوم . ولكن إذا كان من أمر عرفاه معاً فهو أن الحكمة تأتينا عندما تصبح عديمة الجدوى . لقد تحملت فيرمينا دازا على مضض ، طوال سنوات ، استيقاظات زوجها المرحة . كانت تتشبث بآخر خيوط الرقاد كي لا تواجه قدر فجر جديد حافل بعلامات التطير ، بينما يستفيق هو ببراءة الطفل الوليد : كل نهار جديد ، نهار مكسوب . تسمعه يستفيق مع صياح الديك ، أول دلائل الحياة عنده سعال لا مسوغ له ، وكأن المقصود منه إيقاظها هي أيضاً . تسمعه يحتج بهدف إزعاجها فقط مفتشاً على غير هدى عن خفيه الموضوعين بدون شك قرب قائمة السرير . تسمع وقع خطوات يتلمسها في الظلام وهو يقصد قاعة الاستحمام . بعد أن يمضي نصف ساعة في مكتبه ، مدة كافية كي تغفو هي من جديد ، تسمعه وهو يعود ليرتدي ملابسه دون أن يشعل النور . ذات يوم ، خلال دردشة في الصالون ، سئل ما هو التحديد الذي يعطيه عن نفسه فأجاب : « أنا رجل يرتدي ملابسه في العتمة » . تصغي اليه وهي

على ثقة أنه لا مسوّغ لأية ضجة يقوم بها ، وأنه يفعل ذلك عمداً على الرغم من تظاهره بخلاف ذلك ، تماماً مثلما هي مستيقظة وتصطنع النوم . دوافعه واضحة : فهو لم يحتج اليها أبداً نشيطة وقادرة كحاجته اليها في هذه اللحظات العصيبة .

ما من امرأة أكثر أناقة منها وهي نائمة . ترسم ملامح رقصة . يد على الجبين . ولكن في المقابل ، ما من امرأة أكثر شراسة منها عند إقلاق راحتها الجسدية بالافتراض أنها نائمة دون أن تكون كذلك . يعرف الدكتور اربينو أنها تصغي إلى أدنى ضجة يحدثها ، وأنها تكاد تكون شاكرة له لأنه أوجد لها من تحمله خطيئة إيقاظها في الخامسة صباحاً . إذ عندما يحدث له أن يخبط على غير هدى في العتمة بحثاً عن خفيه في مكانهما المألوف ، تقول له فجأة بصوت ناعس : « لقد تركتهما مساء البارحة في قاعة الإستحمام». ثم تزيد بعد ذلك بصوت أثاره الغضب :

« أسوأ ما في هذا المنزل ، أن المرء غير قادر حتى على النوم فيه » .

عندها تتقلب في الفراش ، تشعل النور دون أدنى تسامح مع نفسها ، سعيدة بانتصارها الأول في ذلك النهار . في الحقيقة، يمارس كلاهما لعبة وهمية وضالة . ولكنها ومن هنا بالذات ، لعبة مسلية : متعة خطرة منتشرة بين أتباع الحب المُستَعْبِد . ومع ذلك ، وبسبب واحدة من هذه الألعاب المبتذلة ، كادت أن تنهار السنوات الثلاثون الأولى من حياتهما معاً لأنه ذات يوم لم يكن هناك صابون في الحمام .

بدأ كل شيء بالبساطة المعهودة . دخل الدكتور جوفينال اربينو الغرفة في الوقت الذي يستحم فيه دون مساعدة ، وأخذ يرتدي ملابسه في العتمة . كانت هي كعادتها في مثل تلك الساعة في حال من الدفء الجنيني . عيناها مغلقتان . تنفسها منتظم . وذراع تلك الرقصة المقدسة فوق الجبين . إنها نصف مستيقظة كما هي العادة ، وهو يعرف ذلك . بعد حفيف طويل للكتان المنشى ، وفي الظلام ، قال الدكتور اربينو وكأنه يخاطب نفسه :

« منذ أسبوع على الأقل وأنا استحم دون صابون » .

عندها استيقظت بشكل كامل ، تذكرت وثارت ثائرتها ضد الكون بأسره لأنها

نسيت فعلاً أن تضع الصابون في قاعة الاستحمام . قبل ثلاثة أيام ، وفيما هي تحت الرشاش ، لاحظت نفاد الصابون ، فقالت في نفسها إنها ستحضر قطعة منه في ما بعد، ولكنها نسيت أن تقوم بذلك في ما بعد، كما نسيت فعل ذلك في اليوم التالي . وفي اليوم الثالث ما زال الوضع على حاله . في الواقع ، تلك المدة لا تشكل اسبوعاً كما يزعم ليزيد من إحساسها بالذنب. ولكن ثلاثة أيام لا تغتفر. والحنق الناتج عن شعور إمساكها متلبسة بالذنب أديا إلى إخراجها عن طورها . وكما هي العادة ، حتى تدافع عن نفسها ، بادرت الى الهجوم .

صرخت مزبدة : « أما أنا فقد كنت أستحم كل يوم ، وكان هناك صابون » .

ومع أنه يعرف عن ظهر قلب خططها الحربية ، فإنه لم يستطع احتمالها هذه المرة . متذرعاً بدوافع مهنية أقام في إحدى غرف مستشفى الرحمة ، لا يعود إلى المنزل إلا من أجل إبدال ملابسه في نهاية ما بعد الظهر قبل عيادة مرضاه في منازلهم . عندما تحس قدومه تنصرف إلى المطبخ متظاهرة بأنها مشغولة ، وتبقى هناك حتى تسمع وقع حوافر خيول العربة في الشارع .

في الأشهر الثلاثة التي تلت ، أدت كل المحاولات التي قاما بها لفض النزاع إلى مزيد من احتدامه . لم يكن على استعداد للعودة إلى المنزل ما لم تقر بأن قاعة الاستحمام كانت تفتقر إلى الصابون ، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما لم يعترف بأنه كذب عليها عن سابق تصور وتصميم بهدف تعذيبها .

وبالطبع ، فقد أتاح لهما هذا الحادث الفرصة لتذكر حوادث أخرى ، مآخذ أخرى صغيرة وكثيرة جرت في أيام صعبة عديدة . بعض الضغائن أثار بعضها الآخر . أعيد فتح جروح قديمة ، بدت جروحاً حديثة . اعترى الهلع كلاً منهما إزاء الواقع المحزن إذ انه طوال كل تلك السنوات الطويلة من المعارك الزوجية لم يتوصلا سوى إلى اجترار الضغينة . وصل به الأمر إلى حد اقترح عليها فيه أمام المطران اذا لزم الأمر ليقرر اللّه كحكم أخير ما إذا كان هناك صابون في مصبنة قاعة الإستحمام . عند ذلك ، هي التي كانت أبداً ثابتة لا تتزعزع ، فقدت توازنها وندت عنها صرخة تاريخية :

« فليذهب المطران ليفعلها ! » .

هزت الشتيمة أسس المدينة . باتت مصدراً لأقاويل من الصعب تكذيبها . دخلت المأثور الشعبي بزي كرمنيولي : « فليذهب المطران ليفعلها ! » . مدركة أنها قد تجاوزت كل الحدود ، استبقت ردة الفعل المتوقعة من زوجها ، هددت بالانتقال لتقيم وحدها في منزل أبيها القديم الذي ما يزال ملكاً لها على الرغم من كونه مؤجراً للإدارة التي أقامت فيه مكاتبها . لم يكن ما قالته مجرد هذر : أرادت الذهاب فعلاً غير عابئة بالفضيحة العلنية ، وأدرك زوجها ذلك في الوقت المناسب . لم يمتلك الشجاعة الكافية لمواجهة عدوانيتها : استسلم . لا لأنه سلم بوجود الصابون في قاعة الاستحمام ففي ذلك إهانة للحقيقة ، وإنما قبل الاستمرار في العيش معها تحت سقف واحد ، ولكن في غرفتين منفصلتين ، دون أن يكلمها . هكذا يأكلان ، يتفاديان حراجة الموقف بكثير من البراعة إذ يتبادلان الطلبات من طرف إلى الطرف الآخر بواسطة ولديهما دون أن ينتبه الولدان إلى أنهما لا يتبادلان الكلام .

وبما أن مكتبه يفتقد إلى قاعة استحمام ، فإن تلك الصيغة حلت مشكلة الجلبة الصباحية إذ أخذ يقوم بترتيب شؤونه بعد الانتهاء من إعداد محاضرته ، متخذاً احتياطات حقيقية للحؤول دون إيقاظ زوجته . غالباً ما التقيا معاً في حجرة الحمام ، يقوم كل منهما ، حسب دوره ، بتنظيف أسنانه قبل الذهاب إلى النوم . بعد أربعة شهور نام ذات مساء في سرير الزوجية في الوقت الذي خرجت هي فيه من قاعة الحمام لتنام . استلقت إلى جانبه بخشونة بهدف أن يستفيق وينصرف . وبالفعل فقد استفاق نصف استفاقة ، ولكنه بدلاً من النهوض ، أطفأ مصباح السرير وتجمع على الوسادة . هزت كتفه مذكرة إياه أن عليه الذهاب إلى مكتبه ، أما هو فقد شعر بعد عودته إلى فراش الريش الموروث عن أسلافه بأنه غاية في الارتياح فآثر التراجع . قال :

« دعيني أبقى . أجل ، كان هناك صابون » .

عندما يتذكران هذه الحادثة وهما على عتبة الشيخوخة ، لا هو ولا هي يستطيعان التصديق أن تلك المشادة كانت الأكثر خطورة خلال نصف قرن من حياتهما معاً ، وأنها الحادثة الوحيدة التي ولّدت لدى كليهما الرغبة في الإقدام على

تبادل التنازلات وبدء الحياة من جديد بطريقة مختلفة . حتى وهما عجوزان مطمئنان ، يتحاشيان تذكرها ، لأن الجراح التي بالكاد قد التأمت سرعان ما تعاود النزف كما لو أنها بنت البارحة .

إنه أول رجل سمعته فيرمينا دازا يبول . سمعته يفعل ذلك ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي أقلتهما إلى فرنسا في وقت كانت تعاني فيه دوار البحر . بدا لها صوت سيل الحصان هذا على درجة من القوة وغنياً بالدلالة على معاني السيطرة إلى حد أن خشيتها من التلاشي زادت من مخاوفها . وكلما أضعفت السنون تدفق منفثه ، كانت هذه الذكرى غالباً ما تراود مخيلتها ، لأنها لم تتوصل أبداً إلى التغاضي عن تركه حافة مقعد المرحاض مبللة كلما استخدمه . حاول الدكتور اربينو إقناعها بأدلة يسهل فهمها على كل من يريد السماع . هذا الحادث الذي يتكرر يومياً غير ناتج بسبب إهمال منه ولكن سببه عضوي : منفثه وهو شاب واضح ومستقيم إلى حد أنه فاز وهو في الكلية بمباراة لملء القناني من مسافة معينة ، ولكن بفعل السنين ، إعتراه الشح ، بات مائلاً ، تشعب ، وانتهى به الحال أن صار منفثاً يتصرف على هواه ، من المستحيل التحكم به ، على الرغم من جهوده الكبيرة بهدف تقويمه وإصلاحه . قال : « إن الذي اخترع هذا النوع من المراحيض لا يفقه شيئاً عن الرجال » . وكمساهمة منه في توفير السلام المنزلي ، يقوم باستمرار بعمل فيه من الذل أكثر مما فيه من التواضع : يمسح بالورق الصحي أطراف مقعد المرحاض في كل مرة يستخدمه . زوجته تعرف ذلك ، ولكنها لا تقول شيئاً طالما أن روائح الأمونياك غير سافرة بشكل واضح ، وإلا فإنها تعلن موقفها كمن اكتشف جريمة : « هذا ينتن كقفص أرانب » . على عتبة الشيخوخة ، ألهم هذا الخلل الجسدي للدكتور اربينو الحل النهائي : يبول جالساً ، كما تفعل هي ، مما يبقي مقعد المرحاض نظيفاً فيكسب هو راحة البال .

حتى منذ ذلك الوقت ، بدا بالكاد قادراً على خدمة نفسه بنفسه ، انزلاق في حجرة الاستحمام ، كاد يودي بحياته ، دفعه إلى التعامل بحذر مع موضوع الاستحمام . وعلى الرغم من حداثة المنزل فهو يفتقد إلى واحد من تلك المغاطس المعدنية ذات القوائم التي تشبه قوائم الأسود والتي تجهز بها عادة كبريات البيوت في المدينة القديمة . لقد أمر بإلغائه مستنداً إلى دليل صحي : المغطس واحد من

الموبقات الكثيرة للأوروبيين الذين لا يستحمون إلا في آخر يوم جمعة من الشهر ، يفعلون ذلك في مياه متسخة بالأوساخ نفسها التي يزعمون تطهير أجسادهم منها . وهكذا قررا صنع دلو واسع من خشب الغياك الضخم حيث تتولى فيرمينا دازا توفير الاستحمام لزوجها بالطقوس نفسها التي تقدم للوليد الجديد . تستغرق عملية الاستحمام ما يزيد على الساعة ، في ماء فاتر غليت فيه أوراق الخبازى وقشور الليمون ، وقد بلغ التأثير المهدىء للاستحمام عليه حداً بجعله يغفو في النقيع أحياناً . بعد أن تنتهي ، تساعده فيرمينا دازا على ارتداء ملابسه ، ترش الطلْق بين ساقيه ، تدهن شَشَنه بدهن جوز الهند ، تلبسه سرواله بمحبة كما لو أنه قماط ، وتستمر في إلباسه قطعة بعد قطعة ، من الحذاء حتى ربطة العنق ودبوس الزبرجد . استفاقتهما الصباحية باتت مريحة إذ استعاد المكانة التي سرقها منها ولداه . من جهتها ، انتهى بها الأمر للتكيف مع النظام العائلي ، فالسنون تمضي بالنسبة لها أيضاً : يتناقص وقت نومها ، وقبل عيد ميلادها الستين بقليل صارت هي من يستيقظ أولاً .

في أحد العنصرة ، وأثناء رفعه الشرشف ليعاين جثة جيريميا دي سانت أمور ، انكشف للدكتور إيربينو أمر كان يرفضه حتى ذلك الحين في أكثر تأملاته صفاء كطبيب وكمؤمن . بدا له أنه على الرغم من كل تلك السنين من الألفة مع الموت ، من محاربته وإذلاله ، من طعنه في الوجه والظهر ، يجرؤ لأول مرة على التفرس في وجهه في الوقت نفسه الذي ينظر الموت إليه فيه . لم يكن هذا خوفاً من الموت . كلا : فالموت في داخله منذ سنوات عدة ، يعيش معه ، إنه ظل ظله ، منذ تلك الليلة التي أفاق فيها إثر رؤيته لحلم سيء ، حيث أدرك ان الموت ليس حقيقة ثابتة وحسب وإنما هو حقيقة مداهمة أيضاً . وبالفعل فإن ما رآه في هذا اليوم هو حضور ملموس لأمر كان حتى ذلك الحين لا يتعدى يقيناً متخيلاً . وقد أحس بالسعادة لأن العناية الإلّهية قد اختارت جيريميا دي سانت أمور وسيلة لهذا الكشف ، الذي رأى فيه دائماً قديساً يجهل قدر قداسته . ولكن عندما كشفت له الرسالة هويته الحقيقية ، ماضيه المشؤوم ، قدرته اللامعقولة على الخداع ، أحس أن أمراً نهائياً بلا جدوى أحدث انقطاعاً في حياته .

ومع ذلك فإن فيرمينا دازا لم تدع عدوى مزاجه السوداوي تنتقل اليها . حاول

ذلك بالطبع فيما هي تساعده على وضع ساقيه في بنطاله وتقوم بعقد ازرار قميصه . لم يتوصل إلى ذلك ، اذ ليس سهلاً التأثير على فيرمينا دازا وخاصة بسبب موت رجل لم تكن تحبه . إنها بالكاد تعرف أن جيريميا دي سانت أمور معاق ، يتوكأ على عكازين ، لم يسبق لها أن رأته ، فار من واحدة من الثورات العديدة التي قامت في إحدى جزر الأنتيل العديدة ، عمل مصور أطفال بدافع الحاجة ثم صار الأكثر شهرة في المقاطعة ، وأنه فاز في لعبة الشطرنج على رجل تظن أنه يدعى توريمولينوس ولكنه يدعى في الحقيقة كابابلانكا .

قال الدكتور ايربينو : « إنه مجرد فار من كايين ، محكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة لارتكابه جريمة فظيعة . تصوري أنه أقدم على أكل اللحم البشري » .

ناولها الرسالة التي أراد أن يحمل أسرارها معه إلى القبر ، ولكنها وضعت الأوراق المطوية في طاولة زينتها دون أن تقرأها وأقفلت الدرج بالمفتاح . لقد اعتادت على مقدرة زوجها على الاندهاش التي لا يسبر غورها ، وعلى أحكامه المتطرفة التي باتت تزداد تشوشاً يوماً بعد يوم مع تقادم السنين ، كما تعوزها الأدلة مما يتناقض مع صورته العامة . وها هو يتخطى الحدود هذه المرة . افترضت أن نفور زوجها من جيريميا دي سانت أمور لا يعود إلى ماضيه بل إلى ما أخذ يكونه منذ أن وصل دون أية حقيبة سوى متاع المنفي ، ولم تستطع أن تفهم لماذا فجع إلى هذا الحد بسبب معرفته المتأخرة لحقيقة هويته ، لم تفهم لماذا بدا له أمراً مقيتاً أن يكون لديه عشيقة سرية إذا كان هذا عادة متوارثة في الرجال الذين على شاكلته ، وحتى لدى زوجها أيام صباه . بالإضافة إلى ذلك ، فقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بقتل نفسه دليلاً مؤثراً على الحب . قالت : « إذا قررت أنت القيام بالشيء نفسه ، وبدوافع جدية كتلك التي كانت لديه ، فواجبي يحتم علي التصرف مثلها » . رأى الدكتور ايربينو نفسه مرة جديدة أمام عدم التفهم البسيط الخالص الذي أسخطه طوال نصف قرن . قال :

« أنت لا تفهمين شيئاً ، ان ما يثير غضبي ليس ما كان عليه ، أو ما فعله ، وإنما لأنه تمكن من خداعي طوال كل تلك السنوات » .

اغرورقت عيناه بدموع سهلة ، ولكنها تظاهرت بعدم الرؤية .
قالت : « حسناً فعل ، إذ لو أنه قال الحقيقة ما كنت لا أنت ، ولا تلك المرأة

المسكينة ولا أي واحد في هذه القرية ليحبه كما أحببتموه » .

علقت الساعة ذات السلسلة في جيب الصدرة ، سوت عقدة ربطة العنق وشكلت دبوس الزبرجد . جففت دموعه ومسحت لحيته المبللة من البكاء بفوطة مضمخة بماء الزهر ووضعتها في جيبه على مستوى الصدر مفتوحة الأطراف كزهرة فضولية. دقت ساعة الحائط إحدى عشرة دقة في حرم المنزل . قالت وهي تتأبط ذراعه :

« أسرع ، سنصل متأخرين » .

تبارت أمينتادي شان زوجة الدكتور لاسيدس أوليفيلا مع بناتها السبع في بذل الجهد ، على الرغم من إعداد كل شيء مسبقاً ، كي يبدو غداء اليوبيل الفضي الحدث الاجتماعي لتلك السنة . يقع منزل الأسرة في قلب الوسط التاريخي للمدينة . كان قصر المالية في ما مضى، شوهه مهندس معماري فلورنسي مر من هناك كرياح شؤم تجديدية ، محولاً غير أثرٍ يعود إلى القرن السابع عشر الى بازيليك على الطراز الفينيسي . يتألف من ست غرف وصالونين فخمين فسيحين يتميزان بحسن التهوية ولكنهما لا يتسعان لمدعوي المدينة فضلاً عن النخبة المختارة المدعوة من أماكن أخرى . تبدو الجنينة وكأنها رواق دير ، تغني في وسطها نافورة ماء حجرية وفسقيات ينبت فيها دوار الشمس الذي يعطر المنزل مع إطلالة النهار . ولكن مساحة الرواق المقنطر لا تتسع لكل ذلك العدد اللجب من الشخصيات البارزة . قررن إذن إقامة الغداء الحافل في أملاك العائلة على مسافة عشر دقائق بالسيارة في حال سلوك الطريق الرئيسي حيث تكثر الحدائق وأشجار الغار الضخمة والنيلوفر المولد على مجرى مياه نائمة . تولى عمال « ميزون دي دون سانشو » بناء على توجيهات السيدة أوليفيلا نصب مظلات من القماش الملون فوق مساحات تفتقر إلى الظل لتشكل تحت أشجار الغار مستطيلاً يتسع لمئة واثنين وعشرين مدعواً يجلسون حول طاولات صغيرة على كل منها شرشف من الكتان ، وعلى طاولة الشرف وضعت ورود قطفت في اليوم ذاته . كما تم إقامة منصة من أجل أوركسترا تستخدم المزامير ، يقتصر برنامجها على موسيقى الكدريل والفالسات المولدة والرباعي الوتري الخاص بمعهد الفنون الجميلة ، مفاجأة من السينيورا أوليفيلا لأستاذ زوجها الجليل الذي سيترأس حفل الغداء . ومع أن توقيت موعد الغداء لا

يتطابق مع ذكرى تاريخ الحصول على الدبلوم تماماً ، فقد تم اختيار أحد العنصرة لإضفاء مزيد من الأبهة على جو الاحتفال .

بدأت التحضيرات قبل ثلاثة أشهر حتى لا يؤدي ضيق الوقت إلى إهمال لمسة ضرورية . استقدم الدجاج حياً من سييناغا دي آورو الذي لا يشتهر في كل مناطق الساحل بحجمه وطعمه اللذيذ فحسب ، بل ولأنه كان يسعى في عهد الاستعمار للبحث عن طعامه في أراضي الطمي ويعثر في حوصلته على تبر الذهب الخالص . قامت السيدة دي أوليفيلا شخصياً ، برفقة عدد من بناتها ، وبعض أهل المنزل بالصعود إلى متن السفن عابرات الأطلسي الضخمة لتنتقي أفضل ما يأتي من كل بلد بهدف تكريم فضائل زوجها . لقد احتاطت لكل شيء ، إلا أنها لم تتنبه إلى أن موعد الاحتفال هو يوم أحد في حزيران من سنة تأخر فيها هطول المطر . انتبهت إلى هذه المجازفة المرعبة صباح يوم الاحتفال بالذات وهي في طريقها إلى القداس ، إذ أفزعتها رطوبة الهواء ، كما لاحظت أن السماء مكفهرة ودانية بحيث تتعذر رؤية الأفق فوق البحر، على الرغم من هذه المؤشرات المشؤومة، فقد ذكر لها مدير الأرصاد الجوية الذي صادفته في الكنيسة ، انه في تاريخ المدينة الحافل بالمخاطر ، وحتى خلال فصول الشتاء الأكثر قساوة، لم يحدث أبداً أن هطل المطر في يوم أحد العنصرة . ومع ذلك ، وعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ، وفيما كان عدد كبير من المدعوين يتناول المقبلات في الهواء الطلق ، ارتجت الأرض بفعل قصف الرعد ، وقلبت الطاولات ريح بحرية عاتية ، وأطارت المظلات ، وانهمرت السماء بوابل لا يبقي ولا يذر .

لم يتمكن الدكتور جوفينال ايربينو من الوصول في فوضى الأعصار إلا بشق النفس ، تزامن وصوله مع وصول آخر المدعوين الذين التقاهم في الطريق . حاول ان يفعل مثلهم بالانتقال من العربة إلى المنزل وهو يقفز من حجر إلى حجر في الجنينة العائمة ، ولكن رأى نفسه مضطراً لتقبل خزي حمله من قبل مستخدمي دون سانشو تحت قبة من القماش الأصفر . أعيد ترتيب الطاولات المنفصلة على أفضل وجه ممكن داخل المنزل ، وحتى داخل غرف النوم ، في الوقت الذي لم يبذل المدعوون أي جهد لإخفاء إحساسهم بالغرق. بدا المنزل حاراً كما لو أنه مرجل سفينة ، إذ تم إغلاق النوافذ للحؤول دون تسرب المطر إلى الداخل بفعل

العاصفة . في الجنينة ، تتصدر كل خوان بطاقة كتب عليها اسم المدعو ، وحدد قسم من الطاولة للرجال وقسم للنساء . داخل المنزل اختلطت البطاقات وجلس كل مدعو كيفما اتفق وفق مشيئة ظرف قاهر عاكس أوهامنا الاجتماعية ولو لمرة واحدة . وسط هذه النكبة بدت أمينتا دي اوليفيلا وكأنها في كل مكان في الوقت نفسه ، مبللة الشعر ، ثوبها الرائع ملطخ بالوحل ، ولكنها واجهت المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجها كي لا تعطي أية فرصة لشماتة الخصوم . وبمساعدة بناتها المسكوبات في القالب نفسه ، تمكنت ، وإلى حد بعيد ، من حجز مقاعد طاولة الشرف. الدكتور جوفينال ايربينو في الوسط ، وإلى يمينه المطران أوبديليو أي ري ، فيرمينا دازا إلى جانب زوجها كما هي عادتها في البقاء قربه خشية أن يغفو أثناء الغداء ، أو أن يسكب الحساء على ثنية سترته ، في المقعد المقابل ، يجلس الدكتور لاسيدس أوليفيلا ، خمسيني ، يبدو دون سنه الحقيقي ، أنثوي الحركات ، ما من علاقة بين تفكيره اللعوب ، وتشخيصاته الطبية الدقيقة . وتوزعت سائر مقاعد الطاولة بين ممثلي السلطات الإقليمية والبلدية وملكة جمال العام القائت التي أمسكها الحاكم من ذراعها وأجلسها إلى جانبه . ومع أن العرف لم يكن يقضي بارتداء زي خاص في مثل هذه المناسبات ، ومن باب أولى من أجل مأدبة غداء في الريف ، فقد ارتدت النسوة ملابس السهرة وتزين بالحلى ، كما ارتدى معظم الرجال بزات قاتمة مع ربطة عنق سوداء ، بل ان بعضهم ارتدى المعاطف . البارزون منهم فقط ، ومن بينهم الدكتور ايربينو قدموا ببزاتهم العادية . تمثل أمام كل مدعو قائمة الطعام مطبوعة بالفرنسية ومزينة بزخرف على شكل كرمة صغيرة مذهبة .

السيدة دي أوليفيلا ، مرعوبة من شدة الحر ، طافت أرجاء المنزل تتوسل إلى الرجال كي يخلعوا سترهم لتناول الغداء ، ولكن أحداً لم يجرؤ أن يكون القدوة . لفت المطران انتباه الدكتور ايربينو إلى أن حفل الغداء هذا ، بشكل ما ، حفل تاريخي : إذ لأول مرة يلتقي على الطاولة نفسها فريقا الحروب الأهلية التي أغرقت البلاد بالدماء منذ الاستقلال ، جروح ملتئمة وأحقاد متلاشية . هذا التفكير يلتقي مع حماس الليبيراليين ، الشباب منهم بوجه خاص ، والذين تمكنوا من تأمين فوز رئيس من حزبهم في الانتخابات بعد خمس وأربعين سنة من تسلط المحافظين .

لم يشاطره الدكتور ايربينو الرأي : الرئيس الليبيرالي لا يبدو له مختلفاً في شيء عن الرئيس المحافظ ، وهو فوق ذلك سيء الهندام . ولكنه مع ذلك لم يشأ معارضة المطران . رغم أنه أحب أن يلفت انتباهه أن أحداً لم يُدع إلى هذا الغداء بسبب آرائه وإنما لنبل محتده . أمر كان دائماً فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب . وبهذا المقياس لا يفتقد أحد بالفعل .

توقف وابل المطر بالسرعة نفسها التي بدأ فيها ، وسطعت الشمس دون انتظار في السماء الصافية . ولكن الزوبعة كانت من العنف بحيث اقتلعت عدداً من الأشجار . كما فاض مجرى الماء محولاً الحديقة إلى مستنقع . أما الخراب الكبير فقد وقع في المطبخ . أقيمت بضع أفران خشبية بواسطة الآجر خلف المنزل في العراء . بالكاد أتيح الوقت الكافي لإنقاذ القدور . أضاعوا دقائق ثمينة في نزح الماء من المطبخ العائم وارتجال مواقد أخرى في الردهة الخلفية . تمكنوا في الواحدة بعد الظهر من مواجهة الوضع الناشيء ، ولم يعد ينقص سوى التحلية التي كلفت بإعدادها راهبات سانت - كلارا اللواتي وعدن باحضارها قبل الحادية عشرة . خافوا أن تكون الساقية المحاذية للطريق الرئيسية قد فاضت كما هي الحال في شتاءات أقل قساوة وبالتالي يتعذر وصول التحلية قبل الساعة الثانية . ما إن بدا الانفراج في الجو حتى فتحت النوافذ ، فأشاع الهواء المنقى بفعل هبوب العاصفة البرودة في المنزل . أعطيت الأوامر للفرقة الموسيقية بعزف الفالسات الواردة في البرنامج من على الشرفة القائمة فوق الرواق ، ولكن هذا لم يفد سوى بزيادة البلبلة ، لأن دوي النحاس داخل المنزل اضطر المدعوين إلى تبادل الحديث صراخاً . منهكة من الانتظار ، تكاد تنفجر بالبكاء ، أمرت امينتا دي أوليفيلا بتقديم الطعام .

بدأت فرقة معهد الفنون الجميلة الحفل وسط صمت أملته المناسبة ولم ينعد الإيقاعات الأولى لمعزوفة « الصيد » لموزار . على الرغم من الأصوات البهيمة التي أخذت تعلو أكثر فأكثر ، وهرج خدم دون سانشو ومرجهم الذين بالكاد استطاعوا التسلل بين الطاولات حاملين الأطباق التي يتصاعد منها البخار ، على الرغم من هذا كله ، نجح الدكتور ايربينو ان يعير أذناً يقظة للموسيقى حتى نهاية البرنامج . تناقصت قدرته على التركيز سنة بعد سنة ، إلى حد أنه في لعب

الشطرنج يدون على قصاصة ورق حركة كل بيدق على الرقعة لمعرفة وجهة سيره . ومع ذلك فهو لا يزال قادراً على متابعة حديث جدي دون أن يتيه عن سياق حفلة موسيقية ، ولكنه لم يبلغ ذلك الحد العظيم الذي بلغه قائد أوركسترا ألماني ، صديقه الكبير أثناء إقامته في النمسا الذي استطاع قراءة توليفة لدون جيوفاني وهو يستمع إلى تانهاوزر .

المقطوعة الثانية في البرنامج ، « الصبية والموت » لشوبرت ، رأى أنها عزفت بكثير من السهولة الدرامية . وفيما هو يصغي اليها بصعوبة بالغة بسبب الجلبة الجديدة لوقع الملاعق والشوك على الصحون ، ثبت نظره على شاب ذي وجه يشبه وجه الدمية حياه بانحناءة من الرأس . لقد سبق له أن رآه في مكان ما ، ولكنه لم يستطع تذكر أين رآه . غالباً ما يحدث ذلك له ، وخاصة بالنسبة للأسماء ، وحتى مع أكثر الأسماء شهرة ، وكذلك هو الحال مع ألحان الأيام الغابرة ، وقد سبب له هذا قلقاً مرعباً إلى حد بدا له ذات مساء أنه يفضل الموت على احتمال ذلك حتى بزوغ الشمس . كاد أن يصل به الأمر إلى هذه الحال عندما أضاء برق شفوق له الذاكرة : الشاب تلميذه في العام الماضي . فوجيء لرؤيته هنا في محراب الآلهة ، ولكن الدكتور أوليفيلا ذكره بأنه ابن وزير الوقاية الصحية وانه قدم إلى هنا لأعداد أطروحة في الطب الشرعي . حياه الدكتور جوفينال ايربينو ببشاشة بحركة من يده ، وقف الطبيب الشاب ورد على التحية بإجلال . ولكن ، لا في تلك اللحظة ولا في ما بعد، ربط بينه وبين الطالب المتمرن الذي كان معه في الصباح في منزل جيريميا دي سانت أمور .

مرتاحاً لقهره الشيخوخة من جديد ، استسلم إلى الغنائية الشفافة الساحرة لآخر معزوفة في البرنامج والتي لم يتوصل إلى تحديد هويتها . في ما بعد، أخبره عازف الكمان الشاب العائد لتوه من فرنسا أنها رباعية وترية من غابرييل فوريه ، الذي لم يسبق للدكتور ايربينو ان سمع به من قبل ، على الرغم من اهتمامه الدائم بكل جديد في أوروبا . يقظة كالعادة ، خاصة عندما تراه شارد اللب في مكان عام ، توقفت فيرمينا دازا عن تناول الطعام ، ووضعت يداً دنيوية على يده ، قالت له : « تجاوز الموضوع » . ابتسم لها الدكتور ايربينو من الضفة الأخرى للذهول ، وعاد فجأة للتفكير بما كانت تخشاه . تذكر جيريميا دي سانت أمور المسجى في هذه

الساعة داخل تابوت بزيه المزور كمقاتل وأوسمته المزيفة يواجه النظرات الاتهامية للأطفال الذين قام بتصويرهم . التفت ناحية المطران ليطلعه على خبر الانتحار ، ولكن سبق لهذا أن عرف ذلك . لقد جرى لغط كثير حول هذا الموضوع بعد القداس الاحتفالي ، كما أنه تلقى باسم لاجئ الكاريبي التماساً من الجنرال جيرونيمو ارغوت كي يصار إلى دفنه في أرض مباركة . « الالتماس بحد ذاته قلة احترام » قال . ثم سأله بنبرة أكثر انسانية عما إذا كان قد عرف الدافع إلى الانتحار . أجابه الدكتور ايربينو بعبارة صحيحة ظن أنه قد اخترعها للتو : رهبة الشيخوخة . الدكتور أوليفيلا مصغياً لمدعويه الأقربين تخلى عنهم لحظة ليشارك في حديث أستاذه . قال : « يا للخسارة ، انتحار آخر ليس الحب دافعه » . لم يفاجأ الدكتور ايربينو بالتعرف على أفكاره الخاصة في أفكار تلميذه المفضل . قال :

« والأسوأ من ذلك أن الأمر قد تم بواسطة سيانور الذهب »

ما إن انتهى من قوله هذا ، حتى أحس بأن الشفقة تتغلب على المرارة التي سببتها الرسالة . رأى أن الفضل في ذلك لا يعود إلى زوجته ، وإنما إلى معجزة من الموسيقى . عندها حدث المطران عن القديس العلماني الذي تعرف عليه خلال أمسيات الشطرنج البطيئة . وعن تكريسه فنه من أجل إدخال البهجة إلى نفوس الأطفال ، عن سعة اطلاعه النادرة التي تشمل كل شيء في هذه الدنيا ، عن عاداته الصارمة . وقد فوجيء هو نفسه بأي نقاوة نفس نجح ، فجأة ودون أي تحفظ ، في فصله عن ماضيه . ثم حدث العمدة بعد ذلك عن مدى صوابية شراء مسودات الصور من أجل الإحتفاظ بصور جيل ربما لن يعرف أبداً تلك السعادة البادية في صوره ، والذي سيكون مستقبل المدينة بين يديه . صدم المطران كيف أن كاثوليكياً مؤمناً ومثقفاً يجرؤ على مقارنة منتحر بقديس ، ولكنه أثنى على فكرة وضع سلبيات الصور في أرشيف . أراد العمدة معرفة ممن يمكن شراؤها . لذعت جمرة السر لسان الدكتور ايربينو ، ولكنه احتمل دون أن يعلن عن الوريثة السرية للأرشيف . قال : « أنا أتولى هذا الأمر » . وأحس ان استقامته أنقذت شرفه إزاء المرأة التي فارقها قبل خمس ساعات . نظرت فيرمينا دازا إليه ، وبصوت منخفض حصلت

على وعد منه بالمشاركة بالدفن . بكل تأكيد سيشارك ، قال مرتاحاً ، لم يعد ينقص سوى الا يشارك .

الخطب موجزة وبسيطة . عزفت فرقة المزامير ألحاناً شعبية لم تكن مقررة في البرنامج في الوقت الذي كان فيه المدعوون يتنزهون في الشرفات بانتظار أن ينتهي مستخدمو « ميزون دي دون سانشو » من نزح الماء الراكد في الحديقة كي يتاح للمدعوين إمكان الرقص في حال أرادوا ذلك . بقي في الصالون ضيوف طاولة الشرف فقط ، يشيدون بمآثر الدكتور ايربينو الذي شرب كأساً صغيراً من الكونياك دفعة واحدة كنخب أخير . أمر لم يسبق لأحد أن رآه يفعله قبل ذلك باستثناء إقدامه ذات مرة على شرب كأس من النبيذ البلدي اللطيف أثناء تناوله لطبق خاص جداً . ولكنه احس أن قلبه طلب ذلك بعد ظهر ذلك اليوم ، فاستجاب لمطالب ضعفه : ولأول مرة منذ سنوات وسنوات تملكته الرغبة بالغناء . كان سيفعل دون شك ، مدعواً من عازف الكمان الشاب الذي عرض عليه أن يشاركه في ذلك ، لو لم تجتز سيارة من أحدث طراز الحديقة الموحلة ، ملطخة الموسيقيين بالوحول ، ومثيرة الذعر في حظيرة البط بصوت بوقها ، لتتوقف أمام المنزل . ترجل منها الدكتور ماركو أوريليو ايربينو دازا وزوجته ، ضاحكين حتى الدمع ، يحملان في كل يد طبقاً مغطى بسماط صغير من الدانتيل ، وعلى مقاعد السيارة الخلفية ، وفي أرضها قرب السائق ، أطباق أخرى مشابهة . أخيراً ، وصلت التحلية . عندما توقف التصفيق وصفير التهكم الودي ، أوضح الدكتور ايربينو دازا بكل وقار كيف أن راهبات سان ـ كلير رجونه نقل التحلية قبل بدء العاصفة ، ولكنه عاد أدراجه عن الطريق العام إذ أخبروه أن منزل والديه يحترق . إعترى الذعر الدكتور جوفينال ايربينو حتى قبل أن ينهي ولده كلامه ، فأسرعت زوجته لتذكره بأنه هو الذي أمر باستدعاء رجال المطافىء للإمساك بالببغاء . أمينتا دي أوليفيلا ، وقد غمرتها السعادة ، قررت تقديم التحلية على الرغم من أنه سبق للمدعوين أن تناولوا القهوة . غادر الدكتور جوفينال ايربينو برفقة زوجته المكان دون تذوقها ، إذ بالكاد يمتلك الوقت اللازم لقيلولته المقدسة قبل حلول موعد الدفن .

نام ، وإنما لوقت قصير ومزعج ، إذ عندما رجع إلى المنزل لاحظ أن رجال الإطفاء احدثوا أضراراً تفوق أضرار النيران ، بهدف إخافة الببغاء حطموا شجرة

بواسطة خراطيم الماء ، أخطأوا تصويب دفقة فدخلت المياه عبر نافذة غرفة النوم الكبرى مخربة ، بشكل لا مجال معه للإصلاح ، الأثاث ورسوم أسلاف لا يعرفهم مثبتة على الجدران . لدى سماعهم أبواق سيارة رجال الإطفاء، هرع الجيران وهم يظنون وقوع حريق . وإذا كانت لم تقع خسائر أكثر أهمية فذلك لأن المدارس مقفلة نهار الأحد . عندما تأكدوا ، رغم استخدام السلم الكبير ، أنهم لن يستطيعوا الإمساك بالببغاء ، قاموا بارتكاب مجزرة بحق أغصان شجرة المانغا مستخدمين السواطير . وحده ، وصول الدكتور ايربينو دازا في الوقت المناسب حال بينهم وبين قطعها حتى الجذع . قالوا له إنهم سيعودون بعد الخامسة إذا ما سمح لهم بتشذيبها . أثناء رحيلهم ، لطخوا بالوحول الفناء الداخلي والصالون ، ومزقوا سجادة عجمية ، المفضلة لدى فيرمينا دازا . تخريب زاد من عدم جدواه شعور عام بأن الببغاء أفاد من تلك الفوضى ليفر إلى حدائق الجوار . وبالفعل ، بحث عنه بين أوراق الشجر ، ولكنه لم يحصل على جواب بأية لغة ومهما كان نوعها ، لا بالغناء ولا بالصفير . اعتبره مفقوداً وانصرف لينام عندما كانت الساعة تقترب من الثالثة . قبل ذلك استمتع بشذا الحديقة الخبيثة لبوله المنقى بالهليون الفاتر .

أيقظه الأسى . لم يكن ذلك الأسى الذي أحسه في الصباح أمام جثة صديقه ، وإنما هو ذلك الضباب اللامرئي الذي غمر نفسه إثر القيلولة والذي فسره على أنه إشعار إلهي بأنه يعيش آخر أمسيات حياته . إلى أن بلغ الخمسين لم يلتفت إلى قامته ، وإلى وزنه وحال أعضائه الداخلية . شيئاً فشيئاً ، وفيما هو يرتاح مغمضاً عينيه إثر قيلولته المعتادة ، أحس بها في داخله واحداً واحداً ، حتى أنه أحس بشكل قلبه المؤرق ، بكبده الغامض ، ببنكرياسه الكتيم ، مكتشفاً ، إنه حتى الأشخاص الذين يكبرونه سناً هم أكثر شباباً منه ، وانه الوحيد الباقي على قيد الحياة من مشاهير أبناء جيله . عندما لاحظ البدايات الأولى لضعف ذاكرته لجأ إلى وسيلة تعلمها من أحد أساتذته في كلية الطب : « من لا يمتلك ذاكرة فليصنع لنفسه واحدة من الورق » . كان هذا وهماً باطلاً إذ بلغ تلك الحال القصوى من نسيان ما تعنيه هذه القصاصات الورقية الحمقاء التي يضعها في جيوبه ، يذرع المنزل بحثاً عن نظارتيه التي يضعها على أنفه ، يعيد إدارة المفتاح في القفل عكس المطلوب بعد أن يكون قد أقفل الباب ، ويفقد سياق قراراته لأنه ينسى المقدمات المنطقية

للبرهنة ، أو تتابع الشخصيات . ولكن أكثر ما يقلقه هو الحذر الذي يبديه إزاء قواه العقلية بالذات : شيئاً فشيئاً ، وكأنه إزاء غرق لا مفر منه ، شعر أنه يفقد حس العدالة .

وبمحض التجربة ودون أي مرتكز علمي عرف الدكتور جوفينال ايربينو أن غالبية الأمراض المميتة لها رائحة خاصة بها ، ولكن ما من واحد منها له رائحة مميزة كمرض الشيخوخة . عاين ذلك في الجثث المفتوحة من أعلاها إلى أسفلها على طاولة التشريح ، يتعرف عليها حتى عند المرضى الذين يتقنون أكثر من سواهم إخفاء حقيقة عمرهم ، في عرق ثيابه الشخصية ، وفي التنفس الجامد لزوجته النائمة . لو لم يكن ما هو عليه في جوهر نفسه ، بمعنى أنه مسيحي حسب الأصول القديمة ، لربما كان توافق مع جيريميا دي سانت أمور على القول إن الشيخوخة حال غير لائق يجب منع وصولها في الوقت المناسب . العزاء الوحيد ، حتى بالنسبة لرجل مثله يجيد التصرف في الفراش هو الخمود البطيء الورع لشهية الجنس : الراحة الجنسية . في الحادية والثمانين من العمر لا يمتلك الوضوح الكافي ليدرك أنه لا يزال يرتبط بهذا العالم بخيوط دقيقة يمكن أن تنقطع دون ألم أثناء حركة بسيطة يقوم بها خلال النوم . وإذا ما كان يبذل المستحيل للحفاظ عليها فذلك لرعبه من ألا يجد الله في دياجير الموت .

انهمكت فيرمينا دازا بإعادة النظام إلى الغرفة التي عاث فيها رجال الإطفاء تخريباً ، وقبل الرابعة بقليل قدمت لزوجها كأس شراب الليمون المثلج المعتاد مذكرة اياه بوجوب ارتداء ملابسه ليشارك في الدفن . كتابان كانا في متناول يد الدكتور ايربينو بعد ظهر ذلك اليوم : الإنسان ذلك المجهول لألكسيس كاريل وكتاب سان ميشال لأكسيل مونت . لم يكن قد فتح صفحات الكتاب الأخير ، فأمر الطاهية دينيا باردو أن تجلب له قطاعة الورق العاجية التي نسيها في غرفة النوم . عندما جاءته بها كان قد بدأ القراءة في كتاب الإنسان ذلك المجهول في الصفحة المعلمة بمغلف :يكاد ينهي قراءة الكتاب .يقرأ متمهلاً عبر تعرجات بداية شقيقة(*) عزاها إلى الكأس الصغير للنخب الأخير . عندما يتوقف عن القراءة يتناول جرعة من شراب الليمون أو يعبث قاضماً ثليجة . سبق له أن لبس جواربه وقميصه دون

(*) صُداع نصف الرأس .

الياقة المزورة ، تتدلى حمالتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء على جانبي حزامه ، وقد أزعجه مجرد التفكير بأن عليه إبدال ملابسه لحضور الدفن . توقف عن القراءة بسرعة ، وضع الكتاب فوق الآخر وأخذ يتأرجح برفق على كرسي الهزاز وهو يتأمل ، عبر أساه ، أجمة أشجار الموز في الحديقة التي تحولت إلى مستنقع ، شجرة المانغا المتوفة ، النمل الطائر بعد هطول المطر ، الروعة العابرة لمساء آخر يمضي إلى غير رجعة . نسي أنه اقتنى ذات يوم ببغاء من بارا ماريبو ، وانه أحبه ككائن بشري ، إلى أن سمعه فجأة يقول : « ببغاء الملك » . سمعه قريباً جداً منه ، يكاد يكون إلى جانبه ، وفجأة رآه على أدنى غصن من أغصان شجرة المانغا .

« فاسق » صرخ قائلاً

أجابه الببغاء بالصوت نفسه :

«الفاسق هو أنت يا دكتور » .

أخذ يحادثه دون أن يحيد ببصره عنه وهو يتابع انتعال حذائه ، محاذراً ألا يخيفه ، مرر حمالات بنطاله فوق ذراعيه ، ثم نزل إلى الجنينة التي ما تزال موحلة وهو يضرب الأرض بعصاه ضربات خفيفة كي لا يعثر على درجات المصطبة الثلاث . الببغاء لم يتحرك . إنه يقف على ارتفاع منخفض جداً ، إلى حد دفع بالدكتور ايربينو أن يمد له عصاه كي يحط على المقبض الفضي كما يفعل عادة . لكنه فر وقفز إلى غصن ملاصق للذي كان عليه ، أكثر علواً ، ولكن يسهل الوصول إليه ، حيث ينتصب سلم المنزل قبل قدوم رجال الإطفاء . حسب الدكتور ايربينو الارتفاع ، وظن أنه بارتقائه درجتين بإمكانه أن يمسك به . صعد الدرجة الأولى وهو يغني أغنية يعرفها الإثنان ليشتت انتباه الطائر المجفل الذي يعيد الكلمات دون الموسيقى وهو يتراجع عن الغصن بخطوات جانبية . تسلق الدرجة الثانية دون صعوبة ممسكاً بعارضتي السلم بكل يديه ، فيما استمر الببغاء يعيد الأغنية كلها دون أن يتحرك قيد أنملة ، تسلق الدرجة الثالثة ثم الرابعة ، إذ إنه أخطأ في احتساب مدى علو الغصن ، أمسك باليد اليسرى إحدى العارضتين بقوة محاولاً الإمساك بالطائر بيده اليمنى . الخادمة العجوز دينيا باردو التي قدمت لتلفت انتباهه

(*) السوحر : نوع من الصفصاف تستعمل أغصانه اللينة في صناعة السلال والكراسي .

إلى أنه يكاد يتأخر عن موعد الدفن رأت ظهر الرجل الذي يتسلق السلم ، وما كانت لتصدق أنه هو لولا الخطوط الخضراء للحمالتين المطاطيتين . صرخت قائلة :

« أيها الطبيب يسوع ! سوف يقتل نفسه ! » .

أمسك الدكتور ايربينو الببغاء من عنقه ، تنهد ظافراً وهو يقول : انتهت الحكاية .ولكنه أفلته فوراً إذ انزلق السلم من تحت قدميه ، بقي لحظة معلقاً في الهواء مدركاً أنه مات دون أن يتمكن من المناولة ، ودون أن يجد وقتاً للتوبة عن شيء أو ليودع أياً كان ، في الساعة الرابعة وسبع دقائق من بعد ظهر أحد العنصرة .

فيرمينا دازا في المطبخ تتناول حساء العشاء عندما سمعت صرخة الرعب التي ندت عن دينيا باردو وجلبة خدم المنزل ، التي تلتها جلبة خدم المنازل المجاورة . طرحت الملعقة محاولة الجري بقدر ما استطاعت على الرغم من ثقل السنين الذي لا يقهر ، مولولة كالمجنونة حتى قبل معرفتها لما جرى تحت ظلال شجرة المانغا . تقطع قلبها لمرآى زوجها طريحاً على ظهره في الوحل ، نصف ميت ، يقاوم من أجل نصف دقيقة أخيرة قبل الاختلاجة الأخيرة للموت ، ليمنحها فرصة للوصول . تمكن من التعرف عليها وسط البلبلة . ومن خلال دموع ألمه العضال لموته بدونها ، نظر اليها النظرة الأخيرة ، دائماً وإلى الأبد بالعينين الأكثر بريقاً والأكثر حزناً والأكثر عرفاناً بالجميل ، مما سبق لها أن رأته طوال نصف قرن من حياتهما معاً ، ونجح في أن يلفظ مع نفسه الأخير :

« الله وحده يعلم كم أحببتك » .

إنها ميتة مشهودة ، ولم تكن كذلك بدون سبب . إذ ما إن أنهى الدكتور ايربينو اختصاصه في فرنسا حتى عرف في البلاد بأنه وبفضل أساليبه الحديثة والصارمة ، درأ وفي الوقت المناسب آخر انتشار لوباء الكوليرا المميت الذي عانى منه الريف في الوباء السابق ، الذي ظهر وهو لا يزال في أوروبا مات في أقل من ثلاثة أشهر ربع سكان المدينة على الأقل بمن فيهم والده . طبيب مرموق هو الآخر . هذه المأثرة الفورية ، إضافة إلى مساهمة جيدة من نبل محتده ، سمحا له بتأسيس جمعية الأطباء ، الأولى والوحيدة خلال سنوات طويلة في مناطق الكاريبي والتي سمي رئيساً لها مدى الحياة . أقام أول قناة للمياه ، أول شبكة مجارير ، وكذلك

السوق المسقوف مما سمح بتنقية المزبلة التي كانها خليج « آميس » . إضافة إلى ذلك كان رئيسْ أكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ . بطريرك اللاتين في القدس رسمه فارساً من فرسان القبر ـ المقدس نظراً لخدماته للكنيسة . كما منحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من رتبة كوماندور . كان محركاً فعالاً لكل الجمعيات المدنية والدينية التي ظهرت في المدينة ، وعلى وجه الخصوص للمجلس السياسي الوطني المكون من شخصيات بارزة لا طموح سياسي عندها ، تضغط على الحكومات بأفكارها التقدمية الجريئة قياساً لذلك الزمن . أبرز هذه الأفكار لصوقاً بالذاكرة إعداد منطاد حمل في طيرانه التجريبي البريد إلى سان ـ جوان دي لاسييناغا قبل وقت طويل من اعتبار مجرد التفكير بنقل البريد جواً أمراً معقولاً . هو أيضاً من فكر بإقامة المركز الفني ، وإنشاء معهد الفنون الذي لا يزال قائماً حتى الآن ، كما رعى لسنين طويلة مهرجانات الزهور في شهر نيسان .

إنه الوحيد الذي تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلاً طوال قرن من الزمن : إحياء مسرح « الكوميديا » الذي تحول منذ عهد الاستعمار إلى مزرعة لتربية ديكة الصراع . كان هذا تتويجاً لحملة مدنية مشهودة شملت كل قطاعات المدينة مكونة حشداً بشرياً ضخماً اعتبره الكثيرون جديراً بقضية أهم . على الرغم من كل شيء ، تم إفتتاح مسرح « الكوميديا » الجديد قبل أن يجهز بالمقاعد والإضاءة ، وكان على المشاهدين أن يحضروا معهم مقاعدهم وما يستعملونه للإنارة في استراحات ما بين الفصول . فرضت المراسم نفسها المتبعة في مسارح الدرجة الأولى في أوروبا . وقد أفادت السيدات من ذلك لعرض أثوابهن الطويلة ومعاطف الفرو في حمّارة قيظ الكاريبي . ولكن بدا ضرورياً السماح بإدخال الخدم لحمل المقاعد والمصابيح وكل ما يرى ضرورياً من الطعام لاحتمال البرامج التي لا تنتهي والتي استمر بعضها حتى موعد القداس الأول . افتتح الموسم بفرقة أوبرا فرنسية جديدها استخدام القيثارة ضمن الأوركسترا ، ونجاحها الذي لا ينسى ، الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تقوم بالغناء حافية القدمين وتزين أصابع رجليها بخواتم مرصعة بأحجار كريمة . الدخان المنبعث من مصابيح زيت الكوروزو بالكاد ، ومنذ الفصل الأول ، أتاح رؤية المشهد ، كما أفقد المغنين أصواتهم . لكن مدوني يوميات المدينة أولوا عناية فائقة لتجاوز هذه الهفوات الصغيرة وتضخيم

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

ما هو جدير بالذكر . وبدون شك ، إن هذه المبادرة كانت أكثر مبادرات الدكتور ايربينو نقلاً للعدوى لأن حمى الأوبرا ضربت حتى أكثر القطاعات التي لا يتوقع إصابتها بذلك في المدينة وكانت أساساً لجيل كامل من « الإيزيتات » و « العطيليين » و « والسيجفريديين » و « العايدات »(١). ومع ذلك لم يتوصل الدكتور ايربينو أبداً إلى تحقيق طموحه برؤية أنصار الفن الإيطالي وأنصار فاغنر يتعاركون بالعصي خلال استراحات ما بين الفصول .

رفض الدكتور جوفينال ايربينو المناصب الرسمية التي عرضت عليه دون شروط ، وكان ينتقد بقساوة الأطباء الذين يفيدون من نفوذهم المهني لتسلق سلم السياسة . وعلى الرغم من أنه ينظر اليه كليبيرالي ، وأنه اقترع دائماً إلى جانب مرشحي هذا الحزب في الانتخابات ، فإنه ربما كان آخر أبناء الأسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور سيارة المطران . يُعرف عن نفسه بأنه مسالم بطبعه ، من أنصار المصالحة النهائية بين المحافظين والليبيراليين من أجل مصلحة الوطن . ومع ذلك فإن سلوكه العام مستقل إلى حد أنه ما من أحد يعتبره موالياً له : فالليبيراليون يعتبرونه محافظاً متحجراً ، والمحافظون يقولون : لا ينقصه إلا أن يكون ماسونياً ، والماسونيون يرفضونه باعتباره مبشراً مستتراً يعمل في خدمة الكرسي الرسولي . منتقدوه الأقل قساوة يرون فيه مجرد ارستقراطي مفتون بمباهج مهرجانات الزهور فيما تنزف دماء الأمة في حرب أهلية لا تنتهي .

أمران فقط قام بهما ، وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة . الأول هو التخلي عن العنصر القديم للماركيز دي كازالديرو والذي كان مقراً للعائلة طوال قرن من الزمن للإقامة في منزل جديد يقع في حي حديثي النعمة . والثاني زواجه من فتاة رائعة الجمال من عامة الشعب ، لا تحمل لقباً ولا ثروة ، والتي سخرت منها صاحبات الألقاب إلى اليوم الذي اضطررن فيه إلى التسليم بأن تمايزها وطباعها يضعنها فوقهن بمئة ذراع . لقد أقام الدكتور ايربينو باستمرار وزناً كبيراً للضرر الذي أصاب سمعته من ذلك ، وبفعل أسباب أخرى ، ولكن لم يكن أحد أكثر منه إدراكاً

(١) شخصيات درامية مشهورة: I Seut . Othello . Sieg fried . Aïda (ملاحظة المترجم).

في أنه يحمل لقباً في طريقه إلى الانقراض . ولداه أميران من سلالة لا وهج لها على الإطلاق . ماركو أوريليو طبيب مثله ، لم ينجز عملاً مميزاً طوال السنوات الخمسين الماضية ، ولا حتى إنجاب طفل . أوفيليا ابنته الوحيدة متزوجة من موظف ممتاز في مصرف نيو ـ اورليانز ، بلغت سن اليأس بعد أن أنجبت ثلاث بنات ، ولكن ما من صبي . ومع ذلك ، وعلى الرغم من ألمه لانقطاع استمرار سلالته في مجرى التاريخ ، فإن أكثر ما يعذبه عندما يفكر بالموت هو الحياة المتوحدة التي ستحياها فيرمينا دازا بدونه .

على كل حال ، أحدثت المأساة بفعل العدوى صدمة للناس مشابهة لصدمة أهله . اندفعوا إلى الشوارع يظنون المشاركة في الأسطورة ولو لم يكن ذلك سوى من خلال بريقها . أعلن الحداد الرسمي لمدة ثلاثة أيام . نكست الأعلام على الدوائر الرسمية والخاصة ، قرعت الأجراس في كل الكنائس دون توقف حتى موعد إقفال المدفن العائلي الضخم . قامت مجموعة من طلبة معهد الفنون الجميلة بصنع قناع الموت لإقامة تمثال نصفي بالحجم الطبيعي ، ولكنها تخلت عن المشروع لأن الدقة التي تم فيها تجسيد رعب اللحظة الأخيرة جعل الجميع يبدي تحفظاً . فنان مشهور مر من هناك صدفة ، في طريقه إلى أوروبا ، رسم لوحة زيتية عملاقة بواقعية مؤثرة ، يظهر فيها الدكتور ايربينو متسلقاً أعلى السلم في اللحظة المميتة حيث يمد يده للإمساك بالببغاء . الشيء الوحيد الذي يخالف الحقيقة القاسية أنه لم يكن يرتدي في الصورة قميصاً بدون قبة مزورة ولا حمالتي البنطال المخططتين بالأخضر وإنما معطفاً وقبعة التشريفات السوداء ، نقل ذلك عن صورة نشرت في صحيفة خلال سنوات انتشار الكوليرا . ولكي لا تفوت أحداً رؤيتها ، عرضت الصورة بعد بضعة أشهر من وقوع المأساة في غاليري « أبل الانبر دي أورو » ، متجر للحاجيات المستوردة ترتاده المدينة بأسرها . رفعت بعد ذلك على جدران كل المؤسسات العامة والخاصة . يظن الناس أن الواجب يدعوهم للتعبير عن عرفانهم بالجميل لذكرى هذا النبيل العظيم . نقلت في نهاية المطاف ، خلال مأتم ثان ، إلى معهد الفنون الجميلة حيث قام طلاب الرسم بعد سنوات طويلة بنزعها وإحراقها في ساحة الجامعة باعتبارها رمزاً لجمالية وزمن مقيتين .

منذ الدقيقة الأولى لترملها ، لوحظ أن فيرمينا دازا لم تكن مجردة من السلاح إلى الحد الذي كان يخشاه زوجها . لقد اتخذت موقفاً صارماً يقضي برفض استخدام الجثة لمصلحة أية قضية . بقي موقفها هذا على حاله ، حتى بعد أن قرأت برقية التعزية التي بعث بها رئيس الجمهورية الذي أمر بتحويل قاعة الشرف التابعة للحكومة المحلية إلى كنيسة مضطرمة يعرض فيها الجثمان . كما عارضت ، وبالإصرار نفسه ، توسلات المطران شخصياً ، كي يجري السهر على الجثمان في الكاتدرائية ، ولم تسمح بوضعه هناك إلا أثناء قداس الموتى الخاص بالمراسم الجنائزية . وعلى الرغم من وساطة ابنها المربك لكثرة الالتماسات المتنوعة ، فإنها احتفظت بحزم بقناعتها القروية ان الموتى لا يخصون أحداً سوى عائلاتهم ، مقررة أن السهر على الجثمان سيتم في المنزل مع تقديم القهوة المرة والفطائر ، كي تعطى الحرية لكل من يشاء أن يبكيه كما يشتهي . ألغت السهر التقليدي الذي يستمر تسعة أيام : أقفلت الأبواب بعد الدفن ولم تفتحها إلا لإستقبال أصدقاء حميمين .

خيم جو الموت على المنزل . وضعت كل الأشياء الثمينة في مكان آمن وظهرت على طول الجدران آثار اللوحات المنتزعة . صفت كراسي المنزل وكذلك الكراسي المستعارة من الجيران إزاء الحائط بدءاً من الصالون وحتى غرف النوم . بدت الفراغات فسيحة واكتسبت الأصوات رنيناً شبحياً إذ تم إبعاد الأثاث الفخم باستثناء البيانو الذي بقي قابعاً في مكانه تحت غطاء أبيض . وسط المكتبة ، فوق مكتب والده ، بدا ممدداً الرجل الذي كان جوفينال ايربينو دي لاكال ، يرتسم رعبه الأخير على وجهه ، أضافة إلى القبعة السوداء والسيف الحربي لفرسان القبر المقدس . إلى جانبه ، بكامل مظاهر الحداد ، تقبل فيرمينا دازا التعازي دون تفجع ، دون القيام بأية حركة تقريباً ، استمرت على هذه الحال حتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي حيث قالت وداعاً للزوج من على باب المدخل ملوحة بمنديل في يدها .

لم يكن سهلاً عليها أن تبدي مثل هذه السيطرة على نفسها منذ تلك اللحظة التي سمعت فيها صرخة دينيا باردو في الحديقة ، ورؤية الرجل العجوز يحتضر في الوحول . ردة فعلها الأولى كانت بصيصاً من أمل . عيناه مفتوحتان وفي حدقتيه

بريق مشع لم تره من قبل . سألت الله أن يمد بعمره لحظة تكفي على الأقل كي لا يمضي دون أن يعرف كم أحبته على الرغم من شكوكهما المتبادلة ، واجتاحتها رغبة لا تقاوم في أن تبدأ حياتها معه من جديد ، من اليوم الأول حتى يتمكنا من قول كل الذي امتنعا عن قوله وليفعلا بشكل جيد كل الذي ربما قد أساءا صنعه في زمن مضى . ولكن كان عليها أن تنحني أمام الموت القاهر . تحول ألمها إلى غضب أعمى ضد العالم وضد نفسها ، وهذا ما أمدها بالشجاعة الكافية والتماسك لمواجهة وحدتها منفردة . لم تعرف الراحة منذ تلك اللحظة ، لكنها حاذرت القيام بأية حركة يشتم منها مدى عذابها .

اللحظة الوحيدة المؤثرة ولو بشكل قليل ، وبطريقة لاإرادية ، كانت مساء الأحد ، حوالي الحادية عشرة عندما وصل التابوت الأسقفي المنجد بالحرير والمزود بمقابض جلدية ، والذي لا تزال تفوح منه رائحة كلاس السفن . أمر الدكتور ايربينو دازا بإغلاقه على الفور لأن جو المنزل عابق بأريج الأزهار التي لا تحصى في حر لا يطاق ، وظن أنه رأى أولى الظلال البنفسجية على عنق والده . وسط ذلك الصمت ، سمع صوت ساهم يقول : « في مثل هذا السن ، المرء نصف متعفن حتى وهو على قيد الحياة » . قبل إغلاق التابوت ، نزعت فيرمينا دازا خاتم زواجها ووضعته في إصبع زوجها ثم حطت يدها فوق يده كما تفعل دائماً عندما تراه ساهماً وسط الناس . قالت :

« سوف نلتقي قريباً جداً » .

أحس فلورنتينو اريزا المتواري وسط ذلك الحشد من الأعيان بحربة تخترق خاصرته . لم تكن فيرمينا دازا قد لاحظت حضوره وسط زحمة التعازي الأولى ، مع أن أحداً لم يكن أكثر حضوراً ولا فائدة منه لمواجهة مستجدات تلك الليلة . لقد تولى مهمة تنظيم شؤون المطابخ المزدحمة حتى لا تفتقد القهوة ، قام بتأمين الكراسي الإضافية عندما عجزت كراسي الجيران عن الوفاء بالحاجة ، أمر بوضع كل الأكاليل في الجنينة عندما لم يعد في المنزل متسع لها . سهر على تقديم الكونياك لمدعوي الدكتور لاسيدس اوليفيلا الذي بلغهم النبأ السيء في ذروة الإحتفال باليوبيل الفضي فأسرعوا كالبرق لمتابعة مأدبتهم الفاخرة متحلقين حول شجرة المانغا . وكان الوحيد الذي تحرك في الوقت المناسب عندما ظهر الببغاء في

قاعة الطعام منتصف الليل ، عالي الرأس ، مبسوط الجناحين بما يشبه تعبيراً عن الندم ، محدثاً قشعريرة اندهاش في المنزل ، أمسكه فلورنتينو اريزا من عنقه دون أن يمنحه فرصة النطق بواحدة من عباراته الحمقاء، حمله إلى الحظيرة ووضعه في القفص ، وقام بتغطيته . اهتم بكل شيء بمنتهى التكتم والفعالية بشكل لا يدع مجالاً لأحد بالتفكير بأن ما يقوم به تدخل في شؤون الآخرين وإنما هو على العكس عون لا يُقدر للمنزل المفجوع .

هذه هي حالته : عجوز خدوم رصين ، نحيل أهيف . أسمر البشرة ، أمردها . تبرز منه عينان متعطشتان خلف نظارة ذات إطار معدني أبيض . له شارب رومانطيقي مدهن الأطراف بطريقة متخلفة قليلاً عن العصر . آخر ما تبقى له من شعر صدغيه مسرح إلى الخلف ومثبت بالدهن وسط الجمجمة اللامعة ، حل جذري لصلع مطلق . يسلب الألباب بلطفه الطبيعي وأساليبه الهادئة ، ولكنهما فضيلتان تثيران الشبهات لدى رجل عازب . لقد أنفق الكثير من المال والمهارة والإرادة حتى لا تبدو عليه السنوات الست والسبعون التي أتم في آذار الماضي ، وكان مقتنعاً في وحشة نفسه أنه أحب بصمت يفوق بكثير حب أي رجل آخر في العالم .

عشية السهر على جثمان الدكتور ايربينو كان يرتدي الثياب نفسها التي كان يرتديها لحظة فاجأه نبأ الوفاة ، بمعنى أنها الثياب ذاتها التي طالما لبسها رغم قيظ حزيران الذي لا يطاق : بذلة من الجوخ القاتم مع صدرة ، ورباط حريري حول الياقة المزورة المصنوعة من السلولويد ، قبعة من اللبد ، ومظلة من البوبلين الأسود يستخدمها كعكاز في الوقت نفسه .

ما إن لاحت تباشير الفجر حتى غاب عن مكان السهر على الميت لمدة ساعتين ، ليرجع مع أشعة الشمس الأولى ، مطيب الذقن حليقها . ارتدى معطفاً من الجوخ الأسود . معطف لم يعد يلبس إلا في المآتم وفي مراسم أسبوع الآلام مع ياقة ذات لافليارة بمثابة ربطة عنق وقبعة مستديرة منتفخة . جلب مظلته معه ، ولم يكن ذلك بفعل العادة المحض ، بل لأنه بدا متأكداً من هطول المطر قبل الساعة الحادية عشرة ، وقد لفت انتباه الدكتور ايربينو دازا إلى ذلك ليرى إذا كان

بالإمكان تقديم موعد الدفن . حاولوا ذلك فعلاً ، ففلورنتينو اريزا ينتمي إلى أسرة تملك السفن وهو رئيس « شركة الكاريبي للملاحة النهرية » مما يسمح بالافتراض أنه خبير في مجال التنبوءات الجوية . ولكنهم لم يوفقوا في الوقت المناسب بإخطار السلطات المدنية والعسكرية ، والمؤسسات العامة والخاصة ، والفرقة الموسيقية العسكرية ، وفرقة معهد الفنون الجميلة ، والمدارس والجمعيات الدينية ، التي أبلغت جميعها أن موعد الدفن في الحادية عشرة، بما أدى بموكب الدفن ، الذي أريد له أن يكون حدثاً تاريخياً، إلى التشتت بفعل المطر المنهمر كالسيل. تمكن عدد قليل جداً من الناس فقط ، وهم يغوصون في الوحول ، من بلوغ مدفن العائلة الذي تظلله شجرة سيبا ضخمة ، تمتد ظلالها إلى ما وراء جدار المقبرة . تحت الظلال نفسها ولكن في القسم الخارجي المخصص للمنتحرين كان لاجئو الكاريبي قد قاموا بدفن جيريميا دي سانت أمور مع كلبه إنفاذاً لوصيته .

كان فلورنتينو اريزا أحد القلائل الذين بقوا حتى انتهاء مراسم الدفن . لقد ابتل حتى العظم وعاد إلى منزله قلقاً من فكرة تعرضه للإصابة بنزلة صدرية بعد كل تلك السنوات التي أمضى في الحذر الشديد والاحتياطات المفرطة . أعد لنفسه كأساً من شراب الليمون الدافىء مع قليل من الكونياك . شربها في فراشه مع حبتين من الأسبرين . أخذ يرشح عرقاً غزيراً متدثراً بغطاء صوفي كي يضمن لجسده حرارة مناسبة . عندما رجع إلى منزل المتوفى أحس أنه على ما يرام . استعادت فيرمينا دازا رعايتها للمنزل المكنوس والجاهز للاستقبالات ، وضعت صورة بالباستل لزوجها مع شريط أسود حول إطارها على المذبح القائم في المكتبة . في الثامنة عجّ المنزل بالناس في جو حار لا يطاق ، كما في الليلة السابقة . ولكن ، بعد التسبيح ، وجه التماساً يطلب من الناس الانصراف باكراً كي تتمكن الأرملة من الحصول على قسط من الراحة ، لأول مرة منذ ما بعد ظهر الأحد .

ودعت فيرمينا دازا غالبية الناس قرب المذبح ، ولكنها رافقت آخر مجموعة من الأصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي كي تغلقه بنفسها حسب عادتها . استعدت للقيام بذلك باذلة آخر ما تملكه من جهد عندما لاح لها فلورنتينو اريزا مرتدياً ثياب الحداد وسط الصالون الخالي من الناس . سرت لذلك ، لأنها قد

محته من حياتها منذ سنوات طويلة ، ولأنها نظرت إليه ولأول مرة بوعي طهَّره النسيان . ولكن ، وقبل ان تتمكن من شكره على زيارته ، وضع قبعته على قلبه وبدا وقوراً مرتجفاً ، وفجأة انفقأ الدمل الذي كان جوهر حياته كلها . قال لها :

« فيرمينا ، انتظرت هذه الفرصة طوال ما يزيد على نصف قرن لأؤكد لك من جديد عهد وفائي الأبدي وحبي السرمدي » .

لو لم يكن لدى فيرمينا دازا من الأسباب ما يجعلها تعتقد أن فلورونتينو اريزا يستلهم الروح القدس لظنت أن الواقف قبالتها رجل مجنون . ردة فعلها المباشرة تستوجب لعنه لتدنيسه المنزل فيما لا تزال جثة زوجها ساخنة في القبر . ولكن جلال غضبها منعها من ذلك : « إنصرف ولا تدعني أراك ما دمت على قيد الحياة » ثم فتحت الباب الخارجي على مصراعيه من جديد بعد أن كانت بدأت بإغلاقه ، وأضافت :

« وآمل ان تكون تلك المدة قصيرة » .

عندما سمعت وقع خطواته يتلاشى في الشارع المقفر ، أقفلت الباب بكثير من الهدوء لتواجه قدرها وحيدة . لم يبق لها حتى هذه اللحظة أن وعت بشكل كامل المأساة التي تسببت بها هي نفسها عندما كانت تبلغ بالكاد الثامنة عشرة من عمرها والتي ستلاحقها حتى ساعة موتها . بكت لأول مرة منذ مساء المصيبة دون أن يراها أحد ، طريقتها الوحيدة في البكاء . بكت موت زوجها ، بكت وحشتها وحنقها ، وعندما دخلت المخدع الخاوي ، بكت نفسها لأنها نادراً ما نامت وحيدة في ذلك الفراش منذ أن فقدت بكارتها . كل ما يعود لزوجها يستدر دموعها، الأخفاف المزينة بالشراريب ، البيجاما تحت المخدة ، رائحته على جسدها . فكرة غامضة جعلتها ترتعش : « الناس الذين نحبهم ينبغي أن يموتوا مع كل حاجياتهم » . لم تقبل المساعدة من أحد كي تنام ، ولم تتناول شيئاً من الطعام قبل أن تنام . مثقلة بالأسى ، توسلت إلى الله أن يرسل لها الموت في الليلة نفسها ، أثناء نومها ، وعلى هذا الأمل نامت حافية القدمين مرتدية كامل ملابسها ، غفت على الفور . غفت دون أن تدرك ذلك ، وان كانت تعي خلال نومها أنها لا تزال حية وأن نصف مساحة السرير تزيد عن حاجتها ، وانها مستلقية على جنبها في القسم الأيسر كما

فعلت دائماً ، وإنه ينقصها توازن الجسد الآخر في الطرف المقابل . فكرت فيما هي نائمة بأنها لن تتمكن من النوم أبداً على هذه الحال ، وهي تنتحب دون حراك إلى أن توقفت الديكة قبل وقت طويل عن الصياح وإلى أن أيقظتها شمس الصباح غير المرغوب فيها من دونه . لاحظت عند ذلك أنها نامت كثيراً دون أن تموت ، وأنها انتحبت كثيراً في نومها ، وأنها فكرت كثيراً أثناء نحيبها خلال نومها بفلورونتينو اريزا أكثر مما فكرت بزوجها المتوفى .

في المقابل ، لم يتوقف فلورونتينو أريزا عن التفكير لحظة واحدة بفيرمينا دازا ، منذ أن صدته دون سابق إنذار إثر غراميات طويلة تعيسة . لقد مضى على ذلك إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر وأربعة أيام . لم يكن هناك مجال للنسيان ، إذ إنه يضع كل يوم خطاً على جدران زنزانة ، بحيث لا يمر يوم واحد دون أن يقع فيه ما يذكره بها . كان عمره يوم جرت القطيعة اثنتين وعشرين سنة . يسكن وحيداً مع أمه ترانزيتو أريزا في نصف منزل مستأجر في شارع « النوافذ » ، حيث سبق للأخيرة أن فتحت منذ مطلع شبابها متجر عقادة(*) ، تقوم بنسل خيوط القمصان والقماش القديم لتبيعه في ما بعد كضمادات لجرحى الحرب . هو ولدها الوحيد ، أنجبته من علاقة عابرة مع بيو لوويزا الخامس ، مالك سفن معروف ، وأحد الأخوة الثلاثة الذين أسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، التي أعطوا بفضلها دفقاً جديداً للملاحة البخارية في نهر « الماجدالينا » .

توفي بيو الخامس لووايزا عندما بلغ الصبي العاشرة من عمره . وعلى الرغم من أنه تولى على الدوام أمر نفقاته سراً ، إلا أنه لم يعترف به أبداً أمام القانون ، كما أنه لم يقدم له ما يضمن مستقبله . وهكذا حمل فلورونتينو أريزا اسم أمه مع أن حقيقة بنوته معروفة للجميع . إثر وفاة والده ، وجد فلورونتينو اريزا نفسه مجبراً على ترك المدرسة ، ليغدو موظفاً متمرناً في البريد حيث عهد اليه بفتح الأكياس ، وتصنيف الرسائل ، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع علم البلد الذي

(*) تجارة الأقمشة والخردوات .

قدم منه البريد على مدخل المكتب .

استرعت حصافته انتباه عامل التلغراف ، مهاجر ألماني يدعى لوتاريو توغيت الذي يقوم أيضاً بالعزف على الأرغن في الاحتفالات الكبرى في الكاتدرائية ، ويعطي دروساً موسيقية في المنازل . علمه لوتاريو توغيت « المورس » وكيفية استخدام جهاز البث التلغرافي . وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليتابع فلورونتينو أريزا العزف السماعي كمحترف . في الثامنة عشرة من العمر ، عندما تعرف على فيرمينا دازا ، كان الفتى الأكثر محطاً للأنظار في محيطه ، هو أفضل من يتقن الرقصات الدارجة ، يتلو عن ظهر قلب القصائد العاطفية ، رهن إشارة أصدقائه ليقدموا لخطيباتهن عزفاً ليلياً منفرداً على الكمان تحت شرفات منازلهن .

إنه ضامر الوجه ، شعره كشعر هندي يسرحه بمرهم ذي رائحة ، يضع نظارتين لأنه حسير البصر مما يزيد من حدة شكله المضطرب . إضافة إلى مشكلة البصر ، يعاني من إمساك مزمن اضطره أن يستعمل طوال حياته حقناً شرجية ملينة . لا يملك سوى بذلة واحدة للاحتفالات ، ورثها عن أبيه المتوفى ، ولكن ترانزيتو أريزا أولتها من العناية مما جعلها تبدو ، في كل يوم أحد ، كما لو أنها جديدة . وعلى الرغم من سحنته الشاحبة ، ومن اضطرابه وملابسه القاتمة ، فقد كان فاتن الفتيات في محيطه اللواتي كن يقترعن سراً لمعرفة من التي ستفوز بالبقاء معه ، ويفعل هو الشيء نفسه ، حتى جاء ذلك اليوم الذي إلتقى فيه فيرمينا دازا فولى زمن البراءة .

رآها أول مرة ، بعد ظهر أحد الأيام عندما طلب إليه لوتاريو توغيت إيصال تلغراف لرجل لا يعرف محل إقامته بالضبط ، يدعى لورونزو دازا ، وكل ما يعرف عنه أنه يقيم قرب جنينة « الأناجيل » الصغيرة ، في منزل قديم جداً ، يكاد يكون أطلالاً ، حديقته الداخلية تشبه فناء دير ، في حدائقه أعشاب برية ونافورة ماء حجرية لا تجري فيها المياه ، لم يلاحظ فلورونتينو أريزا أية حركة تدل على وجود بشري فيما هو يتبع الخادمة الحافية القدمين تحت الممر المقنطر ، حيث تبدو صناديق أمتعة لم تفتح بعد ، وعدة بناء بين بقايا الجير وأكياس الترابة المكدسة ، المنزل موضوع إصلاح جذري . في قلب الحديقة مكتب مؤقت ، حيث يجلس أمام طاولة رجل ضخم ذو عارضين مشبوكين ، يختلطان مع شاربه ، يأخذ قيلولته . إنه يدعى بالفعل لورونزو دازا ، غير معروف تماماً في المدينة التي وصلها قبل

سنتين بقليل ، ولم يكن من ذلك الصنف من الرجال الذي يرغب بإقامة الكثير من الصداقات .

استقبل البرقية كما لو أنها امتداد لحلم مشؤوم . تأمل فلورونتينو أريزا العينين الداكنتين بشيء من الحنان الرسمي ، الأصابع المرتعشة التي تحاول فتح المغلف ، الخوف الذي طالما رآه في قلوب الكثيرين الذين لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون ربطها بالموت . استعاد السيطرة على نفسه بعد أن قرأها . تنهد : « أخبار جيدة » . نفح فلورونتينو أريزا خمسة ريالات لابد منها ، مفهماً إياه بابتسامة تنم عن الارتياح ، أنه ما كان ليعطيه إياها لو أن الأخبار كانت سيئة . ودعه مصافحاً ، وذلك أمر غير مألوف في التعامل مع موزع البرقيات . رافقته الخادمة حتى الباب الرئيسي المؤدي إلى الشارع لا لترشده إلى الطريق بل لمراقبته . اجتازا الطريق نفسه ، الفناء المقنطر ، وإنما باتجاه معكوس . شعر فلورونتينو أريزا هذه المرة أن شخصاً آخر يقيم في المنزل لأن صوت امرأة تتلو درس قراءة يتردد في أرجاء الجنينة . لدى مروره قرب غرفة الخياطة ، رأى من خلال النافذة امرأة مسنة نسبياً وشابة في مقتبل العمر جالستين على مقعدين متلاصقين تقريباً تتابعان القراءة في الكتاب نفسه المفتوح على ركبتي المرأة . بدا له هذا المشهد مثيراً للفضول : الصبية تعلم أمها القراءة . لم يكن التقدير سليماً إلا جزئياً ، فالمرأة هي عمة الفتاة لا أمها مع أنها تعهدتها كما لو أنها ابنتها . لم تقطعا الدرس ، ولكن الفتاة رفعت رأسها لترى من الذي يمر قرب النافذة . هذه النظرة العرضية هي الأساس لبلوى حب لم تكن نيرانه قد خمدت حتى بعد مضي نصف قرن .

الشيء الوحيد الذي تمكن فلورونتينو أريزا من التوصل إلى معرفته حول لورنزو دازا ، هو أنه رحل من سان جوان دي لاسييناغا بعد قليل من انتشار وباء الكوليرا ، برفقة ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء . وأن الذين رأوه ينزل البر ، لم يخالجهم الشك أنه قدم ليقيم هنا ، لأنه حمل معه كل ما هو ضروري لتأثيث منزل بشكل جيد . توفيت زوجته عندما كانت ابنته لا تزال صغيرة جداً . شقيقته تدعى اسكولا شيكا ، في الأربعين من العمر ، نذرت ألا تبدو في الشارع إلا وهي ترتدي مسوح راهبات الفرنسيسكان ، وان تضع في المنزل حبل الزي نفسه المعقود حول وسطها . أما الفتاة فهي في الثالثة عشرة من العمر وتحمل اسم والدتها نفسه : فيرمينا .

كل شيء يدعو للافتراض ان لورنزو دازا يملك مصادر للدخل ، فهو يعيش دون القيام بأي عمل ، كما سبق له أن اشترى منزل حديقة « الأناجيل » نقداً ، وقد أنفق على ترميمه ، على الأقل ، ضعف المثتي بيزوس ذهباً التي دفعها ثمناً له . تتلقى ابنته تعليمها في مدرسة « تقدمة العذراء البالغة القداسة » ، حيث استمرت فتيات المجتمع الراقي ، طوال قرنين من الزمن ، بتعلم فن وحرفة الزوجة المطيعة المقتدرة . في العهد الاستعماري ، وفي السنوات الأولى من عمر الجمهورية لم يكن يقبل فيها سوى وريثات الألقاب الضخمة . ولكن ، كان على العائلات العريقة التي حطمها الاستقلال الخضوع لواقع الأزمة الجديدة . وهكذا فتحت المدرسة أبوابها أمام كل الطامحات القادرات على الدفع ، دون أي اعتبار للمنبت . شرط وحيد أساسي أن يكن بنات شرعيات لأب وأم كاثوليكيين . إنها مدرسة غالية التكاليف على أية حال ، وكون فيرمينا دازا تدرس فيها ، فهذا بحد ذاته أمر يعطي فكرة عن وضع الأسرة الاقتصادي وان كان لا ينبيء عن وضعها الاجتماعي . سر فلورونتينو اريزا لهذه المعلومات ، إذ عنت له أن المراهقة الجميلة صاحبة العينين اللوزتين باتت في متناول أحلامه . ولكن سرعان ما بدت له تربية أبيها الصارمة عائقاً لا يمكن تذليله . خلافاً لسائر التلميذات اللواتي يذهبن إلى المدرسة في مجموعات أو برفقة خادمة ناضجة ، تذهب فيرمينا دازا إلى المدرسة مصحوبة دائماً بعمتها العانس ، كما يوحي سلوكها بأن أي شكل من أشكال اللهو محظر عليها .

تلك هي الطريقة الساذجة التي دشن فيها فلورونتينو اريزا حياته الغامضة كصياد متوحد . منذ السابعة صباحاً ، يجلس وحيداً في الحديقة على المقعد الأقل ظهوراً للعيان متظاهراً بقراءة ديوان شعري تحت ظل أشجار اللوز ، ينتظر مرور الصبية العصية اللقاء ، بزيها ذي الخطوط الزرقاء ، وجوربيها اللذين يصلان إلى الركبتين ، وحذائها ذي الرباط الرجالي ، وضفيرتها الكثيفة المربوطة بشريط في طرفها ، والمتدلية على ظهرها لتبلغ الخصر . تمشي بكبرياء غير مصطنع ، عالية الجبين ، ثابتة النظرة ، سريعة الخطى ، شامخة الأنف ، تضم إلى صدرها محفظة كتبها المدرسية بذراعيها المتشابكين ، وكأن مشيتها الشبيهة بمشية الغزال تجعلها بمنأى عن تأثير الجاذبية ، وإلى جانبها ، العمة بزيها الفرنسيسكاني تحت الخطى

بجهد بالغ ، مما لا يدع أي مجال للدنو منها . يراقب فلورونتينو اريزا مرورهن أربع مرات في اليوم ، في الذهاب وفي الأياب ، ومدة نهار الأحد إثر الخروج من القداس الاحتفالي ، قانعاً برؤية الفتاة . شيئاً فشيئاً ، أخذ يتصورها بشكل مثالي ، يرى فيها فضائل ليست فيها ، وأحاسيس يبدعها خياله ، وخلال أسبوعين لم يعد يفكر إلا بها . قرر عند ذلك أن يرسل لها بطاقة عادية ، يكتب على وجهيها بالخط الرائع الذي يتقنه ، إنه خطاط . ولكنه احتفظ بالبطاقة عدة أيام في جيبه مفكراً بالطريقة التي سيسلمها لها . وفيما هو يفكر كتب صفحات أخرى قبل أن يأوي إلى الفراش مما جعل الرسالة الأصلية تتحول إلى معجم للتقريظ المستوحى من المؤلفات التي حفظها غيباً لكثرة قراءته لها خلال ساعات انتظاره في الحديقة .

خلال بحثه عن كيفية إيصال الرسالة ، حاول التعرف على بعض تلميذات مدرسة « التقدمة » ، ولكنهن كن غريبات جداً عن عالمه . يضاف إلى ذلك ، أنه بعد أن عاود التفكير في الموضوع ، رأى أن ليس من الحكمة أن يتعرف أحد على نواياه . ومع ذلك فقد نجح في معرفة أن فيرمينا دازا دعيت إلى حفل راقص ذات سبت ، بعد بضعة أيام من وصولها ، وأن أباها لم يسمح لها بالذهاب مكتفياً بالعبارة الحاسمة : « لكل شيء إبان » . زادت صفحات الرسالة على الستين ، مكتوبة على الوجهين . عندما لم يعد بمقدور فلورونتينو اريزا كتمان السر ، صارح أمه دون تحفظ ، الشخص الوحيد الذي يسمح لنفسه بإطلاعه على بعض خصوصياته . تأثرت ترانزيتو أريزا حتى البكاء لسذاجة ابنها في موضوع الحب وحاولت أن تضيء له الطريق . بدأت بإقناعه ألا يرسل ذلك المقال الوجداني الثقيل الذي لن يؤدي إلا إلى زرع الرعب في نفس فتاة أحلامه التي افترضتها أنها لا تقل سذاجة عنه في شؤون القلب . الخطوة الأولى ، قالت له ، تكمن في التوصل لإثارة اهتمامها ، حتى إذا ما أعلن لها عن حبه ، لا يكون ذلك مفاجأة لها ، وبالتالي يصبح لديها متسع من الوقت للتفكير بالأمر .

ثم أضافت قائلة : « عليك الفوز برضى العمة أولاً وقبل كل شيء » .

النصيحتان حكيمتان ، بدون أدنى شك ، وإنما جاءتا متأخرتين . وواقع الأمر أنه في ذلك اليوم ، الذي تاهت فيه فيرمينا دازا لحظة عن درس القراءة الذي كانت

تعطيه لعمتها ، ورفعت بصرها لترى من الذي يمر في الرواق ، تأثرت بمظهر فلورونتينو اريزا الساهم . في المساء ، خلال تناول العشاء ، أشار والدها إلى البرقية ، وهكذا عرفت سبب قدوم فلورونتينو اريزا إلى المنزل ، وما هي مهنته . زادت هذه المعلومات من اهتمامها ، إذ بالنسبة لها كما لكثيرين آخرين ، يعتبر اختراع التلغراف في ذلك الزمن أمراً متصلاً بالسحر . وهكذا تعرفت إلى هوية فلورونتينو اريزا منذ الأيام الأولى التي رأته يطالع فيها تحت أشجار الجنينة الصغيرة ، ولكنها لم تشعر بأي اضطراب إلا عندما لفتت عمتها انتباهها إلى أنه يقدم على ذلك منذ عدة أسابيع . وعندما لاحظتا تواجده كل يوم أحد ساعة الخروج من القداس ، لم تعد العمة تشك أن تكون كل هذه اللقاءات محض صدفة . قالت : « بكل تأكيد ، إنه لا يجهد نفسه إلى هذا الحد من أجلي أنا » . إذ رغم سلوكها المتزمت وزي الرهبنة الذي ترتدي ، تتميز العمة اسكولاستيكا بميل فطري للحياة ونزعة للتواطؤ ، صفتان من أجمل صفاتها . ومجرد التفكير بأن ابنة أخيها موضوع اهتمام رجل أثار فيها انفعالاً لا يقاوم . في هذه الأثناء كانت فيرمينا دازا ما تزال بمنأى حتى عن مجرد الفضول بشأن الحب ، والشيء الوحيد الذي يثيره فلورونتينو اريزا في نفسها هو القليل من الشفقة ، إذ حسبته مريضاً . ولكن العمة شرحت لها أنه لا بد من الخبرة في الحياة لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل ، وأنها من جهتها مقتنعة بأن مرض الذي يجلس في الجنينة ليراهما تمران لا يمكن أن يكون سوى الحب .

العمة اسكولاستيكا معين تفهم وحنان للصبية الوحيدة من زواج دون حب . تعهدتها بالرعاية منذ وفاة أمها ، ومن أجل مواجهة لورونزو دازا أنها أكثر من عمة ، إنها متواطئة . وهكذا فإن ظهور فلورونتينو اريزا بدا لهما واحداً من المواضيع الخاصة العديدة الصالحة للترويح عن النفس التي اعتادتا على ابتداعها لتمضية أوقات الفراغ . أربع مرات في اليوم ، فيما هما تجتازان حديقة « الأناجيل » ، تبادران إلى البحث ، بنظرة خاطفة ، عن الحارس النحيل الخجول ، كائن صغير يكاد يرتدي السواد دائماً رغم شدة الحر ، يتظاهر بالقراءة تحت الأشجار . « إنه هناك » ، تقول التي تراه أولاً . قبل أن يتمكن من رفع بصره ورؤية المرأتين الصلبتين البعيدتين عن حياته تعبران الحديقة دون النظر اليه . قالت العمة :

« شاب مسكين ، لا يجرؤ على الاقتراب لأنني برفقتك . ولكن ذات يوم ، إذا كان جدي النوايا سيحاول ، وسيعطيك رسالة » .

مستبقة كل شكل من أشكال الحظ العاثر ، علمتها كيفية التواصل بواسطة إشارات اليد ، وسائل لا بد منها في قضايا الحب المحظور . ولدت هذه الفراهة غير المتوقعة ، والتي تكاد تكون صبيانية ، فضولاً غريباً في نفس فيرمينا دازا ، ولكنها خلال بضعة أشهر ، لم تكن تتصور أن الأمور يمكن أن تذهب إلى أبعد من ذلك . لم تعرف أبداً متى بدأت التسلية تتحول إلى قلق . يغلي الدم في عروقها عندما تشعر بالحاجة لمرآه . ذات ليلة ، استيقظت مذعورة إذ رأته ينظر اليها في العتمة في أسفل السرير . عندها تمنت من كل قلبها أن تصدق توقعات العمة ، وتضرعت إلى الله في صلواتها كي يمنحه الشجاعة ليسلمها الرسالة ، من أجل هدف وحيد فقط ، معرفة ما سيقول فيها .

لكن دعواتها لم تستجب . بل على العكس ، ففي تلك الأثناء ، كان فلورنتينو أريزا قد كشف لأمه عن حبه فأقنعته بعدم إرسال الأوراق الغزلية السبعين ، وهكذا بات على فيرمينا دازا أن تنتظر حتى نهاية السنة . أخذ قلقها يتحول إلى يأس مع اقتراب عطلة كانون الأول ، إذ أخذت تتساءل ، بقلق بالغ ، ماذا ستفعل كي تتمكن من رؤيته ، ومن جعله يراها ، خلال الأشهر الثلاثة التي لن تذهب فيها إلى المدرسة . في ليلة الميلاد ، ولم تكن قد وجدت بعد جواباً شافياً على تساؤلاتها ، تملكها إحساس بأنه هنا ، بين جموع المصلين في قداس منتصف الليل ، ينظر إليها . جعلها هذا الإحساس ترتجف من الانفعال ، واستحوذ الهيام على قلبها . لم تجرؤ على الالتفات إذ هي تجلس بين أبيها وعمتها ، وعليها ان تسيطر على مشاعرها كي لا يُلاحظ اضطرابها . ولكن في فوضى الخروج ، أحست حضوره القوي وسط الحشد ، إلى حد أن قوة لا تقاوم دفعتها للنظر من فوق كتفها فيما هي تغادر الجناح الأوسط للكنيسة . أبصرت عند ذلك ، وعلى مسافة سنتيمترين من عينيها ، العينين الجليديتين ، الوجه الداكن ، الشفتين المتحجرتين بفعل الخوف من الحب . مضطربة لجسارتها ، تشبثت بذراع العمة اسكولاستيكا كي لا تقع أرضاً . أحست هذه الأخيرة بعرق يدها البارد الذي يرشح من القفاز المخرم ،

شدت من عزيمتها بإشارة خفية متواطئة وغير مشروطة . وسط دوي المفرقعات وقرع طبول الولادات ، والمصابيح المتنوعة الألوان ، المضاءة فوق الأقواس ، وصخب الجمهور المتعطش للسلام ، وسط هذا كله ، هام فلورونتينو أريزا كمسرنم(*) ، يخبط على غير هدى حتى طلوع الفجر ، يتأمل العيد من خلال دموعه ، يزكي هيامه إحساسه بأنه هو من ولد في تلك الليلة ، وليس الله .

ازداد شروده في الأسبوع التالي فيما هو يمر وقت القيلولة أمام منزل فيرمينا دازا فاقد الرجاء ، ليفاجأ برؤية هذه الأخيرةُ جالسة قرب عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء . المشهد تكرار للوحة التي رآها بعد ظهر اليوم الأول في غرفة الخياطة ، ولكنه هذه المرة في العراء ، كما ان فيرمينا دازا بدت مختلفة بدون زيها المدرسي ، ترتدي جلباباً من القماش المغضن يتسدل من على كتفيها كالشمال ، وعلى رأسها إكليل من الغاردينيا الطبيعية يضفي عليها هيئة آلهة متوجة . جلس فلورونتينو اريزا في الحديقة بطريقة تجلعه واثقاً من أنها تراه ، وبدلاً من أن يتظاهر بالقراءة ، اكتفى بالجلوس ، الكتاب مفتوح ، عيناه مثبتتان على الفتاة الخيالية التي لم تجد عليه حتى بنظرة إشفاق .

ظن أول الأمر أنّ المدرس تحت أشجار اللوز تغيير طارىء أملته الإصلاحات التي لا تنتهي في المنزل . ولكنه أدرك في الأيام التي تلت ، أن فيرمينا دازا تقدم على ذلك ما بعد ظهر كل يوم في الموعد نفسه ، طوال العطلة الكبرى ، كي تكون في متناول بصره . زاد هذا اليقين من اضطرام أشواقه . لم يكن لديه إحساس أنه يُرى . لم يرصد أية دلالة على الاهتمام أو الرفض ، ولكن في لامبالاة فيرمينا دازا ، يتألق سنى مجهول شجعه على المثابرة . فجأة ، بعد ظهر احد الأيام ، في نهاية كانون الثاني ، وضعت العمة كتابها على الكرسي ، وتركت إبنة أخيها وحيدة أمام الرواق ، وسط الروضة المليئة بالأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز . مدفوعاً بفرضية عفوية مفادها بأن ما حدث يهدف إلى إعطائه الفرصة ، تصرف متعمد ، اجتاز فلورونتينو اريزا الشارع ، وانتصب أمام فيرمينا دازا ، قريباً منها إلى الحد الذي جعلها تسمع أصوات أنفاسه وتشم رائحته الزهرية التي ستتعرف عليه بواسطتها طوال حياتها . كلمها عالي الجبين ، وبتصميم لن يتوصل إلى مثله إلا

(*) مسرنم : يسير نائماً .

بعد مرور نصف قرن وللدافع نفسه . قال :

« كل ما أطلبه منك هو أن تقبلي رسالة مني » .

لم يكن الصوت الذي توقعته فيرمينا دازا : فصوته واضح وينم عن سيطرة لا تمت بصلة لسقم أساليبه . دون أن ترفع بصرها عن الكتاب أجابت : « لا أستطيع تقبلها قبل استئذان والدي » . ارتعش فلورونتينو أريزا من الانفعال وهو يستمع إلى صوتها الدافىء الذي بقيت نبرته المختنقة محفورة في ذاكرته حتى نهاية حياته . ولكنه استمر صامداً وأضاف على الفور : « إستأذنيه » . ثم لطف من لهجته الآمرة برجاء : « إنها مسألة حياة أو موت » . لم تنظر فيرمينا دازا اليه ، ولم تتوقف عن التطريز ، ولكن قرارها شق له باباً يستطيع العالم بأسره أن يمر عبره . قالت له :

« عد بعد ظهر كل يوم ، وانتظر حتى أبدل مقعدي » .

لم يدرك فلورونتينو أريزا ما الذي عنته بقولها حتى جاء يوم الإثنين من الأسبوع التالي ، عندما رأى من مقعده في الحديقة الصغيرة المشهد المعتاد نفسه مع تبدل طفيف : إذ عندما دخلت العمة اسكولاستيكا إلى المنزل ، نهضت فيرمينا دازا وجلست على الكرسي الآخر . عند ذلك ، عبر فلورونتينو اريزا الشارع ، زهرة كاميليا بيضاء في عروة معطفه ، وقف أمامها وقال : « إنه أجمل يوم في حياتي » .

لم ترفع فيرمينا دازا بصرها نحوه ، ولكنها ألقت نظرة دائرية في المحيط ، ورأت ، في خمود الجفاف ، الشوارع المقفرة ، وزوبعة الأوراق الميتة التي تذروها الرياح . قالت :

« أعطنيها » .

فكر فلورونتينو أريزا ان يحمل لها الأوراق السبعين ، التي بات يستطيع تلاوتها عن ظهر قلب لفرط ما قرأها ، ولكن انتهى به الأمر ليقرر تسليمها نصف ورقة رصينة وصريحة يعاهدها فيه على ما هو جوهري : إخلاص في كل الظروف ، وحب إلى الأبد . أخرجها من جيب معطفه الداخلية . وضعها على مرأى من المطرزة الخجول التي لم تجرؤ بعد على النظر إليه . رأت المغلف الأزرق يرتجف في اليد التي حجرها الرعب ، ومدت إطارة التطريز ليضع عليها الرسالة إذ بدت حريصة على ألا يلاحظ ارتجاف أصابعها هي الأخرى . في هذا الوقت طرأ حادث : تحرك عصفور بين أوراق أشجار اللوز وسلح ذرقة على إطارة التطريز .

أبعدت فيرمينا دازا الطارة ، أخفتها وراء الكرسي بشكل لا يتمكن معه فلورونتينو أريزا من رؤية ما حدث ، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجه ملتهب . قال فلورونتينو اريزا ببرودة أعصاب ، والرسالة لا تزال في يده : « هذا فأل حسن » . شكرته بابتسامة أولى ، وأخذت منه الرسالة كما لو أنها تنتزعها تقريباً ، طوتها ثم خبأتها في صدرها . قدم لها إثر ذلك زهرة الكاميليا التي في عروة معطفه . رفضتها قائلة :

« إنها زهرة خطوبة » . ودون مزيد من الانتظار ، مدركة ان الوقت قد قصر ، عادت من جديد إلى جديتها . قالت له :

« إنصرف الآن ولا تعد إلا عندما أطلب منك ذلك » .

عندما رآها لأول مرة ، أدركت أمه كل شيء ، حتى قبل أن يطلعها على مجرى الأمور . فقد شهيته للطعام ، أمضى ليالي كاملة يتقلب في فراشه . لكن عندما بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى ساءت أحواله : إسهال وتقيؤ أخضر ، فقد القدرة على السلوك السليم ، أصيب بإغماءات مفاجئة . دب الذعر في قلب أمه ، حالته لا تشبه اضطرابات الحب بل فتك الكوليرا. كما ذُعر عراب فلورونتينو أريزا، وهو طبيب تجانسي موضع سر ترانزيتو أريزا خلال حياتها كعشيقة سرية ، لمجرد رؤية المريض ، فنبضه ضعيف وتنفسه رملي ، يتصبب منه عرق شاحب كمن يحتضر . لم تكشف المعاينة لا عن حمى ولا عن آلام ، الشيء الوحيد الملموس الذي يحس به هو رغبة ملحة بالموت . أسئلة ماكرة طرحت عليه أولاً ، ثم على أمه ، كانت كافية ليلاحظ الطبيب مرة جديدة ، إن أعراض الحب مشابهة لأعراض الكوليرا . وصف له نقيع الزيزفون ليهدىء أعصابه ، كما طلب اليه تغيير الجو عله يسترد قواه في البعد . ولكن ما ينشده فلورونتينو أريزا هو النقيض تماماً : الاستمتاع بالعذاب .

ترانزيتو أريزا في الأربعين ، غير متزوجة . ينغص فقرها ميلها الطبيعي إلى المرح ، تشارك ولدها في آلامه كما لو أنها هي التي تعانيها ، تقدم له المهدئات عندما تلاحظ هذيانه ، تدثره بالأغطية الصوفية لتحميه من القشعريرة في الوقت الذي تشجعه على الاستمتاع بآلامه .

(*) طبيب تجانسي : يداوي الداء بالداء .

تقول له : « أفد من شبابك لتتعذب بقدر ما تستطيع ، فذلك لن يستمر طوال العمر » .

وبكل تأكيد ، لم يكن هذا هو التفكير السائد في مكتب البريد . استسلم فلورونتينو اريزا للإهمال ، صار مشتت الذهن إلى حد الخلط بين الأعلام التي يعلن بواسطتها عن وصول البريد ، إذ رفع نهار الأربعاء العلم الألماني ، مع أن المركب الذي وصل يعود إلى شركة لي ـ لاند وينقل بريد ليفربول . وفي اليوم التالي رفع علم الولايات المتحدة في الوقت الذي ترسو فيه سفينة تابعة للشركة العامة عبر الأطلسي وتنقل بريد سان ـ نازير . اختلاطات الحب هذه ، تسببت بخلل في التوزيع ، وأثارت احتجاجات الجمهور . وإذا كانت لم تؤد إلى فقدان فلورونتينو اريزا لعمله ، فذلك لأن لوتاريو توغيت استبقاه كعامل تلغراف، وسمح له أن يصبح عازفاً في كورس الكاتدرائية . بدت علاقتهما عصية على الفهم بسبب فارق السن بينهما ، إذ إن أحدهما يصلح أن يكون جداً للآخر ، والآخر حفيداً له ، ولكنهما متفاهمان كأروع ما يكون ، سواء في ميدان العمل أو في حانات المرفأ ، حيث ، ودون عقد الانتماء الطبقي يجنح المترنمون من كل صنف ، من أحط السكيرين حتى أبناء الطبقة الراقية المرتدين ثياب السهرة والفارين من حفلات النادي الاجتماعي لتناول البوري المقلي والرز المطيب بجوز الهند . اعتاد لوتاريو توغيت التردد إلى هناك بعد انتهاء الدوام ، وغالباً ما يفاجئه الفجر وهو يشرب البنش الجمايكي ويعزف على الأكورديون مع الرجال الحمقى لسفن الصيد في الأنتيل . بدين ، يشبه السلحفاة ، مذهب اللحية ، يعتمر قبعة فريجية عندما يخرج ليلاً . ولم يكن ينقصه سوى موكب أجراس ليغدو شبيهاً بالقديس نيقولا . يختلي مرة واحدة في الأسبوع على الأقل مع عصفورة من عصفورات الليل ، كما يسمي أولئك العديدات من بائعات الهوى ، في فندق معد للعابرين من البحارة . أول ما قام به عندما تعرف على فلورونتينو أريزا كان اطلاعه ، بشيء من التلذذ الجدير بأستاذ ، على أسرار جنته . يختار له العصفورات اللواتي يراهن الأفضل ، يناقش معهن السعر والطريقة ، عارضاً أن يدفع سلفاً كلفة الخدمة . ولكن فلورونتينو اريزا يرفض : إنه لا يزال بكراً ، وهو مصر على الاحتفاظ بعذريته ما لم يكن الحب هو الدافع .

الفندق قصر ضخم متهاو ، قسمت قاعاته وشققه المرمرية إلى مخادع بواسطة ورق مقوى ثقب بالإبر ، يمكن استئجارها لممارسة الحب أو للتلصص على من يمارسه . تحدثوا عن فضولي سملت عيناه بصنارتي حياكة ، وعن رجال تعرفوا على زوجاتهن فيما هم يتلصصون ، وعن سادة من الطبقة الراقية يأتون متنكرين بزي الرعاع للهو مع رجال السفن العابرين ، ومصائب أخرى كثيرة وقعت للعديد العديد من المتلصصين والعديد العديد من المتلصص عليهم ، مما جعل فلورونتينو اريزا يمتلىء رعباً لمجرد التفكير بإلقاء نظرة على الغرفة المجاورة . ولم يوفق لوتاريو توغيت في إقناعه بأن المشاهدة والسماح للآخرين بالمشاهدة من لياقات الأمراء في أوروبا .

وعلى العكس مما توحي به بدانته ، فإن لوتاريو توغيت يمتلك آلة ملائكية تشبه برعم وردة ، ولكن يبدو أنه تشوه يجلب السعد ، فالعصفورات الأكثر ذبولاً يتصارعن للحصول على فرصة النوم معه ، كما أن تأوهاتهن التي تشبه تأوهات الذبيحات تهز أسس القصر وتصيب أشباحهن بالرعب . يقال إنه يستخدم مرهماً مستخرجاً من سم الأفاعي يلهب بواسطته مؤخرة النساء ، ولكنه من جهته يقسم بأنه لا يمتلك من الوسائل سوى التي منحها له الإله الطيب . يقول وهو يصرخ ضاحكاً : « إنه الحب الخالص » . مرت على ذلك سنوات طويلة قبل أن يدرك فلورونتينو أريزا أنه ربما كان محقاً . انتهى به الأمر إلى الاقتناع ، في مرحلة متأخرة من مراحل تربيته العاطفية ، وذلك عندما تعرف على رجل يعيش حياة رفاهية مستغلاً ثلاث نساء في آن معاً . تقدم له النسوة الثلاث كشف حساب في الصباح الباكر ، جاثيات تحت قدميه ليغفر لهن هزال ما كسبنه . المكافأة الوحيدة التي يطمحن بالحصول عليها هي أن يضاجع التي جاءته بأكبر مبلغ من المال . حسب فلورونتينو أريزا أن الخوف وحده هو الذي يؤدي إلى مثل تلك الضعة . ومع ذلك فقد فاجأته واحدة من الفتيات الثلاث بالحقيقة المناقضة . قالت له :

« مثل هذه الأشياء ، لا يمكن أن يكون الدافع اليها سوى الحب » .

بات لوتاريو توغيت واحداً من أكثر زبائن الفندق محلاً للتقدير ، وهذا لا يعود لفضائله كزبون بقدر ما يعود لسحر شخصه . ومع أن فلورونتينو اريزا صامت ومتباعد ، إلا أنه كسب تقدير صاحب الفندق . في أقسى فترات اضطرابه ، يأتي

ليحبس نفسه في المخادع الخانقة ، يقرأ الأشعار والصفحات الدامعة ، تودع هواجسه أعشاش السنونو القائمة على الشرفات ، جلبة القبل وخفق الأجنحة في ركود ساعة القيلولة . في نهاية ما بعد الظهر ، عندما يخف الحر ، يستحيل عدم سماع أحاديث الرجال القادمين للتحلل من تعب نهارهم بممارسة حب عاجل . وهكذا تمكن فلورونتينو أريزا من الاطلاع على بعض الخصوصيات ، وحتى على بعض « وأسرار الدولة » التي يسر بها بعض الشخصيات المهمة ، وأحياناً بعض رجالات السلطة المحلية إلى عشيقاتهن العابرات غير عابئين بإمكان سماع ذلك أو عدمه ، من الغرفة المجاورة . وهكذا عرف أنه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من أرخبيل سوتا فينتو ، غرقت ، منذ القرن السابع عشر ، سفينة إسبانية تحمل ما يزيد على خمسمئة مليار بيزوس من الذهب الخالص والحجارة الكريمة . أذهلته الرواية ، ولكنه لم يعد للتفكير بها إلا بعد بضعة أشهر ، عندما أيقظ حبه المجنون فيه الرغبة في استخراج الثروة الغارقة كي تتمكن فيرمينا دازا من الاستحمام في مغاطس ذهبية .

بعد بضع سنوات ، وفيما هو يحاول تذكر حقيقة الفتاة التي جعلتها سيماء الشعر فتاة مثالية ، لم يستطع فصل هذه الذكرى عما بعد ظهر الأيام الأليمة التي عاشها في تلك الفترة . حتى وهو يراقبها دون أن تراه في أيامه القلقة تلك منتظراً الرد على رسالته الأولى ، كان يراها أكثر جمالاً في انعكاس بداية ما بعد الظهر تحت المطر الناعم لأزهار أشجار اللوز محولاً كل شهر من أشهر السنة إلى نيسان . مرافقة لوتاريو توغيت للعزف على الكمان في أعلى المنصة المخصصة للكورس ، ما كانت لتثير اهتمامه ، إلا لأنها تسمح له برؤية جلباب فيرمينا دازا يتماوج بنسيم التراتيل . ولكن شروده أدى إلى حرمانه من هذه المتعة ، بدت له الموسيقى الصوفية عديمة الطعم ، حاول تطعيمها بفالسات حب ، رأى لوتاريو توغيت نفسه مجبراً على طرده من الكورس . في هذه المرحلة بالذات ، استسلم لرغبة أكل مساكب الغاردينيا التي تزرعها ترانزيتو اريزا في الحديقة ، وهكذا تذوق طعم فيرمينا دازا . إنها المرحلة نفسها التي عثر فيها صدفة ، في إحدى حقائب والدته ، على ليتر من ماء الكولونيا التي يقوم بحارة « هامبورغ أميران لاين » بتهريبها وبيعها ، فلم يقاوم إغراء تذوقها بلهفة عله يتعرف على مذاقات أخرى للمرأة المحبوبة . شرب

طوال الليل منتشياً بفرمينا دازا حتى آخر نقطة ، بجرعات مترعة ، في حانات المرفأ أول الأمر ، ثم شارد اللب في البحر على الأرصفة حيث يتأسى العشاق الذين لا منازل لديهم بممارسة الحب ، إلى أن فقد وعيه . ترانزيتو اريزا التي انتظرت عودته حتى السادسة صباحاً ، معلقة الروح بخيط رجاء ، انصرفت تبحث عنه في أكثر الأماكن غرابة . قبل الظهر بقليل عثرت عليه يتمرغ وسط بركة من القيء النتن في إحدى زوايا الجون حيث يلفظ البحر الغرقى .

أفادت من فترة النقاهة لتوبخه على السلبية التي انتظر بها الرد على رسالته . ذكرته بأن الضعفاء لا يمكنهم أبداً الدخول إلى ملكوت الحب . مملكة قاسية وشحيحة . وأن النساء لا يهبن أنفسهن إلا للرجل الحازم لأنه يوفر لهن الشعور بالطمأنينة التي يحتجنها كثيراً لمواجهة الحياة . لم تخف ترانزيتو اريزا إحساسها بالكبر ، إحساس مرده إلى الشهوانية أكثر منه إلى عاطفة الأمومة ، لدى رؤيته خارجاً من متجر العقادة مرتدياً بذلته السوداء وقبعته المستديرة وتلك الربطة الشاعرية حول ياقة السيليلويد . سألته ممازحة عما إذا كان ذاهباً إلى مأتم . أجاب وقد احمر حتى الأذنين : « إنه الشيء نفسه تقريباً » . زودته بآخر توجيهاتها ، باركته ، وودعته ، دامعة العينين لفرط الضحك ، بزجاجة أخرى من ماء الكولونيا للاحتفال معاً بالنصر .

منذ أن سلم الرسالة لشهر خلا ، أخلف مرات عدة وعده بألا يعود إلى الجنينة الصغيرة مع أخذه الحيطة الكافية كي لا يُرى . ما من شيء تبدل . درس القراءة تحت الأشجار ينتهي حوالي الساعة الثانية وقت نهوض المدينة من القيلولة ، تتابع فيرمينا دازا تطريزها قرب عمتها إلى أن تخف حدة القيظ . لم ينتظر فلورونتينو اريزا دخول الأخيرة إلى المنزل . عبر الشارع بخطوات عسكرية كبيرة سمحت له بالتغلب على اصطكاك ركبتيه . لكنه لم يوجه كلامه إلى فيرمينا دازا وإنما إلى العمة . قال :

« هل تتكرمين بتركي لحظة مع الآنسة فلدي كلام هام أريد أن أقوله لها » .

ـ سمج قالت له العمة ، ما من أمر يتعلق بها لا أستطيع سماعه .

ـ إذاً ، لن أقول لها شيئاً ، أجابها ، ولكني أحذرك بأنك سوف تتحملين مسؤولية ما سيحدث » .

لم تكن اسكولاستيكا دازا تتوقع مثل هذه الأساليب من الخطيب المثالي ، ولكنها نهضت غاضبة ، لأنها ولأول مرة ، أحست بشعور مضطرب أن فلورونتينو اريزا يتكلم بإلهام من الروح القدس . وهكذا دخلت المنزل لتجلب صنارات أخرى تاركة الشاب والفتاة بمفردهما تحت أشجار اللوز في المدخل .

في الواقع ، لم تكن فيرمينا دازا تعرف الكثير عن هذا الخاطب الصامت الذي ظهر في حياتها كسنونو في فصل الشتاء ولذلك ما كانت لتعرف حتى اسمه لولا توقيعه في أسفل الرسالة . استقصت عنه ، عرفت أنه ابن دون أب لامرأة عزباء جادة ومجدة ، وُسِمَتْ إلى الأبد بوشمة نار لخطيئة وحيدة ارتكبتها في مراهقتها . عرفت أيضاً أنه ليس موزع البرقيات كما سبق لها ان افترضت وإنما هو مساعد مرموق ذو مستقبل واعد ، كما اعتقدت انه حمل البرقية لأبيها كذريعة للتمكن من رؤيتها ، وقد أثار ذلك لواعجها . عرفت أيضاً أنه واحد من موسيقي الكورس ، ومع ذلك فهي لم تجرؤ أبداً على رفع بصرها أثناء القداس لتتأكد من ذلك . ذات أحد خالجها إحساس بأنه في الوقت الذي تعزف فيه الآلات لكل الناس فإن الكمان يعزف لأجلها فقط . إنه ليس ذلك النوع من الرجال الذي تفضله . نظارتاه كطفل تائه ، زيه الكهنوتي ، أساليبه الغامضة ، كل هذا أثار فيها فضولاً تصعب مقاومته ، ولكنها لم تتصور أبداً ان الفضول يمكنه أن يكون واحدة من أحابيل الحب العديدة .

لم تكن هي نفسها تعرف لماذا قبلت استلام الرسالة . لم تلم نفسها على ذلك ، ولكن واجب الرد عليها الذي أخذ يضغط أكثر فأكثر بات قيداً يقيد حياتها . كل كلمة من أبيها ، كل نظرة عرضية ، حركاته المألوفة ، صارت تبدو لها أفخاخاً تهدف إلى كشف سرها . بلغ توترها حداً جعلها تتحاشى الكلام على المائدة خشية أن تقوم بخطوة ناقصة تفضحها ، وأصبحت تراوغ حتى مع العمة اسكولاستيكا التي تشاركها مع ذلك قلقها المكتوم كما لو أنها هي التي تعاني منه . تحبس نفسها في الحمام ، في أي وقت ودون أي سبب ، تعيد قراءة الرسالة في محاولة لاكتشاف رمز سري ، معادلة سحرية مخبأة في واحد من الثلاثمئة وأربعة عشر حرفاً للثماني وخمسين كلمة على أمل أن تجد فيها ما يعبر عن أكثر مما فهمته منها . ولكنها لم تعثر على شيء لم تفهمه منذ القراءة الأولى عندما هرعت لتسجن نفسها في الحمام

بقلب خافق ، تمزق المغلف بأمل العثور على رسالة طويلة محمومة ، ولكنها لم تعثر سوى على بطاقة معطرة أرعبها ما فيها من تصميم .

لم تتعاط بادىء ذي بدء بجدية مع فكرة الرد ، ولكن الرسالة واضحة إلى حد لا مجال معه للتملص . أثناء ذلك ، وفي دوامة الشك ، فوجئت أنها غالباً ما تفكر بفلورونتينو اريزا ، وباهتمام يزيد عما تسمح به لنفسها ، بل إنها راحت تتساءل بحزن عن سبب عدم مجيئه إلى الحديقة في الوقت المعتاد دون أن تتذكر أنها هي التي طلبت منه ذلك حتى يأتيه الرد . وهكذا انتهى بها الحال للتفكير به بشكل لم تكن تتصوره يحدث لها مع أحد . تحس وجوده حيث لا يكون ، تتمنى رؤيته حيث يستحيل عليه التواجد ، تستيقظ فجأة بسبب إحساس جسدي أنه يتأملها في العتمة وهي نائمة ، وبعد ظهر ذلك اليوم الذي سمعت فيه وقع خطواته العازمة على بساط الأوراق الصفراء في الجنينة الصغيرة ، بذلت جهداً لتصدق أن الأمر ليس لعبة جديدة من ألاعيب خيالها . ولكن عندما سأل عن الرد بسلطة لا تأتلف مطلقاً مع سقامه تغلبت على اضطرابها وحاولت التملص بسلوك درب الحقيقة : لا تعرف بماذا تجيب . لم يجتز فلورونتينو اريزا هاوية ليخشى اجتياز أخرى قال لها :

« إذا كنت قبلت تسلم رسالة فمن قلة التهذيب عدم الرد عليها » .

كانت هذه نهاية المتاهة . تمالكت فيرمينا دازا نفسها . اعتذرت عن التأخير ، وأعطته كلمة شرف بأنه سيحصل على الرد قبل نهاية العطلة . وبرت بوعدها . في آخر يوم جمعة من شباط ، قبل ثلاثة أيام من بدء الدراسة ، ذهبت العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن كلفة إرسال برقية إلى بييدرا دي مولر ، قرية غير مدرجة على قائمة الخدمات البرقية ، وحرصت على أن يتولى فلورونتينو اريزا الأمر متظاهرة بأنهما لم يلتقيا من قبل أبداً . لدى مغادرتها ، تركت على شباك التلغراف كتاب صلاة مجلد بجلد عظاية(*) ، في داخله مغلف من ورق الكتان مزين برسم كرمة مذهبة . بطير فرحاً ، أمضى فلورونتينو اريزا بقية ما بعد الظهر في أكل الورود وقراءة الرسالة ، قراءتها من جديد ، كلمة كلمة ، مرة ، ومرة جديدة ، يأكل وروداً طالما هو يقرأ ويعيد القراءة . عند منتصف الليل ، كان قد

(*) جنس حيوانات زحّافة من فصيلة السّقايات .

قرأها عشرات من المرات ، وأكل كمية من الورود حدت بأمه إلى ملاطفته كعجل صغير كي تجعله يشرب زيت الخروع المستخلص بالغلي .

مضت سنة من الحب المضطرم . يعيش الواحد منهما ليفكر بالآخر ، يحلم به ، ينتظر رسائله بالقلق نفسه الذي يعانيه للرد عليها . لم تتح لهما الفرصة أبداً ، طوال هذا الربيع المحموم ، ولا في السنة التي تلت ، للتواصل بالصوت الحي . الأسوأ من ذلك : أنه منذ اليوم الذي التقيا فيه لأول مرة وحتى تلك اللحظة بعد مرور نصف قرن التي جدد لها فيها خياره ، لم تسنح لهما الفرصة أبداً للجلوس وجهاً لوجه والتحادث عن شجون الحب . لم يمر يوم واحد في الأشهر الثلاثة الأولى دون أن يتبادلا الرسائل ، وأحياناً يتبادلان رسالتين في اليوم ذاته ، مما جعل العمة اسكولاستيكا تخشى حرارة الجمر الذي أوقدته بنفسها .

إثر الرسالة الأولى التي تولت أمر إيصالها بنفسها إلى مكتب البريد ، وكأنها تريد الثأر من حظها ، سمحت بتبادل الرسائل بشكل شبه يومي خلال لقاءات في الشارع تبدو عرضية ، ولكن لم تؤاتها الشجاعة لترعى حديثاً مهما كان عادياً وقصيراً . ومع ذلك فقد أدركت بعد مضي ثلاثة أشهر أن ابنة أخيها ليست تحت وطأة توله مراهق مفاجىء كما ظنت بادىء الأمر ، ولكن غرامها هذا بات يشكل خطراً على حياتها هي بالذات . وواقع الأمر أن اسكولاستيكا لا تمتلك موارد للعيش سوى إحسان أخيها ، وهي تعرف أن طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً إخلالها بالثقة التي منحها إياها . ولكن في اللحظة الحاسمة منعها قلبها من أن تتسبب لابنة أخيها بحظ عاثر غير قابل للإصلاح ما زالت هي نفسها تعاني منه منذ صباها. سمحت لها باتباع وسيلة تبقي لها وهم البراءة : تقوم فيرمينا دازا بوضع الرسالة في مخبأ أثناء طريقها المعتادة بين البيت والمدرسة تذكر فيها لفلورونتينو أريزا أين يمكنها العثور على الرد . يفعل فلورونتينو أريزا الشيء نفسه . وهكذا أرتاح تأنيب ضمير العمة اسكولاستيكا طوال السنة في أجران العمادة في الكنائس ، في فجوات جذوع الأشجار ، في فتحات القلاع الاستعمارية المهدمة . تبتل الرسائل بالمطر أحياناً ، تتلطخ بالوحل ، تمزق بفعل حظ عاثر ، يفقد بعضها لأسباب مختلفة ، ولكنهما يجدان دائماً وسيلة لوصل ما انقطع .

يكتب فلورونتينو اريزا كل ليلة ، دونما رأفة بنفسه متسمماً كلمة إثر كلمة

بدخان مصباح زيت الكروزو في مؤخرة متجر العقادة . أخذت رسائلة تزداد طولاً وغرابة بمقدار ما يبذل من جهد لتقليد شعرائه المفضلين في سلسلة « المكتبة الشعبية » التي بلغ عدد إصداراتها في ذلك الوقت ثمانين مجلداً . أمه التي سبق لها أن شجعته بكثير من الحماس على الاستمتاع بآلامه أخذت تقلق لاعتلال صحته . قالت له وقد سمعت صياح الديكة : « سوف تفقد صوابك ، ما من امرأة تستحق كل هذا » . لم تتذكر أنها رأت أحداً على هذه الحال . ولكنه لم يكن يسمعها . يصل في بعض الأيام إلى المكتب مشعث الشعر من الحب ، بعد أن أمضى ليله ساهراً وبعد أن وضع الرسالة في المخبأ المتفق عليه بحيث تجدها فيرمينا دازا وهي في طريقها إلى المدرسة . هي ، في المقابل ، خاضعة لمراقبة أبيها ولرقابة الراهبات الصالحات ، تتوصل بالكاد لكتابة نصف صفحة من ورقة دفتر مغلقة على نفسها في الحمام ، أو متظاهرة بتدوين بعض الملاحظات في الصف . لم يكن مرد ذلك إلى السرعة والخوف فقط وإنما بسبب طبعها أيضاً ، وهكذا جاءت رسائلها مكتفية بسرد وقائع حياتها اليومية بالأسلوب الطفولي ليومية سفينة . بدت في الواقع رسائل للتسلية ولإبقاء الجمر متقداً دون وضع اليد في النار . متلهف لينقل إليها جنونه ، أرسل اليها أبياتاً من الشعر منمنمة ، محفورة برأس دبوس على تويجيات زهرة كاميليا . كان هو من أوتي الشجاعة - وليست هي - ليرسل خصلة من شعره في رسالة ، ولكنه لم يحصل أبداً على الإجابة المرجوة ، خصلة كاملة من ضفيرة فيرمينا دازا . ولكنه على الأقل ، تمكن من جعلها تخطو خطوة إلى الأمام ، إذ أخذت ترسل له ضلوع أوراق جففت في المعاجم ، أجنحة فراشات ، وريش عصافير ساحرة ، كما قدمت له بمناسبة عيد ميلاده سنتيمتراً مربعاً من ثوب القديس بيار كلافير التي كانت تباع سراً في ذلك الوقت بسعر يفوق قدرة تلميذة في مثل سنها . ذات ليلة ، ودون أن يكون لديها أدنى فكرة عن إمكان إقدامه على ذلك ، أفاقت فيرمينا دازا مذعورة بسبب عزف سيريناد فالس وحيد بعزف منفرد على الكمان . اضطرب كيانها عندما تصورت أن كل نغم هو بمثابة شكر على تويجيات أوراقها ، على الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها ، على الخوف الذي يعتريها أثناء الامتحانات لأنها تفكر به أكثر مما تفكر بالعلوم الطبيعية . ولكنها لم تجرؤ على التصديق بأن فلورونتينو اريزا قادر على القيام بمثل هذا التهور .

صباح اليوم التالي ، وأثناء تناول الفطور ، لم يتمكن لورونزو دازا من مقاومة فضوله . أولاً لأنه يجهل ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيريناد ، ثم أنه على الرغم من الانتباه الذي أصغى به للعزف لم يعرف بدقة أمام أي منزل تم العزف . أكدت العمة اسكولاستيكا ، برباطة جأش أعادت الشجاعة لإبنة أخيها ، بأنها رأت خلف الستارة عازف الكمان المتوحد في الجهة الأخرى من الحديقة ، وان عزف قطعة واحدة يعني القطيعة . أكد فلورونتينو أريزا في رسالته لذلك اليوم ، أنه هو بالفعل رجل السيريناد ، وأنه ألف اللحن بنفسه وأعطاه الاسم الذي يعطيه في قلبه لفيرمينا دازا : الربة المتوجة. لم يعد إلى العزف في الحديقة ، ولكن في الليالي التي يكتمل فيها البدر ، ينطلق برفقة كمانه إلى أماكن يختارها عن قصد كي تتمكن من سماعه دون أن تهب مذعورة من فراشها . مقبرة الفقراء واحدة من أماكنه المفضلة ، معرضة للشمس والمطر ، في أعالي تلة جرداء ، وحيث تنام الكواسر وتبلغ الموسيقى أصداء ما ورائية . تعرف في ما بعد إلى وجهة الرياح ، وهكذا بات مطمئناً أن موسيقاه تصل إلى حيث ينبغي .

اندلعت حرب أهلية جديدة في آب من السنة نفسها . واحدة من الحروب العديدة التي تدمر البلاد منذ مدة تزيد على نصف قرن . أخذت الحرب تهدد بالاتساع ، فأعلنت الحكومة الأحكام العرفية ، ومنعت التجول إعتباراً من السادسة مساء في جميع مقاطعات الساحل الكاريبي . وعلى الرغم من حدوث بعض الاضطرابات وقيام القوات العسكرية بارتكاب شتى أنواع العقوبات التعسفية ، فقد استمر تشرد فلورونتينو اريزا ، كما لو أنه لا يعرف شيئاً عما يدور في هذا العالم . فاجأته دورية عسكرية ، صباح يوم باكر ، وهو يدنس عفة الموتى بغرامياته المثيرة . أفلت بمعجزة من عقوبة الإعدام الفوري باعتباره جاسوساً يرسل رسائل بالشيفرة لسفن الليبراليين التي تجوب المياه القريبة . قال فلورونتينو أريزا:

« لا علاقة لي بجواسيسكم ، أنا مجرد عاشق بائس » :

أمضى ثلاث ليال مقيداً بالسلاسل في زنزانات الحامية المحلية . ولكن عندما أطلق سراحه ، أحس الغبن لخفة العقوبة . وفي أيام شيخوخته ، حيث تمتزج في ذاكرته حروب اخرى ، استمر بالتفكير بأنه الرجل الوحيد في المدينة ، وربما في البلاد كلها ، الذي قيد بسلاسل حديدية زنتها خمس ليبرات بسبب الحب .

كادت تمضي سنتان على تبادلهما المحموم للرسائل عندما عرض فلورونتينو أريزا عليها الزواج ، وبشكل صريح ، في رسالة من مقطع واحد . طوال الأشهر

الستة التي سبقت ، أرسل لها ، ولمرات عدة ، كاميليا بيضاء كانت تعيدها في رسائلها الجوابية كي لا تدع له مجالاً للشك بأنها مستمرة في الكتابة اليه ، ولكنها ليست على استعداد لقبول التزام . لقد تعاملت في الواقع مع ذهاب وعودة زهرة الكاميليا، باعتبارها لطافة متكلفة ، ولم يخطر ببالها قط أن تعتبرها دلالة على المصير . ولكن عندما تقدم بالعرض الصريح شعرت أنها تتمزق بأول ضربة لمخالب الموت . اعتراها الهلع ، أخبَرت العمة اسكولاستيكا بكل شيء ، وتلقت العمة النجوى بالشجاعة ووضوح الرؤيا ، صفتان لم تكن تمتلكهما وهي في العشرين عندما كان عليها أن تقرر أمر مصيرها . قالت لها :

« أجيبيه بنعم ، حتى وأن كنت تموتين خوفاً ، وحتى لو ندمت في ما بعد، إذ على كل حال سوف تندمين طوال حياتك فيما لو أجبت بلا » .

ومع ذلك فإن فيرمينا دازا كانت مضطربة إلى الحد الذي دفعها إلى طلب مهلة للتفكير . طلبت شهراً أول الأمر ، ثم شهراً آخر ، ثم شهراً ثالثاً ، وفي الشهر الرابع لم تكن قد أعطت جواباً بعد . تلقت الكاميليا البيضاء من جديد، ولكن لم تكن الزهرة وحدها فقط في المغلف كما في المرات السابقة وإنما مع الملاحظة الحاسمة أن هذه المرة هي الأخيرة : الآن أو أبداً . كان فلورونتينو أريزا من عاين الموت بعد ظهر ذلك اليوم نفسه ، عندما تلقى مغلفاً يحوي قصاصة ورق منتزعة من هامش دفتر مدرسي حملت رداً من سطر واحد كتب بقلم رصاص : أوافق على الزواج منك أن أنت وعدتني الا تطعمني الباذنجان أبداً .

لم يكن فلورونتينو أريزا يتوقع مثل هذا الرد ، أما أمه فبلى . قبل ستة أشهر عندما فاتحها لأول مرة بموضوع زواجه ، باشرت ترانزيتو أريزا باتخاذ الخطوات اللازمة لاستئجار كامل المنزل الذي كانت حتى ذلك الحين تتقاسمه مع أسرتين أخريين . إنه بناء مدني من طابقين ، يعود إلى القرن السابع عشر ، كان مقراً لإدارة حصر التبغ في عهد السيطرة الإسبانية ، ثم اضطر مالكوه المعسرين إلى إيجاره شقفاً لافتقادهم الى تكاليف صيانته . استخدم القسم المطل على الشارع ، في الماضي ، بيتاً للمؤونة ، أما القسم القائم في عمق الفناء المبلط فقد ضم المصنع إضافة إلى حظائر فسيحة يستخدمها المستأجرون الحاليون لغسل الثياب ونشرها . تقيم ترانزيتو أريزا في القسم الأمامي ، الأكثر فائدة والأفضل صيانة مع أنه الأصغر

مساحة. يقع متجر العقادة في بيت المونة القديم مع مدخل يؤدي إلى الشارع وإلى جانبه يقع المستودع القديم الذي لا يملك من وسائل التهوية سوى كوة مستديرة، وفيه تنام ترانزيتو اريزا. القسم الخلفي من المتجر فسيح ويشكل نصف القاعة ومفصول عنه بحاجز خشبي. فيها طاولة وأربع كراسي تستخدم لتناول الطعام والكتابة، وهنا كان فلورونتينو اريزا يعلق أرجوحته عندما لا يفاجئه الفجر وهو لا يزال يكتب. مساحة المنزل تكفي لاثنين لا لثلاثة وخاصة إذا كان الشخص الثالث فتاة تدرس في مدرسة «تقدمة العذراء البالغة القداسة» والتي رمم والدها منزلاً مهدماً وجعله يبدو جديداً، في وقت تنام فيه أسر كثيرة من حملة السبعة ألقاب مرعوبة خشية انهيار سقوف المنازل على رؤوسها أثناء النوم. وقد تمكنت ترانزيتو أريزا من الحصول على موافقة المالك أن تشغل مخزن صحن الدار مقابل توليها صيانة المنزل لمدة خمس سنوات.

إنها قادرة على ذلك. إضافة إلى المداخيل الفعلية لمتجر العقادة من الضمادات الموقفة للنزف التي تكفي لنفقات طريقة حياتها المتواضعة، فقد ضاعفت مدخراتها بالقروض التي تقدمها لزبائن من الفقراء الجدد المهانين الذين يقبلون بالفائدة المرتفعة التي تطلبها مقابل كتمانها للسر. سيدات لهن مظاهر الملكات، ينزلن من العربات أمام مدخل متجر العقادة، دون وصيفات ولا خدم مزعجين، يتظاهرن بشراء الدانتيل الهولندي والشرائط المزركشة، ثم يقمن، بين دمعتين، برهن آخر صفر(*) مصفح لامع في فردوسهن المفقود. تخرجهن ترانزيتو أريزا من حرجهن بتقديرها الجم لمحتدهن النبيل إلى حد أن كثيرات منهن يخرجن شاكرات التبجيل أكثر من شكرهن للمعروف. وخلال أقل من عشر سنوات باتت تعرف المجوهرات المرهونة والمستردة، وسط الدموع، مرات عدة كما لو أنها خاصتها. وعندما قرر ابنها الزواج كانت الأرباح التي تحولت إلى ذهب من العيار الجيد مدفونةفي إناء تحت السرير. أجرت حساباتها، فاكتشفت أنها ليست سعيدة لقدرتها على تحمل نفقات صيانة المنزل لمدة خمس سنوات فحسب، بل لأنها إذا استمرت بالدهاء نفسه، وبقليل من الحظ، تستطيع شراء المنزل قبل موتها من

(*) صُفْر مصفح لامع، بَهْرج.

أجل دزينة الأحفاد التي تحلم أن يتمكن ابنها من إنجابهم. أما فلورونتينو اريزا فقد عين مساعداً أولاً للتلغراف بالإنابة، إذ توخى لوتاريو توغيت أن يعهد إليه بإدارة المكتب عندما ينتقل هو في العام القادم لإدارة مدرسة التلغراف والمغناطيس.

وهكذا فإن المسألة المادية لموضوع الزواج بدت محلولة. ومع ذلك فقد رأت ترانزيتو اريزا أنه من الفطنة وضع شرطين نهائيين. الأول، هو الاستعلام بشكل جيد عن حقيقة لورنزو دازا الذي تثير لهجته الشكوك حول أصله، ولكن ما من أحد يعرف من مصدر مؤكد هويته وموارده. والثاني، أن تطول فترة الخطوبة كي يتاح للخطيبين التعرف أحدهما على الآخر، وان تبقى الخطوبة طي الكتمان الشديد إلى أن يثق الخطيبان بصدق عواطفهما. اقترحت الانتظار حتى انتهاء الحرب. وافق فلورونتينو أريزا على الحفاظ على السرية المطلقة، ليس بسبب ما قالته أمه فقط، وإنما استجابة لميله الطبيعي إلى التعمية. وافق أيضاً على إطالة فترة الخطوبة، ولكن الوقت الذي حددته بدا له غير واقعي، لأنه بعد مضي ما يزيد على نصف قرن من الاستقلال فإن البلاد لم تعرف يوماً واحداً من السلام. قال:

«سنصير عجوزين قبل أن ينتهي هذا الأمر».

عرابه، الطبيب التجانسي، الذي شارك صدفة في الحديث، لم ير أن الحرب تشكل عائقاً. فالحروب بالنسبة له ليست سوى استحقاقات يؤديها فقراء يساقون كقطيع من البهائم من قبل مالكي الأراضي ضد جنود بائسين تعاملهم الحكومة بالطريقة نفسها. قال:

«الحرب هناك في الريف، ومنذ أن صرت ما أنا عليه، لا نقتل في المدينة رمياً بالرصاص، ولكن بالقرارات».

ومهما يكن من أمر، فقد تم الاتفاق على تفاصيل الخطوبة في الرسائل التي تبودلت خلال الأسبوع التالي. وبناء على نصائح العمة اسكولاستيكا، وافقت فيرمينا دازا على فترة خطوبة تمتد سنتين، وعلى السرية المطلقة، واقترحت على فلورونتينو اريزا أن يتقدم لطلب يدها بعد أن تنهي دراستها الثانوية في عطلة عيد الميلاد. وعند ذلك يتفقان على طريقة إعلان الخطوبة رسمياً بعد الحصول على موافقة أبيها. في غضون ذلك، استمرا في تبادل الرسائل بالحماس نفسه، وبالوتيرة نفسها، ولكن ارتفعت الكلفة بينهما، وبرزت في الرسائل لهجة عادية تشبه لهجة زوجين. لا شيء يعكر صفو أحلامهما.

تغيرت حياة فلورونتينو اريزا . أمده الحب المتبادل بعزيمة وثقة بالنفس لم يعرفهما أبداً من قبل . بلغ درجة من الفاعلية أتاحت للوتاريو توغيت أن يعينه نائباً له دون أية صعوبة . فشل مشروع إقامة مدرسة التلغراف والمخنطة فانصرف الألماني يمضي أوقات فراغه في الشأن الوحيد الذي يحبه فعلاً ، عزف الأكورديون في المرفأ ، تناول البيرة مع البحارة ، لينتهي بعد ذلك في فندق اللذة . إنقضى زمن طويل قبل أن يعرف فلورونتينو اريزا أن أهمية لوتاريو توغيت في فندق اللذة تعود لما انتهى اليه من امتلاك المبنى وإدارة شؤون عصفورات المرفأ . اشتراه شيئاً فشيئاً بالمدخرات التي جمعها سنة بعد سنة متلطياً خلف رجل صغير هزيل أعور يشبه الفرشاة ، طيب القلب إلى درجة لا يستطيع أحد فهم كيف بمقدوره أن يكون إدارياً ناجحاً إلى هذا الحد . ولكنه كان كذلك فعلاً . هذا على الأقل ما اعتقده فلورونتينو أريزا عندما أخبره هذا المدير أن هناك غرفة محجوزة له بشكل مستمر ، لحل مشاكل ما تحت بطنه إذا ما قرر الإقدام على ذلك ، أو ليكون بتصرفه مكان هادىء من أجل قراءة وكتابة رسائله الغرامية . وهكذا فقد أمضى في الفندق خلال الأشهر التي تمر قبل حلول التاريخ المتفق عليه لإعلان الخطوبة رسمياً ، من الوقت أكثر من ذلك الذي أمضاه في المكتب أو المنزل . ومرت أوقات لم تره ترانزيتو اريزا فيها إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه .

صارت المطالعة عنده آفة نهمة . منذ أن علمته أمه القراءة ، كانت تشتري له كتباً مصورة لمؤلفي الشمال تباع على أنها للأطفال . ولكنها في الواقع الكتب الأكثر قساوة والأكثر انحرافاً التي يمكن قراءتها في أي عمر كان . فلورونتينو أريزا في الخامسة من عمره ، يتلوها عن ظهر قلب ، ولكن مصاحبته لها لم تخفف من رعبه . على العكس لقد زادت منه . انصرافه إلى الشعر ، كان له تأثير البلسم . في سن البلوغ ، كان قد التهم ، حسب ترتيب الصدور ، كل إصدارات « المكتبة الشعبية » التي تبتاعها ترانزيتو أريزا من بائعي الكتب عند « باب الكُتّاب » ، حيث يتم عرض كل شيء ، من هومير حتى أقل الشعراء المحليين قيمة . أياً تكن قيمة الكتاب ينكب على قراءته وكأنه أمر مقدر . كل سنوات المطالعة تلك لم تكفه للتمكن من التمييز بين الغث والسمين فيما يقرأ . الشيء الوحيد الذي عرفه ، أنه بين الشعر والنثر يفضل الشعر ، ومن الشعر يفضل قصائد الحب ، وأنه ، دون أن

يقصد إلى ذلك ، يحفظها غيباً منذ القراءة الثانية ، وبسهولة أكبر إذا ما تميزت بجودة القافية والإيقاع وتحدثت عن حب بائس .

هذه القصائد شكلت المصدر الأساس لرسائله الأولى التي بعث بها لفيرمينا دازا ، والتي ظهرت فيها مقاطع مشوهة كاملة مستمدة من الرومانطيقيين الإسبان ، واستمر على هذا المنوال إلى أن اضطرته ظروف الحياة للاهتمام بقضايا أكثر دنيوية من اهتمامه بشجون الحب . في هذه المرحلة ، مشى خطوة باتجاه المسلسلات البكائية ، وباتجاه أنواع أخرى من النثر أكثر دنيوية أيضاً . إعتاد أن يبكي مع أمه وهو يقرأ نتاج الشعراء المحليين الذي يباع في الساحات وتحت السقائف مقابل ثلاثة قروش للورقة . وفي الوقت نفسه يستطيع أن يتلو غيباً الشعر القشتالي الأكثر تميزاً والذي ظهر في العصر الذهبي . وبشكل عام ، فهو يقرأ كل ما يقع تحت يده ، وبتسلسل وقوعه ، إلى درجة أنه بعد مرور زمن طويل على سنوات حبه الأول القاسية ، ومع أنه لم يكن شاباً في ذلك الوقت ، فقد قرأ من الصفحة الأولى وحتى الصفحة الأخيرة المجلدات العشرين « لكنز الشباب » وكل مجموعة « كلاسيك غارنييه » المترجمة إلى الإسبانية ، والمؤلفات الأكثر سهولة التي طبعها دون فيسونت بلاسكو ايبانيز في سلسلة « بروميتيه » .

ومهما يكن من أمر ، فإن مجونه في فندق اللذة ، لم يقتصر على القراءة وكتابة الرسائل المحمومة ، ولكنه قاده إلى معرفة خبايا ممارسة الحب دون حب . تدب الحياة في الفندق بعد منتصف النهار ، عندما تنهض صديقاته العصفورات كما ولدتهن امهاتهن في هذا العالم ، وعندما يصل فلورونتينو اريزا قادماً من عمله يرى قصراً يعج بالحوريات العاريات ، يعلقن صراخاً على أسرار المدينة التي اطلعن عليها فوق المخدات من فم أبطالها أنفسهم . عديدات منهن يعرضن في عريهن آثار الماضي : ندوب طعنة سكين في البطن ، آثار عيار ناري ، خطوط شجات دافعها الحب ، خياطات عمليات قيصرية تشبه خياطة الجزادين . تحضر بعضهن خلال النهار أبناءهن الصغار ، ثمرات تعيسة للشقاء وقلة الحذر أيام المراهقة . وما أن يصلوا حتى يقمن بنزع ثيابهم حتى لا يشعرون بالغربة في جنة العراة . تتولى كل واحدة منهن إعداد طعامها ، وما من أحد يأكل أفضل من فلورونتينو اريزا عندما يدعونه لتناول الطعام ، إذ إنه يختار أفضل ما تعده الواحدة منهن . يبدو الأمر وكأنه

احتفال يومي يستمر حتى الغروب عندما تتقاطر العاريات مغنيات لدخول قاعة الاستحمام ، يتبادلن الصابون وفراشي الأسنان والمقصات ، تقص الواحدة منهن شعر الأخرى ، يتبادلن الملابس ، يتبرجن كمهرجين تعساء ، وينطلقن لاصطياد طرائد الليل الأولى . تصبح حياة المنزل إذ ذاك عامة وخالية من الإنسانية ، ومن المستحيل المشاركة فيها دون دفع الثمن .

ما من مكان آخر يرتاح اليه فلورونتينو اريزا مثل إرتياحه في هذا المكان ، وذلك منذ تعرفه إلى فيرمينا دازا ، لأنه المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة . أكثر من ذلك : إنه المكان الوحيد الذي يشعر فيه أنه برفقتها . ربما للأسباب نفسها تعيش هنا امرأة متقدمة في السن نسبياً ، أنيقة ، ذات شعر فضي رائع ، لا تشارك أبداً في الحياة العادية للنساء الشابات العاريات اللواتي يظهرن نحوها احتراماً قدسياً . خاطب عديم التجربة قادها وهي شابة إلى هنا ، ثم تخلى عنها لتواجه قدرها بعد أن استمتع معها لبعض الوقت . توصلت ، رغم هذه الزلة ، إلى زواج سعيد لتغدو وحيدة في سن متقدم . إبنان وثلاث بنات يتنازعون للفوز بمتعة حملها على العيش مع أحدهم ، ولكن ما من مكان يبدو لها جديراً للعيش فيه كفندق الساقطات الحنونات هذا . غرفتها بيتها الوحيد مما قربها على الفور من فلورونتينو أريزا ، الذي تقول عنه ، إنه سيغدو ذات يوم عالماً مشهوراً في الكون بأسره ، لأنه قادر على إغناء نفسه بالمطالعة حتى في فردوس الدعارة . أخذ فلورونتينو اريزا بدوره يكن لها مشاعر الود ، ويساعدها على شراء حاجياتها ، وقد يمضي معها فترة ما بعد الظهر ، من حين إلى آخر . رأى فيها امرأة عالمة بشؤون الحب إذ أضاءت له الكثير من النقاط حول موضوع حبه حتى دون أن يكشف لها عن سره .

وإذا كان قبل أن يقع في حب فيرمينا دازا لم يسقط في الإغراءات الكثيرة التي كانت في متناول يده ، فمن باب أولى الا يقدم على ذلك بعد أن باتت خطيبته الموعودة . يعيش فلورونتينو أريزا مع الفتيات ، يقاسمهن أفراحهن وأتراحهن ، ولكن لا هو ولا هن ينوي الذهاب إلى أبعد من ذلك . حدث غير متوقع أكد صرامة القرار . ذات يوم ، حوالي السادسة مساء ، وبينما كانت الفتيات يرتدين ثيابهن لاستقبال زبائن الليل ، دخلت عليه عاملة التنظيف : امرأة شابة ولكنها مترهلة وشاحبة ، تبدو كراهبة في كامل ثيابها وسط أبهة الفتيات العاريات ، إنه يراها كل

يوم دون أن يشعر أنها تراه : تتنقل بين الغرف حاملة المكانس ، سطل القمامة ، وممسحة خاصة لالتقاط الأكياس الواقية المستعملة . دخلت الغرفة الصغيرة كعادتها حيث يطالع فلورونتينو اريزا . وكعادتها تولت الكنس بحذر شديد حتى لا تزعجه . فجأة ، مرت قرب السرير فأحس بيد رقيقة ودافئة عند مفرق بطنه . أحس بها تفتش عنه . شعر أنها وجدته وأنها تفك الأزرار فيما يملأ تنفسها الغرفة ، تظاهر بالقراءة إلى أن فقد القدرة على الاحتمال فلاذ بالفرار .

تملكها الذعر . أول شرط اشترط عليها قبل الاتفاق معها للقيام بأعمال التنظيف هو ألا تحاول مضاجعة الزبائن . لم يكن ثمة داع لقول ذلك لها ، إذ انها من تلك الفئة من النساء التي تؤمن بأن البغاء لا يعني المضاجعة من أجل المال ولكنه يعني مضاجعة الغرباء . أنجبت ولدان، كل واحد منهما من أب مختلف ، لا لأنها قامت بمغامرات عابرة ، ولكن لأنها لم توفق في حب رجل يعود اليها للمرة الثالثة . لقد بقيت حتى تلك اللحظة على غير عجلة من أمرها ، مهيأة بطبعها للانتظار دون يأس ، ولكن طبيعة حياة ذلك المنزل أقوى من فضيلتها . تبدأ عملها في السادسة من مساء كل يوم ، وتمضي الليل بطوله متنقلة من غرفة إلى غرفة تكنسها جميعاً بالمكنسة ، تلتقط الأكياس الواقية ، وتبدل الشراشف . إنه لمن الصعب تصور كمية الأشياء التي يخلفها الرجال بعد ممارسة الحب . يتركون القيء والدموع ، وهذا يبدو مفهوماً ، ولكنهم يخلفون أيضاً الكثير من ألغاز المعاشرة : بقع دماء ، لصقات براز ، عيون من زجاج ، ساعات ذهبية ، أسنان اصطناعية ، مذخرات* مزيفة تحوي خصلاً مذهبة ، رسائل غرامية وتجارية ورسائل تعزية : رسائل من كل الأصناف . قد يرجع بعضهم للبحث عما فقده ولكن غالبيتهم يتركونه هنا. يقوم لوتاريو توغيت بالاحتفاظ بهذه الأشياء وهو يفكر بأن هذا القصر المتداعي سيتحول عاجلاً أو آجلاً ، مع هذه الألوف من الأغراض الشخصية المنسية إلى متحف للغرام .

العمل شاق وضئيل الأجر ، ولكنها تقوم به على أكمل وجه . غير أنها لم تستطع احتمال النحيب والتأوهات ، وصرير نوابض الأسرة ، التي تترسب في دمها بكثير من الألم والحمى ، إلى حد يحول ، عند مطلع النهار ، بينها وبين القدرة

مُذخرات : صندوق لحفظ الأشياء المقدسة .

على السيطرة على رغبتها بمضاجعة أول متسول تلتقيه في الشارع ، أو أي سكير متشرد يقدم لها هذه الخدمة دون أية طموحات أو أسئلة أخرى . ظهور رجل بدون امرأة مثل فلورنتينو أريزا بدا لها نعمة من السماء ، لأنها منذ اللحظة أدركت أنه مثلها: متعطش للحب. ولكنه لم يحفل بتمهيداتها. يحتفظ بعذريته لفيرمينا دازا وما من قوة ، أو من سبب ، في هذا العالم يثنيه عن هذا القرار .

تلك هي طريقة حياته قبل أربعة أشهر من الموعد المحدد لإعلان الخطوبة ، عندما وصل لورنزو دازا ذات صباح ، في الساعة السابعة إلى المكتب ، وسأل عنه . لم يكن فلورنتينو أريزا قد وصل بعد ، بقي ينتظره جالساً على المقعد حتى الثامنة وعشر دقائق ، ينقل خاتم الشعارات الذهبي الثقيل المرصع بحجر لبني كريم متغير الألوان من إصبع إلى آخر . عندما رآه يدخل ، عرف فيه على الفور حامل البرقية فأمسكه من ذراعه . قال له : « تعال معي أيها الشاب سوف نتحدث معاً لخمس دقائق ، من رجل إلى رجل » .

فلورنتينو اريزا ، أكثر اخضراراً من ميت ، خضع لمشيئته . لم يكن مستعداً للقاء من هذا النوع ، إذ لم تجد فيرمينا دازا لا الفرصة ولا الوسيلة لإخطاره بالموضوع . وواقع الأمر ، أن الأخت فرانكادي لالوز رئيسة معهد « تقدمة العذراء البالغة القداسة » ، دخلت في الأسبوع الماضي أثناء درس مبادىء النشكونية بهدوء الأفعى . وفيما هي تراقب الطالبات من فوق أكتافهن ، اكتشفت أن فيرمينا دازا تتظاهر بتدوين الملاحظات على دفترها فيما هي في الحقيقة تكتب رسالة غرامية . عوقبت على هذا الذنب بالطرد بمقتضى قوانين المدرسة . مدعواً على عجل إلى مكتب الإدارة ، اكتشف لورنزو دازا المزراب الذي يتسرب منه نظامه الحديدي . اعترفت فيرمينا دازا بكبريائها الفطري بذنب كتابة الرسالة ، ولكنها رفضت الكشف عن هوية الخطيب السري ، كما أصرت على عدم البوح باسمه أمام مجلس التأديب ، الذي وافق بسبب هذا الموقف على قرار الطرد . قام أبوها بحملة تفتيش حسب الأصول في غرفتها التي كانت حتى ذلك الحين معبداً لا تنتهك حرمته . عثر في محفظة ذات قعر مزدوج على رسائل ثلاث سنوات ، مزينة بالشرائط ، ومحفوظة بالقدر نفسه من الحب الذي كتبت فيه . لم يدع التوقيع مجالاً للشك ، ولكن لورنزو دازا لم يصدق لا في ذلك الوقت ، ولا في ما بعد، أن ابنته لم تعرف من الخطيب السري سوى كونه عامل تلغراف وعازف كمان .

على قناعة بأن علاقة على هذا القدر من الصعوبة غير ممكنة إلا بفضل تواطؤ شقيقته ، لم يمنح هذه الأخيرة فرصة للاعتذار ، أجبرها على الإبحار دون القيام بأي إجراء آخر إلى سان جوان دي لاسييناغا . لم تنس فيرمينا دازا أبداً الحال الذي رأتها فيه لآخر مرة بعد ظهر ذلك اليوم الذي قالت فيه وداعاً ، أمام مدخل المنزل ، لعمة نحيفة بلون الأموات ، تأكلها الحمى ، بثيابها الكستنائية . رأتها تختفي في رذاذ الجنينة الصغيرة ، حاملة حاجياتها الوحيدة المتبقية لها في هذا الكون : صرة ثيابها كعانس ، ومبلغ من المال تلفه بمنديل تطبق عليه بقبضة يدها يكفيها شهراً من الزمن . ما إن تحررت من وصاية أبيها ، حتى قامت فيرمينا دازا بالبحث عنها في كل مقاطعات الكاريبي ، تسأل عنها كل من يمكن أن يكون قد عرفها ، لم تعثر لها على أثر إلا بعد مضي ثلاثين سنة ، عندما وصلتها رسالة استغرقت الكثير من الوقت ، وتناقلها العديد من الأيدي ، قبل أن تصل ، وفيها يخبرونها بأنها ماتت في مستشفى الجذام المسمى « مياه الرب » . لم يتوقع لورنزو دازا ردة الفعل العنيفة التي ستواجه بها ابنته العقوبة الظالمة التي ذهبت ضحيتها العمة اسكولاستيكا التي تماهت دائماً مع أمها التي بالكاد تذكرها . أقفلت غرفتها على نفسها بالمفتاح ، امتنعت عن تناول الطعام والشراب . وعندما توصل أخيراً إلى إقناعها بالسماح له بالدخول ، عن طريق التهديد أول الأمر ، ثم بتوسلات لم ينجح في إبقائها ضمنية ، رأى نفسه إزاء نمرة جريحة فقدت إلى الأبد سنوات عمرها الخمس عشرة .

حاول إرضاءها بكل أساليب الملاطفة جرب إفهامها أن الحب في سنها يعني الزواج ، جهد في إقناعها بلطف أن تعيد له الرسائل وأن تعود إلى المدرسة جاثية على ركبتيها تطلب الغفران . أعطاها كلمة شرف أنه سيكون أول من يمد لها يد العون كي تكون سعيدة مع خاطب جدير بها . ولكن لا حياة لمن تنادي . أحس الهزيمة ، انتهى به الأمر إلى فقدان السيطرة على أعصابه ظهر يوم اثنين أثناء تناول الغداء ، وفيما هو يكاد يختنق على شفير الإصابة بالسكتة الدماغية ، وبين الحلف والشتيمة ، وضعت على عنقها حد سكين قطع اللحم ، بلا مأساوية وبيد حازمة ونظرة متحجرة لم يجرؤ على تحديها . عند ذلك قبل مجازفة الحديث لخمس دقائق ، من رجل إلى رجل ، مع المغامر المشؤوم الذي لم يتذكر أنه قد رآه من

قبل ، والذي اعترض حياته في مثل ذلك الوقت المنحوس . وبفعل العادة تحسس قبل أن يخرج المسدس الذي يحرص على إخفائه تحت قميصه .

لم يكن فلورونتينو اريزا قد التقط أنفاسه بعد ، عندما قاده لورنزو دازا من ذراعه عبر ساحة الكاتدرائية حتى قناطر مقهى « الباروأس » داعياً إياه إلى الجلوس في الفناء . كانا الزبونين الوحيدين في تلك الساعة ، إضافة إلى زنجية تمسح البلاط المثلم والوسخ للصالة الفسيحة . لا تزال الكراسي مقلوبة فوق الطاولات الرخامية . سبق لفلورونتينو اريزا أن رأى لورنزو دازا وهو يقامر ويشرب النبيذ في هذا المقهى مع « استوريي » السوق الذين يتعاركون ويزعقون حول حروب مزمنة أخرى غير حروبنا . وكم من المرات ، واعياً لقدرية الحب ، تساءل كيف سيكون اللقاء الذي لا بد منه ، طال الوقت أم قصر ، إذ ليس بمقدور بشري أن يمنعه لأنه مقرر منذ الأزل ، في قدر كل منهما . تصوره مشادة غير متكافئة ، أولاً لأن فيرمينا دازا حذرته في رسائلها من طبع أبيها النزق ، ثم لأنه هو نفسه لاحظ أن عينيه تبدوان غاضبتين حتى عندما ينفجر ضاحكاً مقهقهاً على طاولة القمار . كل ما فيه ينم عن الفظاظة : البطن البشع ، الكلام المضخم ، عارضا الأوس(*)، اليدان الغليظتان والبنصر المضغوط بالخاتم الأسمي . الصفة الرقيقة الوحيدة التي لاحظها فلورونتينو اريزا عنده ما إن رآه يمشي ، هي تلك المشية التي تشبه مشية الغزال والتي تتميز بها ابنته . ومع ذلك ، فعندما طلب منه لورنزو دازا الجلوس على الكرسي رآه أشد فظاظة مما يوحي به مظهره ، ولم يلتقط أنفاسه إلا عندما دعاه لتناول خمر اليانسون .

لم يسبق لفلورنتينو أريزا أبداً أن تناول شراباً في الثامنة صباحاً ، ولكنه وافق ممتناً لأنه بدا بحاجة ملحة للشرب .

في الواقع ، لم يحتج لورنزو دازا إلى أكثر من خمس دقائق ليصل إلى حيث يريد ، فعل ذلك بصراحة مؤثرة جعلت فلورونتينو اريزا يضطرب . إثر وفاة زوجته وضع نصب عينيه هدفاً واحداً : أن يجعل من ابنته سيدة عظيمة . الطريق طويل وشاق على تاجر بغال أمي ، سمعته كسارق مواش غير ثابتة بنفس القدر الذي تنتشر فيه بتكتم في كل مقاطعة سان جوان دي لاسييناغا . أشعل سيجار بغّال وقال

(*) الأوس : نوع من الحيوان .

بحسرة : « سمعة سيئة أكثر سوءاً من صحة سيئة » . ومع ذلك ، أضاف ، أن السر الحقيقي لثروته هو أن أياً من بغاله لم يعمل لا أكثر ولا أفضل منه ، حتى في أيام الحرب الصعبة هذه ، حيث يأتي الصباح وقد تحولت القرى إلى رماد والحقول إلى هشيم . ومع أن ابنته لم تطلع أبداً على مجريات ما يخطط لمصيرها ، فإنها كانت تتصرف كشريكة متحمسة . ذكية ومنهجية إلى حد سمح لها بتعليم والدها القراءة ، بعد أن تمكنت هي بالكاد من تعلمها . وفي الثانية عشرة من عمرها جعلها ادراكها للحقائق تتمكن من إدارة شؤون المنزل دون مساعدة العمة اسكولاستيكا . تنهد قائلاً : « إنها بغلة من ذهب » . عندما أنهت ابنته دراستها الابتدائية ، وقد نالت العلامة عشرة في كل المواد ، ومرتبة الشرف في حفل تسليم الجوائز ، أدرك ان سان جوان دي لاسييناغا مكان ضيق جداً لتحقيق أحلامه . عند ذلك صفى ممتلكاته ومواشيه ، وبدأ رحلته بحماس جديد وسبعين ألف بيزوس ذهبي حتى وصل هذه المدينة المنهارة الأمجاد ، المقروضة من العث ، حيث بمقدور امرأة جميلة ومؤدبة حسب الأصول القديمة أن تولد من جديد بفضل زواج موفق . دخول فلورنتينو أريزا المفاجيء على الخط ، بدا حجر عثرة في وجه تنفيذ هذه الخطة المحكمة . « جئتك راجياً » ، قال لورنزو دازا ، بلَّ طرف سيكاره بخمرة اليانسون ، مصه قبل أن يشعله ثم قال بصوت محزون :

« ابتعد عن طريقنا » .

أصغى اليه فلورونتينو اريزا وهو يرشف خمرة اليانسون برشفات صغيرة مشدوداً إلى التعرف على ماضي فيرمينا دازا إلى حد لم يفكر معه بما سيقوله عندما يأتي دوره للكلام . ولكن ما إن جاء دوره حتى أدرك بأن مستقبله متوقف على ما سيقول .

قال : « هل تحدثت اليها ؟ » .

ـ هذا لا يعنيك . أجابه لورنزو دازا .

ـ إذا ما كنت أسألك فلأنه يبدو لي أن القرار يعود إليها . أجابه فلورونتينو اريزا .

ـ هذا غير وارد ـ قال لورنزو دازا ـ إنها مسألة رجال ويجب أن تسوى بين الرجال .

بدت النبرة متوعدة ، التفت زبون ، يجلس على الطاولة المجاورة ، ناظراً إليهما . تحدث فلورونتينو اريزا بصوت أكثر انخفاضاً وإنما بلهجة وضع فيها أقصى ما يستطيعه من الحسم . قال :

« على كل حال لا أستطيع أن أجيبك بشيء قبل أن أعرف موقفها . وإلا كان ذلك خيانة » .

عندها مال لورنزو دازا بجسمه في مقعده إلى الوراء ، احمر جفناه المبللان ، تحركت عينه اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج . هو الآخر خفض نبرته وقال :

« لا تضطرني إلى قتلك » .

أحس فلورونتينو اريزا أن معدته تمتلىء بزبد جليدي . ولكن صوته لم يرتعش لأنه شعر في الوقت ذاته أنه يستضيء بالروح القدس . قال ، واضعاً يده على قلبه :

« اقتلني . ما من مجد يوازي الاستشهاد في سبيل الحب .

كان على لورونزو دازا أن ينظر اليه بشكل مائل كما تفعل الببغاوات كي تتمكن عينه المائلة من رؤيته . لم يلفظ الكلمات الثلاث وإنما بصقها مقطعاً مقطعاً :

« يا ـ ابن ـ العا ـ هـ ـ رة » .

في الأسبوع نفسه ، حمل ابنته في رحلة النسيان الكبرى . لم يقدم لها اي تفسير، دخل غرفتها بعنف، وقد تلوث شاربه بغضب ممزوج بلعاب التبغ ، وأمرها بإعداد حقائبها . ولما سألته إلى أين سيذهبان ، أجابها : « إلى الموت » . مرتعبة من هذه الإجابة التي تشبه الواقع كثيراً ، حاولت أن تواجهه بنفس شجاعة الأيام السابقة ، ولكنه نزع حزامه ذا الزردة النحاسية الضخمة ، لفه حول قبضته ثم هوى على الطاولة بجلدة دوى صداها في أرجاء المنزل كما لو أنها طلقة نارية . تعرف فيرمينا دازا مدى وحدود قوتها ، وهكذا وضعت غطاءين وأرجوحة في رزمة ، وجهزت صندوقين كبيرين وضعت فيهما كل ما تحتاجه موقنة من أنها رحلة لا عودة بعدها . قبل أن ترتدي ملابسها ، أغلقت على نفسها في المرحاض ، واستطاعت أن تكتب لفلورونتينو اريزا رسالة وداع قصيرة على ورقة انتزعتها من لفة الورق

الصحي . ثم قصت ضفيرتها إلى مستوى القذال ، ووضعتها في علبة مخملية مطرزة بخيوط مذهبة وأرسلتها مع الرسالة .

إنها رحلة جنون . استغرقت المرحلة الأولى وحدها أحد عشر يوماً ، قطعاها على ظهور البغال برفقة قافلة من البغالين الأنديزيين على منحدرات سييرا نيفادا ، مخبولين من الشمس الحارقة أو مبللين من أمطار تشرين الأول الأفقية ، وبنفس غالباً ما يحجره البخار المنوم المنبعث من الجروف . في اليوم الثالث من الرحلة، هوت بغلة ، أرعبتها النعرات ، مع صاحبها إلى قعر الوادي جارة معها كل ما كان مربوطاً بها . صراخ الرجل والمجموعة المؤلفة من سبع بهائم ترتبط الواحدة منها بالأخرى ، استمر يتجاوب عدة ساعات في الوهاد والأودية ، واستمر يطن طوال سنوات وسنوات في ذاكرة فيرمينا دازا . لقد هوت كل حقائبها مع البغال الهاوية ، ولكن في تلك اللحظة ـ التي بدت كقرن من الزمن ـ التي استغرقها السقوط ، وإلى أن خمد الصراخ المرعب في قعر الوادي ، لم تكن تفكر بالبغّال التعيس الميت ، ولا بالقافلة المنكوبة ، وإنما بالقدر القاسي الذي شاء ألا تكون البغلة التي تمتطيها مربوطة بتلك البغال .

إنها المرة الأولى التي تمتطي دابة فيها ، ولكن رعب الرحلة ومشاقها التي تفوق الوصف ، ما كانت لتبدو لها بتلك المرارة لو لم تكن واثقة من أنها لن تتمكن وإلى الأبد من رؤية فلورونتينو اريزا والتأسي برسائله . منذ بدء الرحلة لم توجه كلاماً إلى أبيها ، كما أن هذا الأخير كان سيىء المزاج إلى حد أنه لم يكلمها سوى في الحالات الضرورية ، أو يكتفي بإبلاغها بعض التعليمات بواسطة البغالين . عندما يحالفهما الحظ يعثران على نزل تقدم فيه أطعمة ريفية ترفض أن تتناولها ، ويستأجران فراش قش تنبعث منه الروائح الزنخة للعرق والبول . ومع ذلك ، فغالباً ما يمضيان الليالي في أكواخ الهنود أو في منامات في العراء ، أقيمت على حافة الطرق بواسطة صفوف من الأوتاد سُقفت بجرائد النخيل ، يحق لكل من ينزل فيها البقاء حتى الفجر . لم تتمكن فيرمينا دازا من النوم ليلة واحدة ، تتصبب عرقاً من الخوف ، تحس في العتمة ذهاب وإياب المسافرين الغامضين ، يعقلون بهائمهم إلى الأوتاد ، ويعلقون أراجيحهم حيث يمكنهم ذلك .

في المساء ، عندما يكونون أول الواصلين ، يبدو المكان هادئاً وطلقاً ، ولكنه

يتحول عند الفجر إلى سوق شعبي ، حيث تتكدس الأراجيح المعلقة على ارتفاعات مختلفة ، وحيث ينام هنود متربعين وسط ثغاء الماعز المربوطة ، وجلبة ديكة الصراع داخل أقفاصها الفرعونية ، والصمت اللاهث للكلاب المتوحشة التي دربت على الامتناع عن النباح خشية مخاطر الحرب . هذه الأجواء مألوفة بالنسبة للورنزو دازا الذي أمضى نصف حياته يقوم بتهريب البضائع في المنطقة ، وغالباً ما يلتقي في الصباح الباكر أصدقاء قدامى . بالنسبة لابنته : احتضار دائم . نتانة حمولات السمك المملح ، إضافة إلى فقدان الشهية بفعل الحنين ، أديا بها إلى فقدان عادة تناول الطعام . وإذا كان اليأس لم يدفع بها إلى الجنون ، فذلك لأنها تستمد العزيمة من تذكر فلورونتينو أريزا . لم يكن يخالجها شك بأن هذه الأرض هي أرض النسيان .

الحرب هنا دائمة . منذ بدء الرحلة والحديث يدور على خطر مصادفة الفرق العسكرية المنتشرة . قام البغالون بشرح الأساليب المختلفة لمعرفة إلى أي فريق يتمون للتصرف حسب مقتضى الحال . لم يكن أمراً نادراً مصادفة كوكبة من الخيالة بأمرة ضابط تقوم بتجنيد تعساء جدد ، يمسكون بهم بالأنشوطة كما لو أنهم عجول في ذروة السباق . رازحة تحت وطأة كل هذه الأمور المرعبة ، نسيت فيرمينا دازا ما بدا لها أقرب إلى الخيال منه إلى الممكن ، إلى أن حدث ذات ليلة أن أقدمت دورية مجهولة الانتماء على اختطاف مسافرين من القافلة وشنقتهما على أغصان شجرة كامبانو على بعد نصف فرسخ من المخيم . لم تكن للورنزو دازا أية صلة بهما ، ولكنه أمر بإنزالهما ، ودفنهما كمسيحيين كبادرة شكر لأنه لم يلاق المصير نفسه . هذا أقل ما يمكنه القيام به . أيقظه المهاجمون وهم يصوبون فوهة بندقية نحو بطنه . سأله قائد يرتدي أسمالاً بالية ، ملوث الوجه بالسخام ، وهو يعميه بنور مصباح عما إذا كان ليبيرالياً أو محافظاً .

أجاب لورنزو دازا : « لا هذا ، ولا ذاك ، أنا مواطن إسباني » .

ـ أنت عظيم الحظ : أجاب القائد . ودعه وهو يرفع يده قائلاً : يحيا الملك !

بعد مرور يومين ، نزلوا نحو السهل المشرق حيث تقع قرية فالديبار . حفلات صراع ديكة تقام في الباحات ، موسيقى اكورديونات ، فرسان يمتطون

صهوات جياد أصيلة في زوايا الشوارع ، مفرقعات وقرع أجراس ، أناس ينهمكون في بناء ما يشبه القلعة بواسطة أسهم نارية . لم تنتبه فيرمينا دازا حتى لمظاهر البهجة . توقفا عند الخال ليسيماكو سانشيز شقيق أمها الذي هب لملاقاتهم على الطريق الرئيسي على رأس كوكبة مميزة من الأقارب الشبان ، يمتطون بهائم من أفضل سلالة في المنطقة كلها . اجتازوا شوارع القرية وسط دوي الألعاب النارية . يقع المنزل في الساحة الكبرى ، بمحاذاة الكنيسة الضخمة التي أعيد ترميمها مرات عدة ، والتي تبدو أكثر شبهاً بمستودع مزرعة بسبب اتساع غرفها المظللة ورواقها العابق برائحة عصير القصب الحار ، والواقع قبالة بستان أشجار مثمرة .

ما إن وطئت أقدامهم أرض الحظيرة حتى غصت قاعات الاستقبال بجمهور من الأقارب الذين لا تعرفهم فيرمينا دازا والذين غمروها بدفق لا يحتمل من العواطف ، إذ إنها مسلوخة من امتطاء الدابة ، تكاد تموت تعباً ، خاوية البطن ، عاجزة عن حب كائن من كان في هذا العالم الخسيس ، كل ما تطمح اليه ركن هادىء معزول ، لكي تبكي فيه . إبنة خالها هيلديبراندا سانشيز ، التي تكبرها بعامين ، تتحلى بكبريائها الملوكي نفسه ، كانت الوحيدة التي فهمت واقعها منذ اللحظة الأولى التي تعرفت فيها عليها ، إذ انها هي الأخرى تضوى بجمر حب جسور . في نهاية ما بعد الظهر قادتها إلى الغرفة التي أعدت للإثنتين ، ولم تستطع أن تفهم كيف أنها ما تزال على قيد الحياة رغم قروح النار التي تحرقها . بمساعدة أمها ، امرأة رقيقة تشبه زوجها كما لو أنها أخته التوأم ، هدأت من آلام حروقها بكمادات زهرة العطاس ، فيما كانت أصوات انفجارات قلعة الأسهم النارية تهز أسس المنزل .

انصرف الزوار حوالي منتصف الليل . في الخارج انكفأت جموع المحتفلين إلى أماكن خلفية . أعارتها ابنة خالها هيلديبراندا قميص نوم من الدبلان وساعدتها لتنام على سرير حريري الشراشف ، وسادته من الريش مما ولد في نفسها فجأة الرعب المباغت للسعادة . وأخيراً ، عندما بقيتا وحيدتين في الغرفة ، أغلقت الباب بالمزلاج ، وأخرجت من تحت خشبة السرير مغلفاً من القماش مختوماً بالشمع بخاتم التلغراف الوطني . بدا كافياً لفيرمينا دازا أن ترى على وجه قريبتها سمات المكر المشعة كي تنبعث في ذاكرتها الرائحة المفكرة للغاردينيا البيضاء . سحقت

الختم بأسنانها وأخذت تتخبط حتى الفجر في مستنقع دموع إحدى عشرة برقية ملتهبة .

عندها عرفت كل شيء . قبل أن يبدأ الرحلة ، ارتكب لورنزو دازا خطأ إعلام شقيق زوجته ليسيماكو سانشيز بذلك برقياً ، تولى هذا بدوره نشر الخبر في العائلة الكبيرة المتداخلة والمنتشرة في العديد من القرى والدساكر في المقاطعة . وقد أتاح هذا لفلورنتينو أريزا معرفة خط السير كاملاً ، مقيماً في الوقت نفسه شبكة أخوية من موظفي البرقيات سمحت له باقتفاء أثر فيرمينا دازا حتى محط ترحالها الأخير في كاب دي لافيلا . وهكذا بقي على اتصال وثيق بها منذ وصولها إلى فال دي بار حيث مكثت ثلاثة أشهر وحتى نهاية الرحلة في ريوهاشا . بعد مضي سنة ونصف السنة ، بات لورنزو دازا مقتنعاً أن ابنته قد نسيت أخيراً ، قرر العودة إلى منزله . بدون شك لم يكن مدركاً لضعف رقابته ، همه إطراء قبيلة زوجته ، التي بعد مرور كل تلك السنين تجاوزت أحكامها القبلية المسبقة واستقبلته بذراعين مفتوحتين كواحد من أبنائها . شكلت الزيارة مصالحة متأخرة مع أنها لم تهدف إلى ذلك . وحقيقة الأمر أن أسرة فيرمينا سانشيز عارضت بكل إصرار زواجها من مهاجر لا أصل له ، متشدق وفظ ، عابر سبيل أينما حل ، تاجر بغال شاردة ، تجارة أحقر من أن تكون شريفة . غامر لورنزو دازا بكل شيء ليربح كل شيء ، فالتي يطمح إليها هي الأغلى ثمناً في أسرة مميزة في المنطقة : رهط معقد من النساء المخيفات والرجال الرقيقي القلوب ، يضغطون على الزناد بسهولة ، وتثيرهم قضايا الشرف إلى حد الجنون . ومع ذلك ، فقد تشبثت فيرمينا سانشيز بحبها بكل التصميم الأعمى للحب المعاند ، وتزوجته رغم معارضة الأسرة بسرعة كبيرة وبكثير من السرية إلى حد بدا معه أنها لم تقدم على ذلك بدافع الحب ، وإنما لتستر زلة مبكرة بغطاء مقدس .

وبعد مضي خمس وعشرين سنة ، لم ينتبه لورنزو دازا أن موقفه المتشدد إزاء مشاعر ابنته إن هو إلا تكرار غير سليم للموقف من قصة حبه بالذات ، ومضى يشكو تعاسته لأخوة زوجته ، الأشخاص أنفسهم الذين عارضوا زواجه وشكوا في ما مضى منه أمام أنسبائهم . وهكذا ، فإن الوقت الذي يضيعه بالشكوى تفيد الإبنة منه في الحب . وفيما يقوم هو بخصي العجول وترويض البغال في الأراضي العامرة لأخوة

زوجته ، انصرفت هي لإدخال البهجة إلى قلبها برفقة مجموعة من قريباتها وعلى رأسهن هيلدبيراندا سانشيز أكثرهن جمالاً ومودة والتي تحب دون أمل رجلاً يكبرها بعشرين سنة متزوجاً ورب أسرة ، مكتفية بالنظرات العابرة .

بعد الإقامة في فالديبار ، تابعا الرحلة على خاصرة الجبل يجتازان البراري المزهرة والهضاب الحالمة . وفي كل قرية يمران فيها يستقبلان كما في الأولى ، بالطبل والزمر والألعاب النارية . قريبات جديدات متواطئات ، ورسائل منتظمة في مكتب البرقيات . لاحظت فيرمينا دازا بسرعة أن يوم وصولها إلى فالديبار لم يكن استثناء ، وأن كل الأيام في هذه المنطقة الخصبة هي أيام احتفالات . ينام الزوار حيث يدركهم الليل ، ويأكلون حيث يشعرون بالجوع ، ففي هذه البيوت ذات الأبواب المشرعة ،هناك دائماً أرجوحة للنوم ، وسلاقة(*) تتكون من ثلاث شرائح من اللحم فوق الموقد تحسباً ـ وهذا ما يقع غالباً ـ لقادم يصل قبل وصول برقية تنبىء بقدومه . رافقت هيلدبيراندا سانشيز ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة ، وقادتها بإيقاع مرح عبر متاهة نسبها حتى منابع جذورها . وجدت فيرمينا دازا نفسها ، شعرت لأول مرة أنها سيدة مصيرها ، أحست بأن هناك من يصاحبها ويحميها ، امتلأت رئتاها بالحرية التي أعادت إليها الصفاء وإرادة الحياة . إنها لا تزال تتذكر في نهاية حياتها هذه المرحلة التي تزداد حضوراً ، أكثر فأكثر ، في ذاكرتها بالوضوح المرضي للحنين .

رجعت ذات مساء ، مضطربة ، من نزهتها المعتادة إذ تصورت أن بإمكانها أن تكون سعيدة بدون الحب ، بل وضد الحب . أقلقها هذا التصور ، لأن واحدة من قريباتها سمعت خلسة حديثاً بين أهلها ولورنزو دازا ، ألمح هذا الأخير خلاله إلى موافقته على زواج ابنته من الوريث الوحيد للثروة الخيالية لكليوفاس موسكوتي . فيرمينا دازا تعرفه . لقد رأته وهو يقوم بألعاب الفروسية وسط الساحات على صهوات جياد كريمة تحمل عدة فخمة حتى ليظن أنها حلية القداس . بدا أنيقاً ورشيقاً ، ذا رموش حالمة تنتزع التنهدات من الحجارة . ولكنها قارنته بذكرى فلورنتينو اريزا القابع تحت أشجار اللوز في الجنينة الصغيرة ، بائساً ونحيلاً ،

(*) طعام مركب من لحم مسلوق وخضر .

كتاب الشعر على ركبتيه ، فلم ترفي قلبها ظلاً لشك .

في هذه الأثناء ، أخذت هيلدبراندا سانشيز تشتعل رجاء إثر زيارة قامت بها لعرافة أذهلتها نبوءتها . مرعوبة من مخططات أبيها ، ذهبت فيرمينا دازا بدورها لإستشارتها . أنبأها الورق بأنه ما من عائق في مستقبلها أمام زواج طويل سعيد . أمدتها هذه النبوءة بالأمل ، لأنها لم تكن تتصور أن هناك مصيراً منسجماً إلى هذا الحد يمكن أن يعزى إلى أي رجل غير الذي تحب . منتشية بفعل هذا اليقين قررت ممارسة اختيارها الحر . لم تعد مراسلاتها البرقية مع فلورونتينو اريزا مجرد كشف عن النوايا والوعود الواهمة ، بل غدت ذات منحى عملي ومنهجي ، وأكثر دفقاً كما لم تكن أبداً من قبل . حددا المواعيد ، أقرا الترتيبات ، تعاهدا على تقرير مصير حياتهما المشتركة بالزواج دون طلب الإذن من أحد ، أياً يكن وبأية صورة من الصور ما إن يلتقيا من جديد . وقد تعاملت فيرمينا دازا مع هذا الالتزام على درجة من الجدية إلى حد رأت معه أنه من غير المناسب حضور أول حفل راقص ، في قرية فونسيكا طلب إليها والدها حضوره ، دون الحصول على موافقة خطيبها . كان فلورونتينو اريزا ، ذلك المساء ، في نزل اللذة يلعب الورق مع لوتاريو توغيت عندما قدموا لإبلاغه أن برقية مستعجلة في انتظاره .

إنه عامل التلغراف في فونسيكا الذي شغل سبع محطات وسيطة كي تتمكن فيرمينا دازا من طلب الإذن للذهاب إلى الحفل الراقص . ولكن ما إن حصلت على الموافقة ،حتى أصرت على أن تتأكد من أنَّ،فلورونتينو اريزا هو الذي يحرك مفاتيح الإرسال على الطرف الآخر من الخط . صاغ عبارة تثبت هويته وهو يشعر بالدهشة أكثر من شعوره بالإطراء : قل لها إنني أقسم برأس الربة المتوجة .تعرفت فيرمينا دازا إلى كلمة السر ، وهكذا شاركت في أول حفل راقص استمر حتى السابعة صباحاً ، ثم بدلت ملابسها بأقصى سرعة كي لا تتأخر عن موعد القداس . بات في قعر حقيبتها من الرسائل والبرقيات أكثر من تلك التي صادرها أبوها ، وتعلمت فيرمينا دازا أن تتصرف كأفضل ما تفعله امرأة متزوجة . فسر لورونزو دازا التحول الذي طرأ على سلوكها باعتباره دليلاً على أن البعد والزمن قد شفياها من أوهامها المراهقة ، ولكنه لم يفاتحها على الإطلاق بمشروعه لتزويجها . صارت علاقتهما ودية ، ولكن ضمن الأطر الرسمية التي تقيدت بها منذ طرد العمة اسكولاستيكا .

كما أن عُشرتهما بدت مريحة إلى الحد الذي لا يمكن لأحد أن يشك بأنها تقوم على الحنان .

في هذه المرحلة بالذات ، قرر فلورونتينو أريزا أن يخبرها في رسائله أنه سيحاول ، مهما كلفه ذلك ، أن يحصل من أجلها على كنز السفينة الغارقة . إنها الحقيقة عارية ، وقد خطرت بباله في نفحة إلهام بعد ظهر يوم منير ، وقد بدا البحر وكأنه مرصوف بالألمنيوم بسبب كمية السمك الطافي على السطح بفعل « البارباسك » . لقد أثارت المجزرة كل طيور السماء . وكان على الصيادين إخافتها بالمجاديف حتى لا تنازعهم ثمار المعجزة الممنوعة . استخدام « البارباسك » الذي يخدر الأسماك فقط يعاقب عليه القانون منذ العهد الاستعماري ، ولكن استخدامه استمر شائعاً لدى صيادي الكاريبي على مرأى ومسمع من الجميع حتى اليوم الذي تم فيه استبداله بالديناميت . كانت مراقبة الصيادين من كل رصيف المرفأ ، وهم يحملون زوارقهم المسطحة القعر بالشباك الضخمة الممتلئة بالسمك ، واحدة من تسليات فلورونتينو أريزا طالما استمرت رحلة فيرمينا دازا. كان يرى في الوقت نفسه مجموعة من الفتيان تسبح كما القرش ، وتطلب من الفضوليين إلقاء قطع النقود في الماء ليقوموا هم بعد ذلك باستخراجها . إنهم هم الذين يسبحون لملاقاة السفن عابرات الأطلسي ، وطالما كتب عنهم الرحالة في الولايات المتحدة وأوروبا بسبب إتقانهم فن الغوص . يعرفهم فلورونتينو اريزا منذ زمن طويل ، حتى قبل أن يقع في الحب ، ولكن لم تراوده أبداً فكرة قدرتهم على استخراج كنز السفينة . اخترقت الفكرة رأسه بعد ظهر ذلك اليوم . ومنذ نهار الأحد التالي ، وحتى عودة فيرمينا دازا بعد سنة ، بات لديه سبب إضافي للهذيان .

أبدى إقليدوس ، أحد صغار السابحين ، حماساً لا يقل عن حماسه هو لفكرة استكشاف بحري إثر مناقشة لم تستغرق أكثر من عشر دقائق . لم يكشف له فلورونتينو أريزا عن الهدف الحقيقي للعملية ، ولكنه استعلم منه عن قدراته كغطاس وكبحري . سأله عما إذا كان بمقدوره أن يغوص إلى عمق عشرين متراً دونما حاجة إلى التنفس، رد اقليدوس بالإيجاب. سأله عما إذا كان بمقدوره أن يقود زورق صيد بمفرده في حوض

البحر وسط عاصفة دون أية آلة سوى غريزته، ورد اقليدوس بالإيجاب. سأله إذا كان باستطاعته أن يحدد بدقة مكاناً يبعد ستة عشر ميلاً بحرياً شمال ـ غرب أكبر جزر أرخبيل سوتافينتو ورد اقليدوس بالإيجاب. سأله عما إذا كان بمقدوره الإبحار ليلاً مهتدياً بالنجوم، فأجابه اقليدوس بالإيجاب. سأله إذا كان مستعداً للقيام بالعمل بأجر مشابه للأجر الذي يتقاضاه من الصيادين عندما يساعدهم في الصيد، فأجاب اقليدوس بالإيجاب مشترطاً زيادة خمسة ريالات في أيام الآحاد. سأله إذا كان يستطيع حماية نفسه من سمك القرش، فرد اقليدوس بالإيجاب إذ لديه وسائل سحرية لإخافته. سأله عما إذا كان قادراً على كتم السر حتى ولو أخضع لوسائل التعذيب المستخدمة في محاكم التفتيش، وأجاب اقليدوس أن نعم لأنه لا يقول لا أبداً، ويتقن الإجابة بنعم إلى حد لا يدع مجالاً للشك فيه. في النهاية، حسب النفقات: استئجار الزورق، استئجار المجداف، استئجار عدة الصيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة حملاتهم. عليهم حمل ما يؤكل، قربة من الماء العذب، قنديل زيت، حزمة من الشموع، والبوق الذي يستخدمه الصياد لطلب النجدة في الحالات الطارئة.

يبلغ اقليدوس الثانية عشرة من العمر، ماكر وسريع، يتكلم دون توقف، له جسد انقليس، يبدو وكأنه أعد للتسلل من كوة. لوّن العراء جلده إلى حد يصعب معه معرفة لون بشرته الحقيقي، وبدت عيناه الصفراوان الكبيرتان أكثر إشعاعاً. رأى فيه فلورونتينو أريزا على الفور الشريك المناسب لمغامرة بهذه الأهمية. باشرها فوراً دونما انتظار للأحد القادم.

أبحرا من مرفأ الصيادين في الصباح الباكر، بتجهيز جيد واستعدادات أكثر جودة. اقليدوس شبه عار، يرتدي ما يستر عورته، وهذا ما يرتديه دائماً. فلورونتينو أريزا بمعطفه، وقبعته الجهنمية، وحذائه الجلدي المبرنق، ربطة عنقه كشاعر حول رقبته، وكتاب لتمضية الوقت خلال الرحلة نحو الجزر. في الأحد الأول عرف أن اقليدوس بحار ماهر وغواص جيد، وأنه يمتلك معرفة مدهشة عن طبيعة البحر وعن الخردة المتراكمة في الخليج. إنه قادر أن يروي بتفاصيل مدهشة حكاية هيكل كل مركب أكله الصدأ، يعرف عمر كل عوامة، مصدر كل حطام، عدد حلقات السلسلة التي كان الإسبان يقفلون بواسطتها مدخل الخليج، خشي أن

يعرف أيضاً هدف الحملة، طرح عليه فلورونتينو اريزا بعض الأسئلة الماكرة، فلاحظ أنه لا يراود اقليدوس أي شك حول السفينة التي أغرقت.

منذ أن سمع بحكاية الكنز في نزل اللذة، قام فلورونتينو أريزا بجمع معلومات حول كل ما يمكن معرفته عن طبيعة ذلك النوع من السفن الحربية. وهكذا عرف أن سفينة سان ـ جوزيه ليست وحدها في الأعماق المرجانية. إنها، في الواقع، سفينة القيادة في أسطول «الأرض الصلبة»، وإنها وصلت هنا بعد شهر أيار عام ١٧٠٨ قادمة من السوق الأسطوري في بورتو بيللو في باناما حيث حملت جزءاً من كنزها: ثلاثمئة صندوق مملوءة بالنقود من البيرو وفيراكروز، ومئة وعشر صناديق من المجوهرات جمعت وأحصيت في جزيرة كونتادورا. وخلال الشهر الطويل الذي رست فيه هنا، لم يمر ليل أو نهار لم يكن احتفالاً شعبياً، وقد تم تحميل باقي الكنز بهدف إنقاذ مملكة اسبانيا من الفقر: مئة وعشر صناديق من زمرد ميزو وسوموندوكو، وثلاثين مليون قطعة ذهبية.

يتألف أسطول «الأرض الصلبة» من اثنتي عشرة سفينة على الأقل، ومن مختلف الأحجام، أبحر بحراسة عمارة فرنسية، التي على الرغم من كونها جيدة التسلح إلا أنها لم تتمكن من حماية الحملة من مدفعية العمارة البريطانية بقيادة كارلوس واغر التي كمنت في أرخبيل سوتافينتو عند مخرج الخليج. إذاً لم تكن سان ـ جوزيه السفينة الوحيدة التي أغرقت، على الرغم من غياب أية وثيقة ثابتة تكشف بالضبط عن عدد البحارة الذين ماتوا وعن عدد الذين تمكنوا من النجاة من نيران البريطانيين. ولكن لا مجال للشك بأن سفينة القيادة، كانت من أوائل السفن التي أغرقت على الفور وبكامل طاقمها وقبطانها الجامد في مقصورة القيادة التي تحوي القسم الأكبر من الحمولة.

لقد درس فلورونتينو اريزا مسالك تلك السفن على خرائط تعود لذلك الزمن، وظن أنه توصل إلى معرفة مكان غرف السفينة. خرجا من الخليج من بين قلعتي «الفم الصغير»، وبعد أربع ساعات من الإبحار بلغا داخل البحيرة المرجانية للأرخبيل حيث يمكن الإمساك باليد بالكركندات الغافية في الأعماق المرجانية. الرياح لطيفة، والبحر هادئ وصاف إلى حد أن فلورونتينو اريزا رأى نفسه مثل صورته في الماء. في طرف البحيرة المرجانية، وعلى مسافة ساعتين من الإبحار

من الجزيرة الكبرى ، يقع مكان غرق السفينة .

طلب فلورونتينو اريزا محتقناً بثيابه المأتمية تحت الشمس الجهنمية ، من اقليدوس أن يحاول الغطس إلى عمق عشرين متراً وأن ينقل اليه صورة عما يراه في القعر . الماء صاف إلى الحد الذي رآه فيه وهو يتحرك تحت الماء كقرش مختلج بين القروش الزرقاء التي تلتقيه دون أن تمسه . ثم رآه يختفي خلف دغل من المرجان ، وفي الوقت الذي ظن فيه أنه لم يعد لديه ما يكفيه من الهواء سمع صوته خلفه . بدا اقليدوس واقفاً ، رافعاً ذراعيه ، يغمره الماء إلى وسطه . استمرا في البحث في أماكن أكثر عمقاً ، ودائماً باتجاه الشمال ، يبحران فوق المياه الدافئة والأخطبوطات الخجولة وورود الظلمات ، إلى أن أدرك إقليدوس انهما يضيعان وقتهما . قال له :

« إذا لم تخبرني ما الذي تريدني أن أعثر عليه فإنني لا أعرف كيف يمكنني أن أجده » .

ولكن فلورونتينو اريزا لم يبح له بالسر . عند ذلك اقترح عليه اقليدوس أن يخلع ملابسه ويغطس معه ، حتى ولو لم يكن الأمر إلا لمجرد رؤية هذه السماء الأخرى للعالم التي تشكلها تلك الأعماق المرجانية . ولكن فلورونتينو أريزا إعتاد القول ، إن الله قد خلق البحر كي نراه من النافذة ، ولم يسبق له أبداً أن تعلم السباحة . بعد الظهر ، تلبدت السماء بالغيوم . صار الهواء بارداً ورطباً . هبط الليل بسرعة اضطرتهما لإنارة المصباح للاستهداء إلى المرفأ . قبل دخول الخليج رأيا عابرة الأطلسي « فرنسا » تمر بالقرب منهما ، كتلة من الأنوار المضاءة ، ضخمة وبيضاء ، مخلفة وراءها آثار حساء خفيف وقنبيط مسلوق . أضاعا ثلاثة آحاد على هذا المنوال ، وكانا سيضيعانها كلها لو لم يتخذ فلورونتينو اريزا قراراً بمشاركة أقليدوس السر . بادر هذا الأخير إلى تبديل كل الخطط المتبعة في البحث . أبحرا في الممر المائي القديم الذي كانت تمخره السفن، والذي يقع على مسافة عشرين فرسخاً بحرياً إلى الشرق من المكان الذي افترض فلورونتينو اريزا وجود الكنز فيه . ما إن انقضى شهران ، بعد ظهر يوم ممطر ، بقي اقليدوس مدة طويلة جداً تحت الماء ، وكان الزورق قد ابتعد كثيراً عن مكان الغطس ، إذ لم يتوصل فلورونتينو

اريزا إلى التحكم به بواسطة المجذاف ، مما اضطر اقليدوس إلى السباحة طوال نصف ساعة ليصل إلى الزورق. عندما نجح أخيراً في الصعود إليه، أخرج من فمه ، كدليل على الثبات ، حليتين نسائيتين .

ما أخذ يرويه كان مدهشاً إلى الحد الذي قرر فيه فلورونتينو أريزا ان يتعلم السباحة ، وان يغوص إلى أعمق ما يمكنه ليشاهد ذلك بنفسه . أفاد أنه في هذا المكان ، وعلى عمق يبلغ بالكاد عشرة أمتار هناك عدد كبير من السفن الشراعية الراقدة بين الصخور المرجانية ، حتى ليعجز المرء عن حصرها، وأنها منتشرة على مساحة واسعة لا يحدها البصر . وأضاف أن أكثر ما يثير العجب أنه ولا واحد من هياكل المراكب التي لا تحصى والراسية في الخليج أفضل حالاً من حال هذه السفن الغارقة . أضاف أيضاً أن هناك العديد من الكرافيلات بأشرعتها التي لم تمس ، وان السفن الغارقة تُرى بوضوح في الأعماق كما لو أنه تم إغراق الزمان والمكان معها ، إذ تبدو مضاءة بالشمس نفسها التي أغرقت أبانها في التاسع من حزيران في الساعة الحادية عشرة صباحاً . أضاف ، يخنقه حماس خياله ، أن أسهل ما يمكن تمييزه هو السفينة سان ـ جوزيه التي يبدو اسمها مدوناً بوضوح بحروف مذهبة بادية على كوثلها ، ولكنها أيضاً السفينة التي ألحقت بها المدفعية الإنكليزية أفدح الأضرار . ذكر أنه شاهد في داخلها أخطبوطاً هرماً عمره ثلاثة قرون ، تخرج لامساته من فوهات المدافع ، ازداد حجمه داخل قاعة الطعام إلى الحد الذي بات إخراجه يتطلب تحطيم المركب . روى أنه رأى جثة القبطان ، الذي يرتدي زي القتال ، طافية في إحدى زوايا حويض في مقدمة السفينة . وإذا كان لم ينزل إلى الأنبار حيث الكنز فلأنه لم يعد في رئتيه من الهواء ما يكفي لذلك . وهاك الأدلة : حلقة ذات زمردة ، ميدالية عليها رسم السيدة العذراء مع سلسلتها المتآكلة بفعل الملح .

عندئذ ، ولأول مرة ، أشار فلورونتينو أريزا إلى الكنز في رسالة بعث بها إلى فيرمينا دازا في فونيسكا قبل قليل من عودتها . قصة السفينة التي تم إغراقها مألوفة لديها ، لأنها غالباً ما سمعت لورنزو دازا يروي كم أضاع من وقت ومال لإقناع فريق من الغواصين الألمان لمشاركته في استخراج الكنز المدفون . حال بينه وبين التورط في هذه العملية عدد من أعضاء أكاديمية التاريخ الذين أقنعوه أن اسطورة

المركب المغرق اخترعها أحد الحكام اللصوص الذي استولى بهذه الطريقة على ممتلكات التاج . ومهما يكن من أمر ، فأن فيرمينا دازا تعرف ان المركب يرقد على عمق مئتي متر بحيث لا يستطيع كائن بشري بلوغه وليس على عمق عشرين متراً كما يزعم فلورونتينو أريزا . ولكنها اعتادت على شطحاته الشاعرية إلى حد اعتبرت معه حكاية السفينة أكثرها نجاحاً . ولكنها عندما استمرت في تلقي الرسائل التي تسرد لها تفاصيل أكثر غرابة ، لم تستطع منع نفسها من الإعراب لهيلديبراندا عن خشيتها من أن يكون خطيبها المهلوس قد أصيب بمس من الجنون .

في تلك الأثناء ، كان اقليدوس يطفو على السطح حاملاً الكثير من أدلة خرافته ، ولم تعد القضية قضية لعب بحلق أو خواتم ضائعة بين الصخور المرجانية وإنما القيام بعملية ضخمة لإخراج المراكب الخمسين مع الثروة البابلية التي تحويها . وهكذا حدث ما كان لا بد من حدوثه إن آجلاً أو عاجلاً : طلب فلورونتينو أريزا من أمه مساعدته في الوصول بمغامرته إلى خواتمها . وما إن عضت هذه معدن الحلى بأسنانها ، وتفحصت قطع الزجاج بتعريضها للنور المعاكس ، حتى أدركت أن هناك من يفيد من سذاجة ولدها . أقسم اقليدوس ، وهو يجثو على ركبتيه أمام فلورونتينو أريزا ، انه ما من شائبة تشوب العملية ، ولكنه لم يعد إلى الظهور في المرفأ نهار الأحد التالي ، ولا في أي مكان آخر .

لم يبق لفلورونتينو اريزا من تلك النكبة سوى مأوى الحب في المنارة . لجأ اليها مرة ذات مساء في زورق اقليدوس عندما فاجأتهما عاصفة في عرض البحر ، فاعتاد التردد إليها بعد الظهر لتبادل أطراف الحديث مع الحارس حول عجائب البر والبحر التي لا تحصى والتي يلم بها هذا الأخير . وكان ذلك بداية عهد من الصداقة صمدت أمام الكثير من التحولات التي طرأت على هذا العالم . تعلم فلورونتينو اريزا كيفية تغذية الضوء ، بواسطة الحطب أول الأمر ، ثم بجرار الزيت قبل وصول التيار الكهربائي إلى الديار . تعلم كيفية توجيهه وزيادته بواسطة المرايا . وعندما يحول سبب ما دون قيام الحارس بمهمته ، يتولى هو مهمة مراقبة البحر من أعلى البرج . تعلم التعرف على المراكب من صوتها ، ومساحة أنوارها في الأفق ، وان شيئاً منها يأتيه عبر ومضات الفنار .

المتعة في النهار أمر مختلف ، وخاصة في الآحاد . في حي الحكام حيث

يقيم الأغنياء في المدينة القديمة ، وحيث تفصل المسابح المخصصة للنساء عن المسابح المخصصة للرجال بجدار ملاطي : الأولى على يمين الفنار والثانية على يساره . ثبت الحارس منظاراً بعيد المدى يسمح بمراقبة كل سنتيم من مسبح النساء . آنسات المجتمع الراقي ، اللواتي لا يعرفن أنهن خاضعات للمراقبة ، يعرضن أفضل ما لديهن في ثياب الاستحمام ذات الدوائر ، صنادلهن وقبعاتهن ، ملابس تستر الأجساد أكثر من الثياب العادية ، إضافة إلى كونها أقل جاذبية . يجلسن على الشاطىء تحت هجير الشمس ، على كراسٍ هزازة من السوحر ، مرتديات الثياب نفسها ، قبعات الريش نفسها ، المظلات الأورغندية نفسها التي يذهبن بها إلى القداس ، تراقبهن أمهاتهن خشية أن يقوم رجال المسابح المجاورة بإغوائهن تحت الماء . وواقع الأمر أنه بواسطة المنظار البعيد المدى لا يمكن رؤية أمر أكثر إثارة لما يمكن رؤيته في الشارع . ومع ذلك، كثر هم الزبائن الذين يأتون كل نهار أحد ، متصارعين للفوز بالمنظار لمجرد تذوق الثمار المحرمة للجنينة المسورة المجاورة .

فلورونتينو أريزا واحد من هؤلاء . يفعل ذلك بدافع الفخر أكثر مما بدافع المتعة . لم تكن هذه التسلية الإضافية هي التي وطدت صداقته مع حارس المنارة . السبب الحقيقي لذلك كان بعد أن صدته فيرمينا دازا وأصيب بحمى الحب العاثر . في محاولته لسلوها ، عرف ، في أعلى المنارة ، لا في أي مكان آخر ، ساعات من السعادة ، ورأى فيه مكاناً يمده بالعزم لمواجهة محنته . إنه المكان الأثير لديه ، إلى حد أمضى معه سنوات طوالاً يحاول إقناع أمه ، وفي ما بعد إقناع العم ليون الثاني عشر بمساعدته على شرائه . كانت المنارات في الكاريبي في تلك الأيام ملكاً خاصاً ، ويتمتع مالكوها بحق الدخول إلى المرفأ بحسب حجم المراكب . فكر فلورونتينو اريزا أن هذه هي الوسيلة الوحيدة الشريفة لإتمام صفقة رابحة ، إضافة إلى الشعر ، ولكن لا أمه ولا عمه فكرا بالطريقة نفسها ، وعندما بات هو نفسه قادراً على ذلك ، كانت المنارات قد أصبحت ملكاً للدولة .

ومع ذلك ، فإن أياً من هذه الأحلام لم يكن دون فائدة . اسطورة السفينة ثم جديد المنارة ، عزياه خلال فترة غياب فيرمينا دازا . وفيما هو أقل ما يكون توقعاً لعودتها ، عرف نبأ رجوعها . وبالفعل ، وبعد إقامة طويلة في ريوهاشا ، قرر لورنزو

دازا العودة . البحر غير مؤات للسفر في ذلك الفصل من السنة بسبب رياح كانون الأول الشمالية . والسفينة التاريخية ، الوحيدة التي تجازف في القيام بالرحلة ، يمكن أن تجد نفسها عند الفجر في المرفأ الذي أبحرت منه بفعل الرياح المعاكسة . هذا ما حدث . أمضت فيرمينا دازا ليلة وهي تحتضر ، متقيئة الصفراء ، مقيدة إلى مرقد في قمرة تشبه مراحيض مطعم حقير ، لا بسبب ضيقها الخانق فحسب وإنما بسبب حرها ونتانتها أيضاً. كان التمُوُر(*) قوياً إلى درجة خيل لها عدة مرات أن أحزمة السرير ستنقطع . يبلغ مسامعها نتاف صرخات متألمة قادمة من السطح ، تشبه صراخ الغرقى ، وشخير أبيها الذي يشبه شخير النمر في المرقد المجاور . أمران ساهما في زيادة رعبها . ولأول مرة منذ ثلاث سنوات تقريباً ، أمضت ليلة مسهدة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورونتينو أريزا ، فيما هو بالمقابل ، يعاني الأرق في أرجوحته في مؤخرة المتجر يعد الدقائق الأزلية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة دقيقة . في الصباح الباكر ، هدأت الريح فجأة ، وهدأ البحر ، وأدركت فيرمينا دازا أنها تمكنت من الرقاد رغم دوار البحر إذ أيقظتها جلبة سلسلة المرساة . فكت الأحزمة ، وأخرجت رأسها من الكوة على أمل التعرف على فلورونتينو اريزا وسط زحمة الميناء ، ولكنها لم ترَ سوى مستودعات الجمارك وسط أشجار النخيل التي أضفت عليها أوائل أشعة الشمس لوناً ذهبياً ، ورصيف ميناء ريوهاشا بأخشابه المهترئة . إنه المكان الذي أبحرت منه السفينة في الليلة السابقة .

بدا ما تبقى من النهار كما الهلوسة . رأت نفسها في المنزل الذي كانت فيه في العشية ، تستقبل الزوار أنفسهم الذين قدموا لتوديعها ، يقولون الشيء نفسه . مذهولة لإحساسها بأنها تعيش من جديد فترة سبق لها أن عاشتها . بدا التكرار أميناً إلى حد ارتعبت معه فيرمينا دازا من فكرة وحيدة هي أن رحلة السفينة ستتكرر هي أيضاً ، مع أن مجرد تذكرها يملأها رعباً . ومع ذلك ، فالوسيلة الوحيدة الأخرى المتوفرة كي تعود إلى منزلها هي قضاء أسبوعين على ظهر بغل ، واجتياز مفازات الجبل في ظروف أكثر خطورة من الرحلة الأولى لأن حرباً أهلية جديدة قد اندلعت في ولاية كوكا في الأنديز ، وامتدت لتشمل مناطق الكاريبي . وهكذا انطلقت من

(*) التمُوُر : اهتزاز سفينة أو طائرة من أمام وخلف .

جديد ، في الثامنة مساء ، إلى المرفأ مصحوبة بالحشد الصاخب نفسه من الأقارب ، دموع الوداع نفسها ، ونفس هدايا الساعة الأخيرة الرخيصة الثمن والتي لا يتسع لها حجم القمرة . عندما رفعت المرساة ، قام رجال العشيرة بإطلاق وابل من الرصاص في الهواء تحية للسفينة ، وقام لورنزو دازا بالشيء نفسه مطلقاً خمس طلقات من مسدسه . سرعان ما تبدد القلق من نفس فيرمينا دازا ، فالريح كانت مؤاتية طوال الليل ، وللبحر رائحة أريج الأزهار مما ساعدها على النوم دون أن تربط أحزمة الأمان . حلمت أنها التقت فلورونتينو أريزا ، وأن هذا الأخير قد نزع الوجه الذي رأته عليه دائماً ، لأنه لم يكن في الحقيقة سوى قناع ، وان وجهه الحقيقي هو هو .

استيقظت باكراً جداً يشغل بالها لغز الحلم ، فرأت والدها يشرب القهوة المرة والكونياك في مقصورة القبطان مائل العين بفعل الكحول ، ولكن دون أدنى دلالة تثير الشك في ما يتعلق بعودته .

دخلوا المرفأ . انسابت السفينة بصمت عبر متاهة المراكب الشراعية الراسية في جون السوق العام الذي تصل رائحة عفونته إلى عدة فراسخ في البحر . وكان الفجر مشبعاً برذاذ مضيء ، ما لبث أن تحول بعد قليل إلى وابل غزير . مستنداً إلى شرفة مكتب التلغراف ، تعرف فلورونتينو أريزا إلى السفينة التي تعبر خليج « النفوس » بأشرعة يعيق المطر عملها لتلقي المرساة أمام رصيف السوق . انتظر ، في الليلة السابقة ، حتى الحادية عشرة صباحاً عندما عرف من خلال برقية عرضية تأخر وصول السفينة بسبب الرياح المعاكسة . وفي صباح اليوم التالي عاد إلى الانتظار منذ الساعة الرابعة . ينتظر دون أن يحيد ببصره عن الزوارق التي تقوم بنقل المسافرين القلائل الذين قرروا النزول رغم العاصفة . على غالبية هؤلاء مغادرة الزورق في منتصف الطريق وبلوغ الرصيف متخبطين في الوحول في الساعة الثامنة ، وبعد انتظار دون طائل لصحو عابر ، قام حمال زنجي ، مغموراً إلى وسطه بالماء ، بحمل فيرمينا دازا بين ذراعيه من عل ظهر السفينة إلى الشاطىء . ولكنها تبللت من رأسها إلى أخمص قدميها . ولم يتمكن فلورونتينو أريزا من التعرف عليها .

لم تدرك مدى النضج الذي اكتسبته خلال رحلتها إلا في اللحظة التي دخلت

فيها المنزل المغلق . بادرت على الفور إلى القيام بالمهمة البطولية لبعث الحياة فيه ، تعاونها في ذلك الخادمة الزنجية غالا بالاسيديا التي رجعت من ملجأ العبيد القديم ما إن علمت بعودتهما . لم تعد فيرمينا دازا تلك الإبنة الوحيدة ، المطيعة ، والخاضعة لطغيان أبيها في آن معاً ، ولكنها باتت سيدة وامرأة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت ، مملكة ، وحدها قوة حب لا يقهر ، تجعلها قادرة على النهوض من جديد . لم تسمح لنفسها أن تهزم ، فقد شعرت بأنها تستلهم روحاً معنوية تسمح لها بحمل الجبال . مساء يوم العودة بالذات ، وفيما هما يشربان الشوكولا ، ويأكلان الفطائر جالسين على مائدة المطبخ الكبيرة ، أناط بها أبوها ، بجلال من يقوم بعمل مقدس ، سلطة ادارة شؤون المنزل . قال لها :

« إنني أعيد لك مفاتيح حياتك » .

وقد أتمت السابعة عشرة من عمرها ، قبلت ذلك على الفور ، وبخشونة ، مدركة أن كل قيراط حرية ربحته كان بفضل الحب . في اليوم التالي ، إثر ليلة من الكوابيس المزعجة ، أحست لأول مرة بكآبة العودة ، عندما فتحت نافذة الشرفة لترى من جديد الرذاذ الخفيف الحزين المتساقط على الجنينة ، تمثال البطل المقطوع الرأس ، المقعد الرخامي حيث كان يجلس فلورونتينو اريزا حاملاً كتاب الأشعار . لم تعد تفكر فيه كخطيب مستحيل وإنما كزوج مؤكد عليها أن تهبه نفسها بالكامل ، شعرت كم كان رازحاً تحت وطأة الوقت الضائع منذ أن رحلت ، وكم سيكلفها من جهد بقاؤها على قيد الحياة ، وأي مقدار من الحب تحتاج لتحب رجلها كما يأمرها الله . فوجئت لعدم رؤيته في الجنينة الصغيرة حيث يأتي دائماً رغم المطر ، ولعدم تلقيها أية إشارة منه بأي صورة من الصور ، ولا حتى ما يدل على وجوده . إرتجفت فجأة لفكرة موته . ولكنها استبعدت هذه الفكرة على الفور ، لأنه في حمى برقيات الأيام الأخيرة ، وإزاء اقتراب موعد العودة ، نسيا الاتفاق على طريقة معاودة الاتصال بعد وصولها .

وحقيقة الأمر أن فلورونتينو اريزا كان على ثقة من أنها لم ترجع بعد ، إلى أن أكد له عامل التلغراف في ريوهاشا أنها رحلت يوم الجمعة السابق على متن الباخرة التي وصلت متأخرة يوماً واحداً بسبب معاكسة الرياح ، أمضى طوال نهاية الأسبوع يبحث عن دليل على الحياة في المنزل . مساء الإثنين أبصر عبر النوافذ نوراً

متماوجاً ، أطفىء بعد قليل ، في الغرفة ذات الشرفة . لم يتمكن من النوم ، بات فريسة للاضطرابات المسببة للغثيان التي أقضت مضجع لياليه الأولى . استيقظت ترانزيتو أريزا مع صياح الديكة قلقة لأن ولدها الذي خرج إلى الحديقة لم يعد بعد منتصف الليل ، ولم تجده في حرم المنزل . لقد انطلق يخبط على غير هدى في أرصفة الميناء ، ينشد أشعار الحب للريح ، يبكي من السعادة ، ينتظر طلوع النهار . في الثامنة صباحاً ، كان جالساً تحت قناطر مقهى « الباروواس » ، مخبولاً من ليل سهاده ، يحاول ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا دازا ترحيبه بقدومها ، عندما هزته رجة مزقت أحشاءه .

إنها هنا . تعبر ساحة الكاتدرائية برفقة غالا بالاسيديا التي تحمل سلال التسوق ، ولأول مرة لم تكن ترتدي الزي المدرسي . بدت أكبر سناً مما كانت عليه قبل ذهابها ، أكثر اكتمالاً وحيوية ، ذات جمال نقته الثقة بالنفس التي تتميز بها الشخصية العظيمة . طالت ضفيرتها من جديد ، ولكنها تتنكبها على كتفها الأيسر بدل أن تتدلى على ظهرها ، هذا التغيير البسيط أبعد عنها كل مظاهر الطفولة . صعق فلورونتينو أريزا ، تسمر في مكانه إلى أن اجتازت المخلوقة السحرية كامل الساحة دون أن تحيد ببصرها عن طريقها . ولكن القوة القاهرة التي تسببت بشلله أجبرته على الوثوب في إثرها ، وذلك عندما استدارت عند زاوية الكاتدرائية لتضيع في زحمة الأزقة التجارية المصمة(*) .

تبعها دون أن يتيح لها مجال رؤيته مستكشفاً تصرفاتها العادية ، اللطف ، النضج المبكر للكائن الأكثر حباً عنده في هذا العالم ، والذي يراه لأول مرة منطلقاً على سجيته . فوجىء بالسهولة التي تشق بها طريقها وسط الزحام ، بينما تصطدم غالا بالاسيديا بالمارة باستمرار ، تعلق سلالها بهم ، وعليها أن تجري للحاق بها . تبحر فيرمينا دازا في فوضى الشارع مكللة بهالة من الجو النظيف والزمن المختلف ، دون أن تصطدم بأي كان ، كما الوطواط في الظلمات . لقد ترددت كثيراً على الحي التجاري برفقة العمة اسكولاستيكا ، ولكن من أجل مشتريات يسيرة ، إذ إن والدها يقوم بنفسه بتموين المنزل بالأثاث كما بالطعام وحتى الثياب النسائية . وهكذا بدت انطلاقتها الأولى هذه مغامرة أخاذة سبق أن تخيلتها بشكل

(*) المصمة : من الصمم .

مثالي في أحلام طفولتها .

لم تعر أية إلتفاتة لإلحاح المشعوذين الذين عرضوا عليها شراب الحب الخالد ، ولا لاستعطاء المتسولين المنطرحين تحت الشرفات بجروحهم المتقيحة ، ولا للهندي المزيف الذي حاول أن يبيعها كيماناً أليفاً. سمحت لنفسها القيام بجولة طويلة ودقيقة ، دون هدف محدد . تقوم بوقفات لا مبرر لها سوى التذوق البطيء لروح الأشياء . تدخل تحت كل سقيفة يعرض تحتها شيء للبيع ، وتجد في كل مكان شيئاً يزيد رغبتها في العيش . انتشت بأريج نجيل الهند الذي يزين القماش في الصناديق ، غطت نفسها بالحرير المزين ، ضحكت لضحكها وهي تتأمل نفسها ،بزي غجرية ترتدي «بينيتا»(*) وتحمل مروحة مزينة برسوم الأزهار ، في مرآة في متجر « الألمبر دي أورو » . في محل سمانة يبيع حاجيات تجلب من وراء البحار ، فتحت خابية تحوي سمك الرنكة المملح ، مما ذكرها لياليها وهي لا تزال طفلة صغيرة تقيم في سان ـ جوان دي لاسيينغا عندما تحمل الرياح الشمالية الشرقية رائحة السمك . أذاقوها قصيداً من صنع أليكانتي له مذاق السوس ، فاشترت منه قطعتين من أجل فطور نهار السبت ، إضافة إلى بعض شرائح سمك المور ، وزجاجة ماء الحياة المستخرج من الكشمش . عند بائع التوابل ، ومن أجل التمتع بالرائحة فقط ، ضغطت بقبضتي يديها على أوراق القويسة والمردقوش ، واشترت حفنة من أكباش القرنفل وأخرى من اليانسون الكوكبي الشكل ، وثالثة من الزنجبيل ، وأخرى من ثمرة العرعر ، وخرجت وهي تضحك حتى الدمع لشدة ما عطست بتأثير فلفل « كايين » . وفيما هي تشتري صابون « رويتر » و « لبان جاوة » من العطار الفرنسي ، رشوا خلف أذنها نقطة عطر يماشي الذوق الباريسي لتلك الأيام ، كما أعطوها قرصاً مزيلاً للرائحة يبدد رائحة التبغ .

إنها تلهو في تسوقها ، وهذا صحيح . ولكنها كانت تشتري دون تردد ما تحتاجه بالفعل بتصميم لا يسمح للتفكير بأنها تفعل ذلك لأول مرة لأنها تدرك أن ما تشتريه لنفسها ، تشتريه له أيضاً ، اثنتا عشرة باردة من الكتان شراشف لطاولتهما .

(*) بينيتا : ثوب يرتدى في أميركا اللاتينية .

شراشف من البركال لسرير الزفاف ، يفوح منها عطر دعابتهما عند الفجر ، الأطيب من كل شيء يتذوقانه معاً في بيت الحب . تتسوق وتنتظر، تساوم بلطف ووقار حتى تحصل على أفضل الأسعار ، وتدفع قطعاً ذهبية ، يتحقق منها الباعة فقط من أجل الاستمتاع بسماع رنينها فوق رخام الطاولة

اصطدم فلورنتينو أريزا ، الذي يراقبها مدهوشاً ويلحق بها مقطوع النفس ، مرات عدة بسلال الخادمة ، التي تجيب على اعتذاراته بابتسامة . مرت قريبة منه إلى حد تمكن معه من تنشق أريج عطرها . لم تره ، مرد ذلك لا يعود لعدم تمكنها من رؤيته وإنما لخيلاء مشيتها . بدت له جميلة ، فاتنة ، ومختلفة عن سائر الناس إلى درجة لم يفهم معها لماذا لا يضطرب الآخرون مثله لشدو صناجات كعبي حذائها على بلاط الشارع ، ولماذا لا تعزف القلوب نوبة الاستسلام أمام تنهدات استدارات ثوبها ، ولماذا لا يجن أحد أمام مداعبات شعرها ورشاقة يديها وذهب ضحكتها . لم تفته واحدة من حركاتها ، ولا أية بادرة تنم عن شخصيتها ، ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب خشية أن يدمر الشعور بالامتنان . ومع ذلك فعندما ولجت زحمة « باب الكتاب » أدرك أنه يجازف بإضاعة الفرصة التي تمناها طوال سنوات .

تشارك فيرمينا دازا زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة أن « باب الكتاب » مكان للمجنوح ، وهو بالتالي محظر بكل تأكيد على الفتيات المحتشمات . إنه رواق مقنطر قبالة ساحة صغيرة حيث تقف عربات الأجرة وطنابر نقل البضائع التي تجرها الحمير ، وحيث تصبح التجارة الشعبية أكثر زخماً وأكثر حيوية . يرجع اسمه إلى عهد الاستعمار ، إذ هنا كان يجلس الخطاطون بصمت مرتدين صدرة من الجوخ وأكماماً من الصفيلة*، ويكتبون بناء للطلب كل أنواع المستندات بأسعار زهيدة : مذكرات استرحام ، قرارات اتهام ، مرافعات ، رسائل تهنئة أو تعزية ، بطاقات حب تناسب كل الأعمار . السمعة السيئة لهذا السوق الصاخب لا تعود لهؤلاء ، وإنما تعود لأولئك التجار القليلي الضمير ، الحديثي النعمة ، الذين يبيعون ، تحت الطاولة ، كل الألعاب المشبوهة التي تصل من أوروبا عن طريق التهريب ، من البطاقات البريدية الداعرة والمراهم الواعدة ، إلى الأكياس الواقية الكتلانية الشهيرة ، لبعضها أعراف عظاية تتحرك في الوقت المناسب ، وفي طرف البعض

(*) نسيج صقيل من الحرير أو القطن .

الآخر أزهار تتفتح تويجاتها وفق مشيئة مستخدمها . فيرمينا دازا ، قليلة المعرفة بالشارع ، دخلته دون أن تنتبه بحثاً عن الظل الذي يقيها من شمس الساعة الحادية عشرة التي لا تطاق .

غرقت في الجلبة الصاخبة لماسحي الأحذية وبائعي العصافير ، وبائعي الكتب ، والشافين ، وبائعات الحلوى اللواتي ترتفع أصواتهن فوق الضجيج مناديات على نوغا الأناناس من أجل سوزان ، وحلوى جوز الهند للأولاد ، والسكر الأشقر للمجانين . بدت غير مبالية بالضوضاء ، إذ إنها أسرت على الفور بوراق يقوم بألعاب مدهشة بواسطة أنواع من الحبر السحري . إنه حبر أحمر له لون الدم ، حبر له انعكاسات حزينة للأخبار الجنائزية ، حبر مشبع بالفوسفور يمكن قراءته في الظلام ، حبر غير مرئي يكشف عنه بانعكاسات الضوء . أرادت شراء كل الأنواع لتعبث بفلورونتينو اريزا وترعبه بدهائها ، ولكن بعد عدة تجارب ، اختارت زجاجة صغيرة من الحبر الذهبي . ثم اتجهت بعد ذلك ناحية بائعات الحلوى الجالسات خلف بواقيلهن الزجاجية الكبيرة ، اشترت ست قطع من أصناف الكاتو ، مشيرة من خلف الزجاج إلى كل قطعة ، لأنها لم تتوصل إلى إسماع صوتها وسط الصراخ : ست قطع من شعر الملاك ، ست قطع من الكاراميل بالحليب ، ستة مكعبات سمسمية ، ست كعكات منهوت ، ست عفريتات ، ست ملفوفيات ، ست من لقمة العيش ، ستة من هذا وستة من ذاك ، وضعتها في سلال الخادمة بلطف لا يقاوم ، غير عابئة بدوار غيوم الذباب على المشروبات ، ولا بالفوضى المستمرة ، ولا بنفحات العرق الزنخ المتصاعدة في الحر القاتل . زنجية مرحة ، تضع شالاً ملوناً على رأسها المستدير الجميل ، أخرجتها من افتتانها عندما عرضت عليها مثلث أناناس مغروس على رأس سكين جزار . تناولته ووضعته دفعة واحدة في فمها ، تذوقته ، وكانت ما تزال تتذوقه ، بصرها شارد في الجموع ، عندما ارتجفت في مكانها بتأثير انفعال عنيف . في ظهرها ، وعلى مسافة قريبة جداً من أذنها ، بحيث وسط ذلك الضجيج ، تستطيع وحدها أن تسمع ، سمعت الصوت :

« إنه ليس المكان المناسب لربة متوجة » .

استدارت ، فرأت ، وعلى مسافة سنتيمترين من عينيها ، العينين الجامدتين ، الوجه الداكن ، الشفتين المتحجرتين من الخوف ، تماماً كما رأتها في تدافع قداس منتصف الليل لأول مرة دنا فيها منها مع الفارق أنها لم تشعر هذه المرة بافتتان

الحب وإنما بهوة خيبة الأمل . وخلال ثانية واحدة أدركت حجم الخطأ الذي ارتكبته بحق نفسها وتساءلت بذهول ، كيف استطاعت المحافظة على حرارة حلم كهذا كل تلك المدة ، وبكل تلك التضحيات . بالكاد توصلت أن تفكر : « يا إلهي ، الرجل البائس ! » ابتسم فلورونتينو اريزا ، حاول أن يقول شيئاً ، حاول اللحاق بها ، ولكنها محته من حياتها إلى الأبد بحركة من يدها :

« لا ، أيها السيد ، انتهى كل شيء » .

بعد ظهر اليوم نفسه ، وفيما والدها ينام قيلولته ، أرسلت له مع غالا بالاسيديا رسالة من سطرين : « عندما رأيتك اليوم أدركت أن قصتنا كانت مجرد وهم » . حملت له الخادمة برقياته ، قصائده ، أزهار الكاميليا الجافة ، وطلبت منه إعادة الرسائل والهدايا التي سبق أن بعثت بها إليه : كتاب صلاة العمة اسكولاستيكا ، هياكل الأوراق المجففة ، السنتيمتر المربع من ثوب سان - بيير كلافير ، رسوم القديسين ، ضفيرة شعرها عندما كانت لا تزال في الخامسة عشرة مع الشريط الحريري لزيها المدرسي . في الأيام التي تلت ذلك ، وهو على مشارف الجنون ، كتب لها العديد من رسائل اليأس ، ألح على الخادمة لتقوم بإيصالها ، ولكن هذه تقيدت بالتعليمات الحرفية بألا تقبل منه سوى الهدايا المستعادة . ألحت عليه بإصرار جعل فلورونتينو أريزا يعيد كل شيء باستثناء الضفيرة التي اشترط تسليمها لفيرمينا دازا شخصياً كي يتمكن من التحدث إليها ولو للحظة واحدة . ولكنه لم ينجح في ذلك . خشيت ترانزيتو أريزا أن يقدم ابنها على اتخاذ قرار قاتل ، وضعت كبرياءها جانباً ، وطلبت من فيرمينا دازا أن تمنحها شرف مقابلتها لخمس دقائق . استقبلتها للحظة ، وقوفاً على الباب دون أن تدعوها للدخول ودون ذرة ضعف . بعد مضي يومين ، وفي نهاية مشاجرة مع أمه ، نزع فلورونتينو اريزا عن جدار غرفته علبة الكريستال المغبرة حيث تعرض الضفيرة كذخيرة مقدسة ، وتولت ترانزيتو أريزا بنفسها مهمة وضعها في علبتها المطرزة بخيوط ذهبية . لم تتح لفلورونتينو أريزا الفرصة بعد ذلك أبداً لرؤية فيرمينا دازا بمفردها ، ولا للتحدث معها وجهاً لوجه خلال لقاءاتهما الكثيرة في حياتيهما الطويلتين جداً إلا بعد مضي إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وأربعة أيام ، عندما أكد لها من جديد ، في أول مساء من ترملها التزامه بالوفاء الأبدي والحب الأزلي .

بدا الدكتور جوفينال اربينو ، الذي يبلغ الثامنة والعشرين من العمر، شاباً عازباً مقدراً أكثر من سواه . عاد بعد إقامة طويلة في باريس حيث تابع دراسات عليا في الطب والجراحة . منذ اللحظة التي وضع فيها قدمه على أرض صلبة ، اثبتت طرائقه الناجعة أنه لم يضع دقيقة واحدة من وقته . رجع أكثر تأنقاً مما كان عليه قبل ذهابه ، أكثر تحكماً بطبعه ، وإذا لم يكن يبدو على أي زميل له من أبناء جيله أنه أكثر معرفة وجدية منه ، فإن أياً منهم لا يجيد الرقصات الدارجة بشكل أفضل منه ، كما لا يجاريه في العزف على البيانو . فتيات طبقته الاجتماعية المفتونات بمزاياه الشخصية والواثقات من ثروة عائلته ، يقمن بالقرعة سراً لمعرفة من التي ستفوز بصحبته ، وهذه هي حاله أيضاً . استطاع المحافظة على هذه النعمة فاتناً لا يمس ، إلى أن جاء اليوم الذي استسلم فيه دون مقاومة أمام المفاتن العامية لفيرمينا دازا .

كان يحلو له القول ، أن هذا الحب ثمرة تشخيص طبي خاطىء . ما كان ليصدق هو نفسه أن هذا قد جرى في مرحلة من حياته كان منصرفاً فيها بكل طاقته وعواطفه للاهتمام بمصير مدينته ، التي غالباً ما يقول عنها ، بتأن ودون تفكير ، أنه ما من مدينة توازيها في العالم . في باريس ، وفيما هو يتنزه متأبطاً ذراع خطيبة عارضة ، في يوم خريفي متأخر ، بدا له مستحيلاً تصور سعادة أكثر صفاء من سعادة هذه الأمسيات الذهبية الممزوجة بالرائحة الريفية للكستناء في المجامر وأنغام الأكوردبونات الذابلة والعشاق الذين لا يرتوون ولا يتنهون من العناق في أروقة المقاهي . ومع ذلك فقد قال هو نفسه ، واضعاً يده على قلبه ، إنه لا يستبدل لقاء هذا كله لحظة واحدة من لحظات نيسان في مسقط رأسه الكاريبي . كان لا يزال

حديث السن ليدرك أن ذاكرة القلب تمحو الذكريات السيئة وتزيد الذكريات الحسنة جمالاً ، وأنه بفضل هذه العملية نتوصل إلى تقبل الماضي . ولكن ما إن أبصر من جديد من على ظهر السفينة المعْلم الأبيض للحي القديم ، الكواسر الجاثمة فوق السطوح ، غسيل الفقراء المنشور على الشرفات ليجف ، أدرك إلى أي مدى وقع ضحية سهلة لأحابيل الحنين الخيرة .

شق المركب طريقه في الخليج عبر بقعة عائمة من الحيوانات الغرقى . لجأ معظم المسافرين إلى قمراتهم هرباً من رائحة النتن . نزل الطبيب الشاب سلم السفينة مرتدياً بزة ألبكة مع صدرة ولفافة ولحية مراهقة تشبه لحية باستور ، وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح شاحب ، يجهد في السيطرة على نفسه لإخفاء غصة مردها للرعب لا للأسى . على رصيف المرفأ ، شبه الخالي تقريباً ، والذي يتولى حراسته جنود حفاة لا يرتدون الزي العسكري ، أمه واخواته واصدقاؤه المقربون في انتظاره . لاحظ عليهم الإحباط ، وأنهم دون مستقبل على الرغم من مظهرهم الاجتماعي . يتحدثون عن الأزمة والحرب الأهلية كما لو أنها أمور بعيدة وأجنبية ، ولكن ، في أصواتهم ومآقي عيونهم . جميعاً ، رعشات وظلالاً من الشك ، تفضح كلماتهم . أثارت أمه مشاعره أكثر من الجميع ، امرأة لا تزال فتية ، فرضت نفسها في الحياة بأناقتها وديناميتها الاجتماعية ، إنها تذوي الآن على نار بطيئة في الرائحة المكوفرة(*) لأحجبة ترملها . تعرفت على واقعها في اضطراب ولدها . سارعت تسأله ، وكأنها تحاول الدفاع عن نفسها ، عن سبب امتلاكه لتلك البشرة الشفافة التي تشبه البرافين . قال لها :

« إنها الحياة يا أماه . ففي باريس يغدو لوننا أخضر » .

بعد وقت قليل ، يكاد يختنق من الحر إلى جانبها في العربة المقفلة ، شعر أنه لم يحتمل المزيد من قسوة الواقع الذي يدخل بدفقات كبيرة من النافذة . بدا البحر رمادياً ، قصور النبلاء القديمة تكاد تنهار أمام تكاثر المتسولين . وبدا مستحيلاً تلمس أريج الياسمين الآسر في الأبخرة المميتة للمجارير المكشوفة . بدا له كل

(*) المكوفرة : ممزوجة بالكافور .

شيء أصغر مما كان عليه وقت ذهابه . أعداد الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع وافرة إلى الحد الذي يجفل معه حصانا العربة فزعاً . وعلى الطريق الطويل من المرفأ إلى المنزل في وسط حي الحكام ، لم ير شيئاً جديراً بمشاعر حنينه . أحس بالهزيمة . أدار وجهه كي لا تراه أمه ، وأخذ يبكي بصمت .

القصر القديم للماركيز دي كاسالدبرو ، المقر التاريخي لآل إيربينو دي لاكال ، لم يعد ذلك البناء الذي ينتصب بخيلاء في مواجهة المحن . عرف الدكتور ايربينو ذلك ، وقلبه يتقطع ، مذ عبر الرواق المظلم ، ورأى نوافير ماء الجنينة الداخلية وقد علاها الغبار ، ومذ عاين الخيس في الأرض الموات حيث تمرح العظايات ، ومذ لاحظ أن السلم الرخامي الفسيح ذا الدرابزين النحاسي الذي يقود إلى الغرف الرئيسية فقد عدداً كبيراً من بلاطاته الرخامية ، إضافة إلى تكسر عدد كبير آخر . والده ، طبيب متفان أكثر مما هو طبيب بارز ، قضى أثناء تفشي وباء الكوليرا الذي حصد السكان قبل ست سنوات ، وبموته ماتت الروح في المنزل . دونا بلانكا والدته ، رازحة تحت وطأة حداد أعد ليكون أبدياً ، استبدلت بتساعيات(*) مسائية ، السهرات الوجدانية الشهيرة والحفلات الموسيقية التي كان يقيمها زوجها المتوفى، أختاه ، على الرغم من مواهبهما الطبيعية وطبيعتهما المرحة ، صارتا قرباناً للدير .

ليلة وصوله ، مرعوباً من الظلمة والصمت ، لم يتمكن الدكتور جوفينال ايربينو من إغماض عينيه لحظة واحدة . تلا ثلاث صلوات للروح القدس ، ثم كل الصلوات التي تذكرها ، والتي تبعد الكوارث والغرق وكل المخاطر الكامنة في الليل . وفيما هو يفعل ذلك ، تسلل واق إلى داخل الغرفة من باب أسيء إغلاقه ، أخذ يصدح كل ساعة ، كل ساعة تماماً . صراخ هلوسات المجنونات في مأوى « باستور الإلهي » . القطرة التي لا ترحم للمرشحة الحجرية في الجرة والتي يملأ رجعها كامل المنزل . الخطوات الطويلة للواق التائه في الغرفة . إضافة إلى خوفه الفطري من الظلمة ، والحضور اللامرئي لأبيه الميت في المنزل الفسيح الهاجع ، كلها أمور لم تتوقف عن إزعاجه . عندما صدح الواق الخامسة صباحاً في الوقت نفسه مع ديكة الجوار ، أسلم الدكتور جوفينال ايربينو نفسه وجسده إلى العناية

(*) طقس ديني مسيحي .

الإلهية ، إذ لم يجد لديه شجاعة العيش يوماً آخر في وطنه المهدم . ومع ذلك فإن عاطفة ذويه ، تمضية أيام الآحاد في الريف ، اطراءات فتيات محيطه المفرطة ، عوامل أدت إلى تخفيف مرارة انطباعه الأول . إعتاد شيئاً فشيئاً على حر تشرين الأول ، على الروائح الحادة ، على آراء أصدقائه الفجة ، غداً نرى يا دكتور ، لا تقلق ، وانتهى به الأمر للخضوع أمام السحر الضار للعادة . لم يتأخر في إيجاد تسويغ سهل لانقياده . إنه عالمه، قال في نفسه، عالم كئيب معذب، خصه الله به وعليه أن يهب نفسه له .

أول ما قام به الحلول مكان والده في العيادة . أبقى الأثاث الإنكليزي القاتم المهيب ، الذي تتنهد أخشابه مع برودة الفجر ، في مكانه . ولكنه بعث إلى الشونة بمؤلفات العلوم القديمة والطب الرومانطيقي ، ليضع مكانها في الرفوف ذات الواجهات الزجاجية مؤلفات المدرسة الفرنسية الجديدة . انتزع الرسوم الفاقدة لألوانها مستبقياً صورة طبيب ينازع الموت مريضة عارية ، وقسم ابقراط مطبوع بالحروف القوطية ، وعلق مكانها ، إلى جانب دبلوم أبيه الوحيد ، الشهادات العديدة والمتنوعة التي حصل عليها ، وبأعلى الدرجات ، من مختلف معاهد أوروبا .

حاول أن يفرض أساليب جديدة في « مستشفى الرحمة » ، ولكن الأمر لم يكن بالسهولة التي صورها له اندفاعه الفتي ، لأن بيت الصحة الموغل في القدم يعاند متمسكاً بأوهام موروثة ، من مثل وضع قوائم الأسرة في أوعية مملوءة بالماء للحؤول دون صعود الأمراض إليها ، أو الإصرار على ارتداء ملابس السهرة والقفازات الجلدية في غرفة العمليات، إذ ان الاعتقاد السائد هو أن الأناقة شرط أساسي من شروط التعقيم . لم يستطيعوا احتمال تذوق الشاب الجديد القادم بول المرضى بهدف كشف وجود السكر ، مستشهداً بآراء « شاركو » و « تروسو » كما لو أنهما زميلاه في الغرفة ، ولا احتمال أن يوجه في محاضراته تحذيرات جادة من المخاطر القاتلة للقاحات، بينما هو في المقابل ، يعرب عن يقين ثابت باختراع جديد يدعى تحميلة . إنه يصطدم بكل شيء : فكره المجدد ، مدينته التي بلغت حد الهوس ، عدم رغبته بالمزاح في أرض الفكاهة الدائمة . كل ما يشكل في الواقع مزاياه الأكثر تقديراً ، يثير غيرة زملائه الأكبر سناً وسخرية المرائين ممن هم أصغر سناً منه .

بات الوضع الصحي الخطر للمدينة هاجسه . طالب أعلى السلطات بوجوب ردم البالوعة الإسبانية التي ليست سوى منبت واسع للجرذان ، على أن تحل محلها شبكة مجارير مغلقة لا تصب نفاياتها في خليج السوق كما هي الحال دائماً وإنما في مجمع ناء للنفايات . بيوت العهد الاستعماري الحسنة التجهيز مجهزة بمراحيض عميقة الحفر ، ولكن ثلثي السكان يتغوطون في مخيمات على ضفاف السبخات . يجف البراز تحت وطأة حرارة الشمس متحولاً إلى بخار يتنشقه كل الناس بمتعة فائقة مع صبا كانون الأول البارد والسعيد الحظ . حاول الدكتور جوفينال ايربينو أن يفرض في « الكابيلدو » دورة تأهيل إجبارية ترشد الفقراء إلى كيفية بناء مراحيضهم بأنفسهم . ناضل دون جدوى لمنع رمي القاذورات في السبخات التي باتت منذ قرون مستنقعات للنتن ، على أن تجمع مرتين في الأسبوع لتحرق في مكان مهجور .

أدرك التهديد المميت الذي تشكله مياه الخدمة ، مجرد التفكير بإقامة شبكة مياه ، بدا له ضرباً من الخيال ، لأن من بمقدورهم تنفيذ ذلك يمتلكون آباراً باطنية ، يخزنون فيها ، عاماً بعد عام ، مياه الأمطار تحت طبقة سميكة طحلبية . من بين الأثاث الأكثر قيمة في ذلك الزمان ، الدلاء الخشبية المنقوشة التي ترشح قطرات الماء من مصافيها الحجرية في الجرار ، ليل نهار . وللحؤول دون إقدام أحد على الشرب من إناء الألمنيوم الذي يغرفون به الماء ، سننوا أطرافه كما تاج ملك في أوبريت . الماء رائق وبارد في جوف الفخار ويشي بمذاق الغابة . لكن الدكتور جوفينال ايربينو ما كان ليقع في شرك عملية التنقية هذه . فهو يعرف أنه على الرغم من كل هذه الاحتياطات فإن قعر الجرار محراب لشتى أنواع الحشرات . لقد أمضى ساعات طويلة في طفولته يتأملها باندهاش صوفي تقريباً ، مقتنعاً كالكثير من الناس يومذاك بأن تلك الدوديات المائية أرواح ، مخلوقات فوطبيعية ، تقوم بإغواء الصبايا من قعر رواسب المياه الراكدة وأنها قادرة على القيام بأقسى انتقامات الحب . كان لا يزال طفلاً عندما رأى الخراب الذي أصاب منزل لازاراكوند ، مربية تجرأت على طرد الأرواح . رأى تناثر قطع الزجاج في الشارع ، وكمية الحجارة التي رشقت بها نوافذها ثلاثة أيام بلياليها . مر زمن طويل قبل أن يعرف أن دويدات الماء ليست في الحقيقة سوى يرقات الذباب ، ولم ينس هذا بعد

ذلك أبداً ، لأنه عرف أن كثيراً من الأرواح المضرة الأخرى تستطيع أن تعبر معها بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة .

لقد عزي فتق الخصية ، خلال زمن طويل ، وبكل فخر واعتزاز إلى مياه الآبار ، هذا الفتق الذي يصبر على احتمال آلامه عدد كبير من رجالات المدينة ليس دون خجل فحسب وإنما بشيء من الوقاحة الوطنية . عندما كان جوفينال ايربينو يذهب إلى المدرسة الابتدائية ، لم يكن يستطيع إخفاء خلجة رعب لدى رؤيته المصابين بالفتق جالسين على عتبات منازلهم ، بعد ظهر أيام القيظ ، يهوون خصيتهم الكبيرة كأنها طفل نائم بين أرجلهم . ويقال أن الفتق يغرد كعصفور حزين خلال الليالي العاصفة ، ويتلوى بألم لا يطاق عندما يحرقون قربه ريش الكواسر ، ولكن لا أحد يشكو من المحن ، لأن ضخامة يمكن حملها ، تتقدم لتكون ، قبل كل شيء ، عنواناً للرجولة . عندما عاد الدكتور جوفينال ايربينو من أوروبا ، كان يدرك جيداً أن هذه المعتقدات خداع علمي ولكنها متجذرة في الأوهام المحلية إلى حد أن كثيرين عارضوا إغناء مياه الآبار بالمعادن خشية أن تفقد شرف التسبب بخصية مبجلة .

أولى الدكتور جوفينال ايربينو الاهتمام نفسه ، الذي أولاه لتلوث المياه ، للوضع الصحي في السوق العام . أرض فسيحة أمام خليج « النفوس » حيث ترسو سفن الأنتيل الشراعية . رحالة مشهور ، في ذلك الزمن ، وصفه بأنه أحد أكثر الأسواق اختلاطاً في العالم . إنه غني بالفعل ، ومفرط في الحيوية ، ولكنه بدون أدنى شك أكثر الأسواق إثارة للمخاوف . يرتاح فوق مزبلته الخاصة تحت رحمة أهواء البحر المرتفع ، الذي يقذف إلى البر كل القذارات العامة ، كما ترمى هنا فضلات المسلخ المجاور ، رؤوس مقطوعة ، أمعاء متعفنة ، روث الحيوانات الطافي في بركة من الدماء من شروق الشمس إلى غروبها . تتنازع الكواسر كل هذا مع الجرذان والكلاب في معارك دائمة بالقرب من الطرائد اللذيذة القادمة من « ستوفانتو » والمعلقة على أفاريز الخيم ، وبالقرب من خضار « أرجونا » الربيعية المعروضة فوق حصر على الأرض . أراد الدكتور جوفينال ايربينو أن يجعل المكان صحياً . أن ينقل المسلخ إلى مكان آخر . وأن يبني سوقاً جديداً مغطى بالقبب الزجاجية يشبه ذلك السوق الذي رآه في أسواق برشلونة القديمة حيث المؤن زاهية

ونظيفة إلى حد أن أكلها يعتبر أمراً مؤسفاً . ولكن أكثر أصدقائه مجاملة رثوا لمشاعره الواهمة . هكذا كانوا ، يمضون حياتهم بالمباهاة بأنسابهم ، بالأمجاد التاريخية للمدينة ، بثمن رفاتها ، ببطولتها وجمالها ، دون أن يروا ما فعلته بها السنون . في المقابل ، أحبها الدكتور جوفينال ايربينو إلى درجة رؤيتها بعين الحقيقية . قال :

« ينبغي أن تكون هذه المدينة نبيلة حقاً ، فمنذ أربعمئة سنة نعمل جاهدين للقضاء عليها دون أن نتوصل إلى ذلك حتى الآن » .

ومع ذلك لم يعد ينقصهم إلا القليل . فوباء الكوليرا الرهيب الذي سقطت أولى ضحاياه في سبخات السوق تسبب في أحد عشر أسبوعاً بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا . حتى ذلك الوقت يجري دفن بعض الأشخاص البارزين تحت بلاطات الكنيسة، والآخرين الأقل غنى يجري دفنهم في حدائق الأديرة ، ويتم دفن الفقراء في المقبرة الضخمة الواقعة على رابية معرضة للرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة ، كتب حفراً على عقد جسرها الملاطي بناء لأوامر عمدة مستنير : lasciate ogni speranza voi ch'entrate . بعد أسبوعين من انتشار الوباء ، امتلأت المقبرة ، ولم يعد هناك مكان واحد في الكنائس ، رغم أنهم نقلوا الرفات المتآكل لعدد كبير من المرموقين إلى الحفرة الجماعية . أبخرة مدافن الكنائس غير المحكمة الإغلاق أفسدت هواء الكاتدرائية التي لم تعد إلى فتح أبوابها إلا بعد مضي ثلاث سنوات في الوقت الذي رأت فيه فيرمينا دازا لأول مرة فلورونتينو أريزا عن قرب في قداس منتصف الليل . امتلأ رواق دير سانتا كلارا ، وكذلك ممراته التي امتلأت في نهاية الأسبوع الثالث . وهكذا بات ضرورياً أن يصار إلى تحويل بستان الدير ، الذي تبلغ مساحته ضعف مساحة الرواق ، إلى مقبرة . قاموا بحفر قبور عميقة لدفن الموتى على ثلاثة مستويات ، بسرعة ودون توابيت . ولكن ما لبثوا أن أقلعوا عن ذلك لأن الأرض المتخمة تحولت إلى ما يشبه الأسفنجة التي ترشح تحت وطء الأقدام عصيراً أحمر مثيراً للقيء . قرروا عند ذلك متابعة عمليات الدفن في « يد الله » ، وهي مزرعة لتربية المواشي على بعد فرسخ من المدينة ، صدر مرسوم في ما بعد كرسها مقبرة كونية .

منذ الإعلان عن ظهور وباء الكوليرا ، يطلقون من حصن الحامية المحلية طلقة

مدفع كل ربع ساعة ، في الليل كما في النهار ، خاضعين بذلك للاعتقاد المدني أن البارود ينقي الهواء . كانت الكوليرا أشد فتكاً وسط السكان الزنوج باعتبارهم الأكثر عدداً والأشد فقراً . لم يتم التوصل أبداً إلى معرفة عدد ضحاياها ، لا لأن ذلك أمر متعذر وإنما لأن الحياء في مواجهة مصائبنا يعتبر من أبرز فضائلنا المعتادة .

كان الدكتور ماركو اوريليو ايربينو ، والد جوفينال ، واحداً من أبطال تلك الأيام المشؤومة ، كما كان في الوقت ذاته واحداً من أبرز ضحاياها . بقرار رسمي ، نظم وقاد بنفسه الخطة الصحية للمواجهة ، وانتهى به الأمر للتدخل في كل القضايا ذات البعد الاجتماعي إلى الحد الذي بات معه في أدق مراحل الوباء الحرجة ، يتمتع بسلطة أعلى من كل سلطة . بعد العديد من السنين ، وفيما هو يقرأ وقائع تلك الأيام ، لاحظ الدكتور جوفينال ايربينو ، أن طريقة أبيه تستند إلى الرحمة أكثر مما تستند إلى العلم ، وأنها في كثير من تفاصيلها تعارض المنطق وأنها ساهمت إلى حد كبير في استفحال الوباء . لاحظ ذلك بعاطفة الأبناء الذين حولتهم الحياة شيئاً فشيئاً إلى آباء لآبائهم ، ولأول مرة تألم لأنه لم يكن برفقته في عزلة أخطائه . ولكنه لم يجرده من مناقبه : مثابرته ، إنكاره لذاته ، وخاصة شجاعته الشخصية ، صفات جعلته جديراً بمظاهر التكريم الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من وطأة الكارثة ، وحل اسمه بكل جدارة بين أسماء أبطال آخرين خاضوا حروباً أخرى أقل مجداً .

لم يعش ليرى مجده . وعندما أحس بالاضطرابات التي لا شفاء منها ، والتي سبق أن عاينها وأشفق لرؤيتها عند الآخرين ، لم يحاول الدخول في معركة خاسرة ، إنزوى عن الناس كي لا ينقل العدوى إلى أحد . حبس نفسه في غرفة من غرف الخدمة في مستشفى الرحمة ، يعير أذناً صماء لنداءات زملائه وتوسلات أفراد أسرته . غير عابىء برعب المصابين المحتضرين في الممرات المكتظة ، كتب لزوجته وأبنائه رسالة حب محموم يشكر لهم فيها وجودهم ، كما تكشف مقدار حبه وتعطشه للحياة . إنها وداع من عشرين صفحة ، يكشف اضطراب كتابتها مدى تطور الألم ، ولم يكن من داع لمعرفة من كتبها لإدراك أن توقيعها تم مع لفظ النفس الأخير . وبناء لوصيته دفنت الجثة الرمادية اللون في المقبرة العامة بين الذين

أحب دون أن يراه أحد .

تلقى الدكتور جوفينال ايربينو البرقية في باريس بعد مضي ثلاثة أيام على الوفاة فيما هو يتناول طعام العشاء مع أصدقائه . قال : « لقد كان رجلاً صالحاً » . بعد ذلك لام نفسه لقلة نضجه : لقد تهرب من مواجهة الحقيقة حتى لا يبكي . ولكن بعد مضي ثلاثة أسابيع تلقى نسخة عن رسالة المتوفى ، وكان عليه أن يواجه الحقيقة . بدت له فجأة حقيقة ذلك الرجل الذي عرفه أكثر من أي كان ، الذي رباه وعلمه ، والذي نام وضاجع والدته طوال اثني وثلاثين سنة ، والذي مع ذلك ، لم يبد على حقيقته جسداً وروحاً قبل هذه الرسالة ، لا لشيء إلا لمجرد الحياء . حتى ذلك الحين ، ينظر الدكتور جوفينال ايربينو وأفراد أسرته إلى الموت على أنه حادث لا يقع إلا للآخرين ، لأهل الآخرين ، لأخوة وأزواج الآخرين ، ولكن ليس لهم . لقد كانوا يعيشون طويلاً ، لا يرون أنفسهم عجزة ولا مرضى ولا متوفين ، وإنما يتلاشون شيئاً فشيئاً عندما تحين الساعة . يتحولون ذكرى ، ضباباً لزمن آخر ، إلى أن يحتويهم النسيان . أكثر من البرقية التي حملت النبأ السيء ، رسالة أبيه المتوفى جعلته يدرك حقيقة الموت . ومع ذلك فإن واحدة من أقدم ذكرياته ، وهو في التاسعة ، أو ربما في الحادية عشرة ، كانت بطريقة ما مؤشراً سابقاً لأوانه إلى الموت ، تمت من خلال أبيه . كانا في عيادة المنزل بعد ظهر يوم ممطر ، وهو يقوم برسم القبرات ودوار الشمس بالطباشير الملونة على البلاط ، والده يقرأ بعكس الضوء أمام النافذة وقد حل أزرار صدرته ووضع على كمي قميصه واقيات مطاطية . فجأة انصرف عن القراءة ليحك ظهره بمحك طويل الذراع ينتهي طرفه بيد فضية . عندما لم يتوصل إلى القيام بذلك كما ينبغي ، طلب من ابنه أن يحك له ظهره بأظافره . إعترى هذا الأخير شعور غريب إذ لم يحس بجسد والده وهو يحكه . في نهاية الأمر قال له والده وهو ينظر إليه من فوق كتفه بابتسامة حزينة :

« لو مت الآن فإنك بالكاد تتذكرني عندما تصبح في مثل سني » .

قال ذلك دون سبب ظاهر . حوم ملاك الموت برهة في الظل البارد للعيادة قبل أن ينصرف من النافذة مخلفاً وراءه ثلماً من الريش لم يبصره الطفل . مضى ما يزيد

على عشرين سنة على هذه الحادثة ، وقريباً سيبلغ جوفينال ايربينو السن الذي كان عليه أبوه بعد ظهر ذلك اليوم . يعرف أنه يشبه والده ، ونتيجة وعيه لذلك أضيف الآن وعيه المقلق أنه هو أيضاً سيفنى مثله .

باتت الكوليرا هاجساً لديه . لم يكن يعرف عنها أكثر مما تعلمه بشكل روتيني في إحدى المواد المقررة ، وبدا له من غير المعقول أن تكون ـ قبل أقل من ثلاثين سنة ـ قد حصدت في فرنسا ، وحتى في باريس ، ما يزيد على مئة وأربعين ألف ضحية . ولكن بعد وفاة والده تعلم كل ما يمكن تعلمه حول الأنواع المختلفة للكوليرا ، بما يشبه التكفير عن الذنب ليهدىء ذاكرته ، وصار طالباً عند أبرز عالم في علم الأوبئة في عصره أدريان بروست ، مخترع الأحزمة الصحية ووالد الروائي الكبير . وهكذا ما إن عاد إلى وطنه ، وتنشق رائحة النتانة المنبعثة من السوق وهو لا يزال في البحر ، وشاهد الجرذان في المزابل العامة ، والأطفال العراة يتمرغون في السبخات ، حتى أدرك سبب وقوع الكارثة ، وبات على يقين من إمكان تجدد وقوعها في أية لحظة .

لم يمض على ذلك وقت طويل . بعد أقل من سنة ، طلب منه طلابه في مستشفى الرحمة المساعدة في الكشف على مريض في إحدى القاعات العامة تغطي جسده بقع زرقاء غريبة . ما إن رأى الدكتور جوفينال ايربينو المريض من على عتبة الباب حتى عرف الخصم . ولكن الحظ كان حليفهم : فالمريض قد وصل لثلاثة أيام خلت على متن سفينة قادمة من كيراساو ، وقد قدم بنفسه لإجراء معاينة طبية في المستشفى ، وهناك احتمال قليل في كونه نقل العدوى إلى أحد . على كل حال ، قام الدكتور جوفينال ايربينو بإبلاغ زملائه ، طلب من السلطات تحذير المرافىء المجاورة من أجل تحديد هوية السفينة الموبوءة وتنفيذ الحجر الصحي عليها ، وكان عليه أن يهدىء قائد الحامية الذي أراد إعلان حال الطوارىء ، والمبادرة دون إبطاء إلى تطبيق العلاج بإطلاق قذيفة مدفعية كل ربع ساعة . قال له برفق :

« وفر هذا البارود إلى اليوم الذي يصل فيه الليبيراليون . لم نعد في القرون الوسطى » .

توفي المريض بعد أربعة أيام مخنوقاً بتقيؤ حبيبي أبيض ، ولكن لم يسجل

ظهور أية إصابة في الأسابيع التالية مع أن حال الاستنفار استمرت قائمة . بعد مضي وقت قليل نشرت « جريدة التجارة » خبراً مفاده ان طفلين قضيا بالكوليرا في مكانين مختلفين في المدينة . ثبت أن أحدهما توفي بالزنطاريا الشائعة ، والثاني ، طفلة صغيرة يبدو أنها بالفعل قضت بالكوليرا . تم عزل أهلها واخوتها الثلاثة ، وضعوا جميعاً في الحجر الصحي ، كما وضع الحي بكامله تحت إشراف طبي دقيق . تم إنقاذ أحد الأطفال الذي أصيب بالداء بسرعة ، وعادت الأسرة إلى منزلها بعد أن زال كابوس الخطر. تم تسجيل إحدى عشرة إصابة خلال ثلاثة أشهر ، في الشهر الخامس اعتبرت مخاطر تفشي الوباء أمراً مستبعداً . لم يخالج أحد الشك أن صرامة التدابير الصحية التي اتخذها الدكتور جوفينال ابربينو ، والتي كانت أكثر فعالية من سليم إرشاداته ، جعلت تحقيق المعجزة أمراً ممكناً . منذ ذلك الحين ، وإلى وقت متقدم في هذا القرن ، استمرت الكوليرا داء متوطناً في المدينة ، كما في كل ساحل الكاريبي ، وفي حوض نهر ماجدالينا ، ولكنها لم تتفاقم بشكل تحولت معه إلى وباء . أفادت حال الاستنفار كي تؤخذ تحذيرات الدكتور جوفينال ابربينو بمزيد من الجدية من قبل السلطات العامة . فرضت في معهد الطب مادة إجبارية تتعلق بالكوليرا والحمى الصفراء . عرفت الضرورة الماسة لإغلاق المجارير وإقامة سوق بعيد عن مكب النفايات . ومع ذلك فإن الدكتور ابربينو لم يكن مشغول البال بعيش انتصاره ، ولا بالاستمرار في أداء رسالته الاجتماعية ، فهو مهيض الجناح ، قلق ، شارد اللب ، وعلى استعداد أن يبدل وأن ينسى كل ما في حياته مما هو غير مرتبط بحبه الصاعق لفيرمينا دازا .

وبالفعل فإن هذا الحب ثمرة تشخيص طبي خاطىء . طبيب صديق ظن أنه اكتشف بداية أعراض الكوليرا لدى مريضة في الثامنة عشرة من العمر ، طلب من الدكتور جوفينال ابربينو المرور لمعاينتها . فعل ذلك بعد ظهر اليوم نفسه ، وهو قلق من دخول المرض إلى محراب المدينة القديمة ، إذ ان كل الحالات التي أعلن عنها حتى ذلك الحين كانت في الأحياء الهامشية ، وتكاد تكون جميعاً بين السكان الزنوج . وجد بانتظاره مفاجآت أكثر جحوداً . يبدو المنزل الغارق تحت ظلال أشجار لوز حديقة الأناجيل ، من الخارج ، أكثر خراباً من كل تلك المنازل الواقعة في نطاق المدينة القديمة . ولكن يسيطر في الداخل جمال ونور مدهش يعودان إلى

عصر آخر من عصور هذا العالم . يفضي رواق المدخل إلى جنينة من الطراز الإشبيلي . إنه مربع وحديث الطلاء بالجير ، فيه أشجار ليمون مزهرة وأرض مبلطة ببلاط الجدران نفسه . يسمع خرير ماء جار لا مرئي ، وترى أصص قرنفل على الأفاريز ، وأقفاص عصافير نادرة معلقة في قناطر الرواق . أكثرها غرابة ثلاثة غربان معطرة تملأ الجنينة برائحة عطر ملتبس عندما ترفرف بأجنحتها . أخذت عدة كلاب مربوطة بالنباح فجأة عندما أثارتها رائحة الغريب ، ولكن صرخة امرأة اسكتتها على الفور . قفزت أعداد من القطط من كل الجهات لتختبىء بين الأزهار مذعورة من سطوة الصوت . عندها خيم صمت شفاف ، سمع من خلال فوضى العصافير وصدى الماء على الحجر نفس البحر الحزين .

مضطرباً من الحضور المادي لله ، فكر الدكتور جوفينال ابربينو ان منزلاً كهذا بمنأى عن كل مرض . تبع غالا بالاسيديا تحت الرواق المقنطر ، مر أمام نافذة غرفة الخياطة ، المكان الذي رأى فيه فلورونتينو أريزا فيرمينا دازا لأول مرة عندما كانت الجنينة لا تزال كومة من الأنقاض ، صعد الدرج الرخامي الجديد إلى الطابق الثاني ، وانتظر ان تعلن الخادمة قدومه قبل أن يدخل غرفة المريض . ولكن غالا بالاسيديا عادت لتقول :

« تقول الآنسة أنه لا يمكنك الدخول الآن لأن والدها ليس في المنزل » .

وهكذا عاد ثانية في الخامسة وفق ما أشارت عليه الخادمة . قام لورنزو دازا شخصياً بفتح الباب الخارجي وقاده إلى غرفة ابنته . بقي جالساً في ظل ركن من الغرفة طوال وقت المعاينة مكتوف الذراعين ، يبذل جهوداً في محاولة عابثة لإخفاء أنفاسه المتسارعة . لم يكن سهلاً معرفة أيهما أكثر ارتباكاً ، الطبيب بلمساته الخفرة أو المريضة بحياء العذراء في قميص نومها الحريري . لم ينظر أي واحد منهما في عيني الآخر ، يطرح عليها أسئلة بلهجة موضوعية تجيب عليها بلهجة مضطربة ، ينتبه الواحد منهما كما الآخر إلى الرجل الجالس في الظل . وأخيراً طلب الدكتور جوفينال ابربينو من المريضة أن تجلس ، فتح قميص نومها بعناية فائقة : النهدان رائعان ، لم يمسا ، لهما لعوتان طفوليتان ، توهجا لحظة كإشعاع في عتمة المخدع قبل أن تسرع إلى سترهما بتكتيف ذراعيها . رابط الجأش ، أزاح الطبيب

الذراعين ، دون أن ينظر اليها ، بدأ إجراء فحص مباشر ، أذنه على جسمها ، الصدر أولاً ثم الظهر بعد ذلك .

إعتاد الدكتور جوفينال ايربينو القول إنه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى وفاته . إنه يتذكر قميص النوم الأزرق المطرز بالدانتيل ، العينين المضطربتين ، الشعر الطويل المنسدل على الكتفين . ولكنه كان منصرف الذهن إلى اقتحام المرض للحي القديم إلى حد لم يعر معه أية التفاتة الى كل ما لدى فيرمينا دازا من تفتح المراهقة ليهتم فقط بتلمس أدنى دلالة على وجود الوباء . هي أكثر صراحة : بدا لها الطبيب الشاب متحذلقاً عاجزاً عن حب أي شخص آخر سوى نفسه . أفاد التشخيص أنها مصابة بالتهاب سببه تناولها أحد الأطعمة ، وقد زال هذا الالتهاب بفضل معالجة تمت في المنزل مدة ثلاثة أيام . مرتاحاً إلى الجزم بأن ابنته غير مصابة بالكوليرا ، رافق لورنزو دازا الطبيب جوفينال ايربينو حتى مرقاة عربته نقده البيزو الذهبي مقابل الزيارة ، سعر مرتفع حتى لطبيب يعالج الأغنياء . ودعه وهو غاية في الامتنان . كما بدا مفتوناً ببريق ألقابه ولم يحاول إخفاء ذلك ، وكان على استعداد للقيام بأي شيء كي يلتقيه ثانية في مناسبات أخرى أقل اهتماماً بالرسميات .

كان يمكن للأمر أن يتوقف عند هذا الحد . ولكن نهار الثلاثاء من الأسبوع التالي ، ودون استدعاء من أحد ، ودون إعلان مسبق عن ذلك ، رجع الدكتور ثانية إلى المنزل في الساعة الثالثة بعد الظهر ، فترة من النهار غير مناسبة بتاتاً للقيام بزيارة . فيرمينا دازا في غرفة الخياطة تتلقى درساً في الرسم الزيتي مع صديقتين لها ، عندما ظهر على النافذة مرتدياً معطفه الناصع البياض ومعتمراً قبعة بيضاء أيضاً ، أشار إليها كي تقترب . وضعت مضربها على الكرسي واتجهت نحو النافذة وهي تمشي على رؤوس أصابع قدميها ، رافعة دوائر ثوبها حتى عرقوبيها لتحول دون أن يسحب على الأرض . كانت تضع شريطة ذات منجد يتدلى على جبهتها ، يشع فصه بلون عينيها الفتاكتين ، كل ما فيها يوحي بالنضارة . استرعى انتباه الطبيب أنها ترتدي لترسم في منزلها كما لو أنها ذاهبة إلى احتفال . جس نبضها من الجهة الثانية للنافذة ، أمر أن تخرج لسانها ، فحص حنجرتها بواسطة مِلْوَق من الألمينيوم ، نظر داخل جفنها الأسفل ، وفي كل مرة تصدر عنه علامة ارتياح . بدا

أقل ارتباكاً من الزيارة السابقة ، أما هي فعلى العكس من ذلك ، بدت أكثر ارتباكاً لأنها لم تفهم سبب هذه المعاينة غير المتوقعة ، إذ سبق له هو نفسه أن قال إنه لن يرجع إلا إذا استدعي من أجل جديد يطرأ . أكثر من ذلك : لم تكن ترغب في رؤيته أبداً من جديد . عندما انتهى من فحصها ، وضع الملوق في حقيبته المتخمة بالأدوات وزجاجات الأدوية وأغلقها بضربية جامدة ، وقال لها :

ـ أنت كوردة تفتحت للتو .

ـ شكراً

ـ ينبغي توجيه الشكر لله ـ قال لها ـ واستشهد بسان توماس بشكل غير دقيق : ان كل ما هو خير ، من أي مصدرٍ أتى ، إنما هو صادر عن الروح القدس . أتحبين الموسيقى ؟

طرح عليها السؤال بابتسامة ساحرة ، وبلهجة مرحة ، ولكنها لم تكلف نفسها عناء الإجابة .

« لماذا هذا السؤال » ؟ سألته بدورها .

ـ أجاب « الموسيقى مفيدة للصحة » .

إنه يؤمن بذلك فعلاً ، وسوف تعرف بسرعة طوال حياتها ، أن الموسيقى معنى ، أشبه ما يكون بمعادلة سحرية ، يستخدمه للإعراب عن صداقته ، ولكن فيرمينا دازا ظنت في تلك اللحظة أنه يسخر منها . ومما زاد الطين بلة أن صديقتيها ، اللتين تظاهرتا بأنهما ترسمان فيما هما يتحدثان عبر النافذة ، أفلتت منهن ضحكات صغيرة ، وخبأتا وجهيهما بقماش الرسم ، مما أثار حنق فيرمينا دازا ، أعماها الغضب ، أقفلت النافذة بقوة . حاول الطبيب المرتبك ، الواقف أمام تخريمات مصراعي النافذة ، أن يجد طريقه نحو باب المدخل ولكنه ضل الاتجاه . مضطرباً ، اصطدم بقفص الغربان المعطرة . أطلق هؤلاء نعيقاً مشؤوماً ، وخفقوا بأجنحتهم من الرعب ، فتضمخت ثياب الطبيب بعطر نسائي مدوخ . صوت لورنزو دازا الراعد سمرها في مكانها :

« دكتور ، انتظرني هنا » .

رآه من الطابق الأخير ، نزل السلم وهو يعقد أزرار قميصه ، حسن الهندام ،

موردا ، سوالفه الطويلة مشعثة بتأثير الحلم السيء الذي أبصره خلال قيلولته .

حاول الطبيب إخفاء انزعاجه :

ـ لقد قلت لابنتك أنها تشبه الوردة .

ـ هذا صحيح ـ قال لورنزو دازا ـ ولكنها كثيرة الأشواك .

مر قرب الدكتور ايربينو دون أن يحييه ، أبعد ما بين مصراعي نافذة غرفة الخياطة ، وأمر ابنته مطلقاً صرخة متوحش :

« تعالي واعتذري من الدكتور » .

حاول الطبيب المواربة ليمنعه من ذلك ، ولكنه لم يكن يسمعه . أصر : « أسرعي » . نظرت إلى صديقتها تلتمس سراً تفهمهما . أجابت والدها أنه لا داعي للاعتذار إذ إنها أقفلت النافذة للحؤول دون دخول الشمس . حاول الدكتور ايربينو تأييد أقوالها ولكن لورنزو دازا أصر على موقعه . عند ذلك اتجهت فيرمينا دازا إلى النافذة شاحبة من الغضب ، مدت قدمها اليمنى إلى الأمام ، رفعت ثوبها بأطراف أصابعها ، وانحنت أمام الطبيب انحناءة مسرحية ، قائلة :

« أتقدم منك بأقصى اعتذاراتي يا مولاي » .

جاراها الدكتور جوفينال ايربينو بطيبة خاطر إذ حياها بقبعته كما يفعل الفرسان ، ولكنه لم يحظ بابتسامة حنان توقعها . إثر ذلك ، دعاه لورنزو دازا إلى مكتبه لتناول قهوة المصالحة ، قبل الدعوة ممتناً كي لا يدع أي مجال للشك أنه بقي في نفسه ظل لضغينة .

وواقع الحال ، أن الدكتور جوفينال ايربينو لا يشرب من القهوة سوى فنجان واحد قبل تناول أي طعام ، ولا يشرب من الكحول أيضاً سوى كأس من النبيذ في المناسبات الرسمية . ولكن بما أنه لم يكن منزعجاً من تناول القهوة التي قدمها له لورنزو دازا فقد وافق أيضاً على تناول كأس صغير من خمرة اليانسون. ثم قبل قهوة أخرى وكأساً آخر ثم ثالثاً ورابعاً أيضاً على الرغم من أن عليه القيام بمعاينات أخرى . أصغى بادىء الأمر باهتمام إلى الاعتذارات الي استمر لورنزو دازا في تقديمها نيابة عن ابنته التي وصفها بأنها طفلة ذكية ورصينة ، تستحق أميراً من هنا أو من مكان آخر ، ولكن عيبها الوحيد ، حسب رأيه ، أنها عنيدة كما البغلة . بعد

تناول الكأس الثاني خال أنه يسمع صوت فيرمينا دازا في عمق الجنينة ، ودار خياله في أثرها ، يلاحقها في الليل الهابط على المنزل فيما هي تضيء الرواق وترش الغرف بمبيد الحشرات ، ترفع الغطاء عن قدر الحساء فوق الموقد حيث تطبخ الحساء الذي ستتناوله مع أبيها هذا المساء . هي وهو وحيدان على المائدة ، لا يتبادلان النظرات ، لا يقومان بأية ضجة وهما يبتلعان الطعام ، حتى لا يقطعان سحر الضغينة ، إلى أن يستسلم الأب ويأتي لطلب الغفران عن قساوته بعد ظهر ذلك اليوم .

يعرف الدكتور ايربينو النساء معرفة كافية تجعله يدرك أنها لن تدخل المكتب ما لم ينصرف ، ولكنه تأخر بالانصراف لأنه شعر أن كبرياءه الجريح لن يدعه يعيش بسلام إثر الإهانة التي تلقاها بعد الظهر . لورنزو دازا ، شبه ثمل تقريباً ، لم يبد عليه أنه لاحظ قلة احتفاله به لأنه متشدق جموح ، يكتفي بنفسه . يتكلم بقفزات سريعة ، يمضغ سيجاره المطفأ ، يعطس عالياً وقوياً ، يتنحنح ، يتلوى في مقعده كما لو أنه حيوان منزعج من الحر . مقابل كل كأس يقدمه لضيفه يشرب هو ثلاثة . لم يتوقف إلا عندما لاحظ أن الواحد منهما لم يعد يرى الآخر ، فقام لإنارة المصباح . حدق الدكتور جوفينال ايربينو في وجهه تحت نور الضوء الجديد ، رأى أن له عيناً مائلة كعين السمكة ، وأن كلماته لا تتناسب وحركة شفتيه ، فظن أنه ضحية الهلوسات لإسرافه في تناول الكحول . عند ذلك ، قام يسيطر عليه إحساس أخاذ أنه داخل جسد ليس جسده وإنما جسد إنسان آخر بقي جالساً على مقعده . وكان عليه أن يبذل جهداً كبيراً حتى لا يفقد عقله .

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يتقدمه لورنزو دازا . القمر بدر . الجنينة التي جعلتها خمرة اليانسون مثالية بدت عائمة وسط حويض، والأقفاص المغطاة بالقماش بدت أشباحاً نائمة في الأريج الدافىء لأزهار أشجار الليمون . نافذة غرفة الخياطة مفتوحة ، ومصباح مضاء على طاولة العمل ، واللوحات غير المكتملة معلقة على الحمالات كما لو أنها في معرض . « أين أنتِ يا من ليست هنا ؟ » ، قال الدكتور ايربينو أثناء مروره. ولكن فيرمينا دازا لم تسمعه ، ولم يكن بمقدورها أن تسمعه ، ذلك لأنها في غرفتها تبكي من الغضب ، مستلقية على سريرها تنتظر أباها لتجعله يدفع ثمن إذلاله لها بعد ظهر ذلك اليوم .

لم يتخل الطبيب عن حلم وداعها ، ولكن لورنزو دازا لم يعرض عليه ذلك . فكر بحنين ببراءة نبضها ، بلسانها الذي يشبه لسان هرة ، بلوزتيها الرقيقتين ، وذعر لفكرة أنها لا تريد رؤيته أبداً بعد الآن ، وأنها لن تسمح له بالدنو منها . عندما دخل لورنزو دازا الرواق ، أطلقت الغربان ، التي استيقظت ، من تحت الشراشف نعياً مدوياً مشؤوماً : « يا تلميذة الغربان ، سوف يقلعون عينيكِ » ، قال الطبيب بصوت عال وهو يفكر بها ، التفت لورنزودازا ناحيته وسأله عما قال فأجابه :

« لست أنا من قال ، إنها خمرة اليانسون »

رافقه لورنزو دازا إلى العربة ، وأراد أن يدفع له البيزو الذهبي لقاء الزيارة الثانية ولكنه رفض . أعطى تعليمات صحيحة للحوذي ليأخذه إلى المريضين الآخرين اللذين بقي عليه أن يعودهما ، وصعد دون مساعدة أحد إلى العربة . ضايقه ارتجاج العربة فوق الطريق المبلط فأمر الحوذي بتغيير الطريق . تأمل نفسه لحظة في مرآة العربة ، فلاحظ أن صورته هي الأخرى تفكر بفيرمينا دازا . هز كتفيه . وأخيراً ، تجشأ ، حنى رأسه على صدره وغفا . وفي منامه سمع الأجراس تقرع قرعة الحزن ، سمع أولاً أجراس الكاتدرائية ، ثم أجراس كل الكنائس ، الواحدة تلو الأخرى بما في ذلك الشقف المكسرة لكنيسة « سان جوليان لي بوفر » . تمتم قائلاً :

« تفه ، هكذا إذن ، مات الموتى » .

كانت أمه وشقيقتاه يتناولن عشاء من القهوة بالحليب مع فطائر من الجبن على طاولة المآدب في قاعة الطعام الكبرى عندما أبصرنه يطل من الباب مرتعد الوجه ، مخزياً من رأسه حتى قدميه بعطر الموموس الذي نفثه الغربان . استمر ناقوس الكاتدرائية يرن في النطاق الفسيح للمنزل . سألته أمه مذعورة أين كان ، لأنهم بحثوا عنه في كل موضع كي يذهب لعلاج الجنرال إينياسيو ماريا آخر أحفاد الماركيز جاربر دي لافيرا الذي توفي باحتقان في الدماغ ما بعد ظهر اليوم : من أجله تقرع الأجراس حزناً . أنصت الدكتور جوفينال ايربينو إلى أمه دون أن يسمعها وهو يستند إلى إطار الباب ، ثم استدار نصف دورة حول نفسه محاولاً الوصول إلى غرفته ، ولكنه انهار وسط انفجار قيء من خمر اليانسون الكوكبي الشكل . صرخت

أمه قائلة :

« أيها اللطيف يسوع ، لا بد أن أمراً غريباً قد جرى كي تعود إلى المنزل على هذه الحال » .

ومع ذلك ، فإن الحادث الأكثر غرابة لم يكن قد وقع بعد . أفاد من زيارة عازف البيانو روميو لبسيك الذي عزف مجموعة مقطوعات لموزار بعد أن انتهى حداد المدينة على الجنرال إينياسيو ماريا . قام الدكتور جوفينال ايربينو بنقل بيانو معهد الموسيقى على عربة تجرها البغال وقدم لفيرمينا دازا سيرينادا بقي محفوراً في سجلات المدينة . أفاقت مع الأنغام الأولى ، ولم تحتج للإطلال من الشرفة كي تعرف صاحب هذا التكريم الوقح . الشيء الوحيد الذي أسفت له هو أنها لا تمتلك شجاعة الفتيات الأخريات اللواتي يعبرن عن استيائهن بإفراغ المبولة على رأس العاشق غير المرغوب فيه . لورنزو دازا له موقف مختلف ، ارتدى ثيابه على عجل أثناء عزف السيرناد، وما كاد ينتهي العزف حتى دعا الدكتور جوفينال ايربينو وعازف البيانو وهما بثياب السهرة للدخول إلى قاعة الاستقبال ليشكرهما ويقدم لهما كأساً من الكونياك الجيد .

أدركت فيرمينا دازا على الفور أن والدها يحاول تليين موقفها . في اليوم الذي تلا السيرناد قال لها كما لو أن ذلك مجرد صدفة : « تصوري ما هو شعور أمك لو أنها عرفت أن أحد أفراد أسرة ايربينو دي لاكال يسعى لخطب ودك » . ردت قوله فوراً : « سوف تعود إلى قبرها » . صديقتاها اللتان تدرسان الرسم معها أخبرتاها أن لورنزو دازا دعي إلى تناول الغداء في « النادي الاجتماعي » من قبل الدكتور جوفينال ايربينو ، وأن هذا الأخير تعرض للوم شديد لمخالفته الأنظمة المعمول بها . عند ذلك فقط ، عرفت أيضاً أن أباها حاول في مناسبات عدة الانضمام إلى النادي الاجتماعي ، وأن طلبه رفض في كل مرة بأغلبية من أوراق الاقتراع السوداء سدت السبل أمام أية محاولة جديدة . ومع ذلك ، فإن لورنزو دازا ابتلع الإهانات بكبد سكير عتيق واستمر بختلق المناسبات بكل الوسائل ليلتقي جوفينال ايربينو وكأن الأمر صدفة ، دون أن يلاحظ أن جوفينال ايربينو هو الذي يبذل المستحيل للقاء به . يمضيان أحياناً عدة ساعات في المكتب ، في الوقت الذي يبدو فيه

المنزل وكأنه معلق في الزمن ، لأن فيرمينا دازا لا تسمح لشيء أن يستمر في الحياة إلا بعدَ انصرافه . بدا مقهى « البارواس » مكاناً محايداً ملائماً . هنا أخذ لورنزو دازا يعلم جوفينال ايربينو أولى مبادىء الشطرنج ، وصار هذا الأخير تلميذاً مثابراً إلى حد باتت معه هذه اللعبة هوى لا شفاء منه يعذبه حتى يوم مماته .

ذات مساء ، بعد مضي وقت قليل على سيريناد البيانو ، عثر لورنزو دازا في مدخل المنزل على رسالة موجهة لابنته ، يحمل مغلفها الأحرف الأولى التالية : ج . إ . ك . مختومة بالشمع . دسها تحت الباب أثناء مروره أمام غرفة ابنته التي لم تستطع معرفة كيفية وصول الرسالة إلى غرفتها ، إذ بدا لها من غير المعقول أن يكون والدها قد تغير إلى الحد الذي ينقل فيه إليها رسالة من طالب زواج . وضعتها فوق طاولة زينتها دون أن تدري كيف تواجه الموقف ، تركتها هناك دون أن تفتحها طوال أيام عدة . ما بعد ظهر يوم ممطر حلمت أن جوفينال ايربينو قدم إليها ليهديها الملوقة التي فحص حنجرتها بواسطتها ، ولكن ملوقة الحلم لم تكن من الألمنيوم وإنما من معدن آخر يفتح الشهية ، تذوقته بلذة في أحلام أخرى ، وقد قسمته إلى قسمين غير متساويين وأهدته القسم الأصغر .

ما إن استيقظت حتى فتحت الرسالة . إنها موجزة وواضحة . الشيء الوحيد الذي يلتمسه الدكتور جوفينال ايربينو منها أن تسمح له بطلب إذن والدها لزيارتها . هزتها البساطة والجدية ، وفجأة خمد الغضب الذي تعهده الحب . وضعت الرسالة في علبة غير معدة للاستعمال في قعر الصندوق ، ولكنها تذكرت أنها سبقت أن وضعت هناك رسائل فلورونتينو أريزا المعطرة ، فانتزعتها من هناك وقد اعترتها رعشة خجل ، ووضعتها في مكان آخر . عندها ، بدا لها أن السلوك الأكثر حشمة هو أن تتصرف وكأن الرسالة لم تصل ، فأحرقتها بلهب المصباح وهي تتأمل تبخر قطرات الشمع في فقاعات زرقاء فوق اللهب . تنهدت : « رجل بائس » . انتبهت فجأة أن هذه هي المرة الثانية التي تتفوه فيها بهذه الكلمات في فترة تزيد قليلاً على السنة ، وللحظة تذكرت فلورونتينو أريزا ، وفوجئت كم أنه بات بعيداً عن حياتها : رجل بائس .

في تشرين الأول ، ومع الأمطار الأخيرة ، وصلتها ثلاث رسائل أخرى ، مع

الرسالة الأولى علبة صغيرة من محلى(*) بنفسجي من دير فلافيني . قام سائق عربة الدكتور جوفينال ايربينو بوضع اثنتين أمام مدخل المنزل ، وحيا الدكتور نفسه غالا بالاصيديا من نافذة العربة ، كي لا يشك أحد بأن الرسائل ليست منه من جهة ، وكي لا يزعم أحد بأن الرسائل لم تصل من جهة ثانية . إضافة إلى أن الرسالتين مختومتان بخاتم الشمع نفسه ومكتوبتان بكتابة رفيعة مخربشة مرموزة : خط طبيب تعرفه فيرمينا دازا . تعبر جميعها في الجوهر عما عبرت عنه الرسالة الأولى ، كما أنها صيغت بالنفس اللين ذاته ، ولكن أخذت تبزغ لهفة من أعماق حشمته لم تكن أبداً جلية في الرسائل المقترة لفلورونتينو أريزا . قرأتهما فيرمينا دازا فور استلامهما ، بفارق اسبوعين بينهما ، ودون أن تستطيع تفسير ذلك لنفسها ، أحجمت عن إلقائهما في النار عندما كانت تهم بذلك . على كل حال لم تفكر أبداً بالرد عليهما .

الرسالة الثالثة التي وصلت في شهر تشرين الأول ، دست تحت باب المدخل ، وتختلف كلياً عن سابقاتها . الخط رديء إلى الحد الذي يمكن الجزم معه بأنها كتبت باليد اليسرى . ولكن فيرمينا دازا لم تلاحظ ذلك إلا عندما أظهر لها المضمون أنها رسالة غادرة من مجهول . تؤكد صاحبتها أن فيرمينا دازا قد تمكنت من إيقاع الدكتور جوفينال ايربينو في شباكها ، لتستخلص من هذه الفرضية استنتاجات مشؤومة . تنهي الرسالة بتهديد : إذا لم تتخل فيرمينا دازا عن طموحاتها بالارتفاع على حساب الرجل الأبرز في المدينة فإنها ستعرض نفسها لفضيحة عامة .

أحست أنها ضحية ظلم فظيع ، ولكن ردة فعلها لم تكن حاقدة : على العكس ، أرادت التعرف على كاتب الرسالة بهدف إقناعه بخطئه بكل الوسائل الممكنة، لأنها كانت واثقة بأنها ليست في وارد التجاوب أبداً ولا في أي وقت من الأوقات مع عروضات الدكتور جوفينال إيربينو . تلقت في الأيام التي تلت رسالتين أخريين غير موقعتين ، أكثر لؤماً من الأولى ، ولكن ولا واحدة من الرسائل الثلاث كتبها الشخص نفسه . وسواء أكانت ضحية مؤامرة أم أن التأويلات الخاطئة لغرامياتها السرية قد ذهبت أبعد مما هو مفترض ، فإن مجرد اعتبار ما يحدث نتيجة

(*) مُحلى : أقراص ذات حلاوة معطرة وتكون مستديرة عادة .

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEEN

عدم محافظة جوفينال ايربينو على كتمان السر أخذ يقلقها . ظنت أنه مغاير لما يوحي به مظهره من وقار ، وأنه ربما قد أطال لسانه خلال زياراته متبجحاً بانتصارات وهمية كما يفعل الكثيرون من أمثاله . فكرت أن تكتب اليه تعاتبه بسبب تعريضها لسوء السمعة ، ولكنها صرفت النظر عن ذلك ، فهذا ما يتمناه دون شك . حاولت أن تستقصي الأخبار من صديقتيها في درس الرسم ، ولكن هاتين الأخيرتين لم تسمعا سوى بالتعليقات على سيريناد البيانو . بدت غاضبة . شعرت بالإهانة والعجز . وبينما كانت أول الأمر ترغب في لقاء العدو الخفي لإقناعه بأنه مخطىء ، باتت تريد الآن تقطيعه بمقص تقليم الأشجار . أمضت ليالي في تحليل تفاصيل وعبارات الرسائل المغفلة علها تعثر على أثر ينير لها السبيل . عبثاً : فيرمينا دازا غريبة بطبعها عن عالم أسرة ايربينو دي لاكال ، وهي تمتلك أسلحة تقيها أعمالهم الحميدة ، أما أعمالهم السيئة فلا قدرة لها على مواجهتها .

ازدادت مرارة هذه القناعة بعد الرعب الذي أوحت لها به الدمية السوداء التي وصلتها بعد بضعة أيام، دون رسالة، والتي بدا لها سهلاً تصور مصدرها: وحده الدكتور جوفينال ايربينو يمكن أن يكون المرسل . بالاستناد إلى بطاقة المنشأ لقد اشتريت من المارتينيك ، ترتدي ثوباً لطيفاً ، شعرها مجعد ومزين بخيوط مذهبة ، تغمض عينيها عندما تحنى . رأتها فيرمينا دازا مسلية إلى الحد الذي تجاوزت معه وساوسها ، وأخذت تنام معها ، خلال النهار ، واضعة إياها على مخدتها ، ثم ما لبثت أن اعتادت النوم معها . بعد مدة من الزمن ، استيقظت ذات يوم إثر حلم مزعج لترى أن الدمية قد كبرت : الثياب الأصلية الجميلة التي قدمت معها كشفت عن فخذيها ، كما تمزق الحذاء بسبب ضغط القدمين . سبق لفيرمينا دازا أن سمعت كلاماً حول رقيات سحرية إفريقية مؤذية ، ولكن ليس أكثر رعباً من هذه . في المقابل ، لم تستطع أن تتصور أن رجلاً مثل جوفينال ايربينو يقدم على ارتكاب فظاعة كهذه . إنها على حق : فالدمية لم يأت بها الحوذي وإنما بائع سمك متستر لا أحد يملك عنه أية معلومات . حاولت حل اللغز . فكرت فيرمينا دازا للحظة بفلورونتينو اريزا الذي تثير سوداويته فزعها ولكن الحياة تكفلت بإقناعها بأنها مخطئة . لم ينكشف لها هذا السر أبداً ، مجرد استحضاره يجعلها ترتجف رعباً

حتى بعد مضي زمن طويل على زواجها وإنجابها واعتقادها بأنها محظوظة : إنها الأكثر سعادة .

آخر محاولات الدكتور جوفينال ايربينو كانت تكليف الأخت فرانكادي لاليز رئيسة مدرسة « تقدمة العذراء البالغة القداسة » القيام بالوساطة ، والتي لا تستطيع أن ترفض تقديم خدمة لأسرة دافعت عن طائفتها مذ أقامت هذه الطائفة في بلاد أميركا . وصلت في التاسعة صباحاً برفقة مترهبنة ، وكان على الإثنتين البقاء نصف ساعة برفقة أقفاص العصافير ، الوقت الذي استغرقته فيرمينا دازا لإعداد زينتها . الأخت فرانكادي لاليز ألمانية مسترجلة ، ذات لهجة رنانة ونظرة آمرة ، أمور لا تتفق وعواطفها الطفولية . ما من شيء في العالم تكرهه فيرمينا دازا أكثر منها ومما يحيط بها ، ومجرد تذكر تقواها الكاذبة يولد في أحشائها قرقرة العقارب . مجرد رؤيتها لها من باب غرفة الاستحمام بدت كافية كي تعيش من جديد ، ودفعة واحدة ، عقوبات المدرسة ، الرتابة التي لا تحتمل للقداس اليومي ، رعب الامتحانات ، ملاحقة المترهبنات الدنيئة ، حيث أفسدت الحياة بكل مظاهرها بمنشور الجدب الفكري . في المقابل ، حينها الأخت فرانكادي لاليز بفرح بدا صادقاً ، فوجئت بنموها ونضجها ، أثنت   على حسن ادارتها للمنزل ، الذوق الحسن في ترتيب الجنينة ، حوض أزهار الليمون . أمرت المترهبنة أن تنتظرها هنا دون أن تقترب كثيراً من الغربان الذين قد يقتلعون عينيها على حين غفلة ، وسألت عن مكان هادىء تتحدث فيه وجهاً لوجه مع فيرمينا دازا . دعتها هذه الأخيرة للدخول إلى الصالون .

إنها زيارة قصيرة ومريرة . ودون أن تضيع وقتها في المقدمات ، عرضت الأخت فرانكا دي لاليز على فيرمينا دازا رد اعتبار مشرف . سيُمحى سبب الطرد من الملفات ، ومن ذاكرة الطائفة ، مما يتيح لها أن تكمل دراستها وتحصل على البكالوريا الأدبية . فيرمينا دازا محتارة أرادت معرفة السبب . قالت الأخت :

« إنه طلب إنسان يستحق كل شيء ورغبته الوحيدة أن يسعدك . هل تعرفين من هو ؟ » .

عندها فهمت كل شيء . تساءلت ، بموجب أية سلطة تقدم امرأة أفسدت حياتها بسبب رسالة بريئة على القيام بدور رسول غرام ، ولكنها لم تجرؤ على قول

هذا . ولكنها قالت ، في المقابل ، أجل ، إنها تعرف الرجل المعني ، وانطلاقاً من هذه المعرفة بالذات لا يحق له التدخل في حياتها . قالت الأخت :

« إنه يرجو أن تسمحي له بالتحدث معك لمدة خمس دقائق ، هذا كل ما يرجوه . أنا واثقة أن أباك سيوافق على ذلك » .

ازداد حنق فيرمينا دازا لمجرد التفكير بأن والدها متواطىء في هذه الزيارة . قالت :

« لقد سبق أن تقابلنا مرتين أثناء مرضي ، أما الآن فلا داعي لذلك » .

ـ قالت الأخت : إن أية امرأة تمتلك ذرتين من الفهم تعرف أن هذا الرجل هبة من السماء » .

استمرت في الكلام على فضائله ، على تفانية وتضحياته في سبيل مساعدة المعذبين . وفيما هي تتكلم ، أخرجت من كمها مسبحة ذهبية يعلوها تمثال عاجي للسيد المسيح ، وعرضتها أمام ناظري فيرمينا دازا . إنها من ذخائر العائلة ، عمرها يزيد على مئة سنة ، صنعها صائغ من « سيين » وباركها كليمان الرابع ، « إنها لك » . قالت الراهبة .

احست فيرمينا دازا بسيل من الدماء يغلي في عروقها ، وعندما تجرأت ، قالت :

« لم استطع ان أفهم كيف تقومين بعمل كهذا ، ما دام الحب خطيئة بنظرك » .

تظاهرت الأخت فرانكا دي لاليز بأنها لم تسمع الإهانة ، ولكن التهب جفناها ، استمرت في تحريك المسبحة على مرأى من فيرمينا دازا . قالت لها :

« من الأفضل أن تتفاهمي معي وإلا فإن المطران سوف يأتي ، ومعه سيكون الأمر مختلفاً » .

قالت فيرمينا دازا : « ليأت » .

خبأت الأخت فرانكا دي لالوز المسبحة الذهبية في كمها وأخرجت من الآخر منديلاً فاقد الرونق ملفوفاً بشكل كروي شدته بقبضة يدها وهي تتأمل فيرمينا دازا من بعيد جداً بابتسامة مشفقة . قالت :

« مسكينة يا ابنتي ، ما زلت تفكرين بذلك الرجل » .

اجترت فيرمينا دازا الوقاحة ، ونظرت إلى الراهبة دون أن يرف لها جفن ، نظرت إلى عينيها مباشرة دون أن تنبس ببنت شفة مستمرة في الاجترار بصمت إلى أن رأت بتلذذ لا يوصف عينيها الرجوليتين تغرورقان بالدموع . مسحت الأخت فرانكا دي لالوز دموعها بمنديل لف كالكرة ونهضت قائلة :

« والدك على حق عندما يقول أن لك رأس بغلة » .

لم يأت المطران. القرار كان سيتخذ في ذلك اليوم لو لم تصل هيلديبراندا سانشيز لتمضية عطلة الميلاد مع ابنة عمتها . لقد انقلبت حياتهما . استقبلاها لدى وصول السفينة القادمة من ريوهاشا في الخامسة صباحاً ، بدت مشعة ظاهرة الأنوثة ، مشوشة الذهن بفعل الليلة المرهقة للرحلة وسط جمهور من المسافرين يحتضرون من دوار البحر . حملت معها سلالاً ملأى بالدجاج الرومي الحي ، وبكل أنواع الثمار التي تنبت في بساتينها الزاهرة، بشكل لا ينقص الطعام أحد طوال فترة إقامتها . ليسيماكو سانشيز ، والدها ، يسأل عما إذا كانوا بحاجة إلى موسيقيين من أجل الاحتفالات إذ أن لديه أفضلهم ، وعد أن يرسل في فترة قريبة لاحقة شحنة من الألعاب النارية . كما أخبر أنه لا يستطيع القدوم لأخذ إبنته قبل حلول شهر آذار القادم مما يعني أن لديهما متسعاً من الوقت يمضيانه معاً .

لم تضيعا دقيقة واحدة . استحمتا معاً منذ المساء الأول ، تفحصان بعضهما بماء الدلو . تعاونتا على صوبنة جسديهما ، على التفلية ، قارنتا الأرداف والنهود الجامدة، تنظر واحدتهن في مرآة الأخرى بهدف معرفة القساوة التي عاملهما بها الزمن منذ أن التقيتا لآخر مرة . هيلديبراندا ضخمة ، ذهبية البشرة ، زغب جسدها زغب خلاسية ، قصير ومجعد كالطحلب . في المقابل ، تمتلك فيرمينا دازا عرياً لبني اللون ، جانبية طويلة ، بشرة صافية وزغباً ناعماً . وضعت غالا بلاسيديا سريرين متشابهين في الغرفة ، أحياناً تنامان معاً في السرير نفسه ، تطفئان النور وتتحدثان حتى الفجر . تدخنان سيكارات هافانية كتلك التي يدخنها قطاع الطرق ، تخفيها هيلديبراندا في القعر المزدوج لحقيبتها ، وكان عليها إثر ذلك إحراق أوراق أرمينيا للتخلص من رائحة التبغ التي تعبق في الغرفة . لقد دخنت

فيرمينا دازا لأول مرة في « فالديبار » واستمرت على ذلك في فونسيكا وفي ريوهاشا حيث تجمعت عشر قريبات في غرفة للتحدث عن الرجال والتدخين في الخفاء . تعلمت التدخين بالمقلوب ، النار داخل الفم ، كما يدخن الرجال في ليالي الحرب حتى لا تكشفهم نار السيجار . ولكنها لم تدخن أبداً بمفردها .

مع هيلدبيراندا بضيافتها ، تدخن فيرمينا دازا كل مساء قبل أن تنام ، ومنذ ذلك الوقت اكتسبت عادة التدخين ، على الرغم من استمرارها في الإقدام على ذلك خفية حتى عن زوجها وولديها . إذ لم يكن من المستحسن أن تدخن المرأة علناً هذا من جهة ، ولاقتران متعة التدخين عندها بالسرية من جهة ثانية .

رحلة هيلدبيراندا هي الأخرى ، فرضت عليها من قبل ذويها في محاولة لإبعادها عن حبها المستحيل ، على الرغم من دفعها إلى الاعتقاد أن الغاية هي مساعدة فيرمينا دازا على اختيار الطريق الصواب . وافقت هيلدبيراندا على أمل خداع النسيان كما فعلت ابنة عمتها في السابق ، اتفقت مع عامل التلغراف في فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى درجة من الكتمان ، ولهذا السبب أصيبت بخيبة مريرة عندما عرفت أن فيرمينا دازا قد تخلت عن فلورونتينو أريزا . إضافة إلى أن هيلدبيراندا تمتلك تصوراً كونياً للحب ، وتعتقد أن ما يحدث لمخلوق يؤثر على أوضاع كل العشاق في العالم . ومع ذلك لم تتخل عن مخططها وبشجاعة أثارت المخاوف لدى فيرمينا دازا ، مضت وحيدة.إلى مكتب التلغراف مصممة على الإفادة من خدمات فلورونتينو أريزا .

لم تتوصل إلى التعرف إليه، إذ لم يكن يشبه بشيء الصورة التي رسمتها له من خلال فيرمينا دازا . منذ النظرة الأولى بدا لها مستحيلاً أن تكون ابنة عمتها أوشكت أن تجن من أجل هذا المستخدم المغمور ، الذي يبدو ككلب مضروب ، بهندام حاخام منكوب وحركات احتفالية لا يمكن أن يخفق لها قلب أحد . ولكن سرعان ما ندمت على انطباعها الأول ، لأن فلورونتينو أريزا وضع نفسه بتصرفها دون شروط ، ودون أن يعرف من تكون : لم يعرف ذلك أبداً . لم يكن أحد مثله قادراً على فهم ظروفها ، إلى حد أنه لم يطلب التعرف على هويتها ولا على عنوانها . الحل في منتهى البساطة : تمر بعد ظهر كل يوم اربعاء إلى مكتب

التلغراف ويسلمها الجواب يداً بيد ، هذا كل شيء . فضلاً عن ذلك ، عندما قرأ الرسالة التي كتبتها هيلدبيراندا سألها عما إذا كانت تقبل اقتراحاً ، فأجابت بالموافقة . كتب فلورونتينو أريزا ، أول الأمر ، بضع تعديلات بين السطور ، محاها ، أعاد كتابتها ، ثم مزق الورقة في النهاية ليكتب رسالة أخرى بديلة ، رأتها هيلدبيراندا مؤثرة . انصرفت من مكتب التلغراف تكاد تبكي . قالت لفيرمينا دازا :

« إنه قبيح وكئيب . ولكن كله حب » .

أكثر ما أثار ذهول هيلدبيراندا هو عزلة ابنة عمتها . قالت لها إنها تبدو كعانس في سن العشرين . هيلدبيراندا المعتادة على عشيرة كثيرة العدد وواسعة الانتشار ، وعلى بيوت تصعب معرفة عدد المقيمين فيها ، أو الذين يتناولون الطعام على موائدها كل يوم ، تعجز عن تصور فتاة في مثل سنها تحبس نفسها في الحياة الخاصة . ومع ذلك إنه الواقع : فبين اللحظة التي تنهض فيها من النوم ، في السادسة صباحاً ، وبين اللحظة التي تطفىء فيها النور في غرفتها، تخصص فيرمينا دازا وقتها لإضاعته . تفرض الحياة عليها من الخارج ، يأتي أولاً بائع الحليب ، يوقظها وهو يقرع الباب مع آخر صياح الديكة . ثم بائعة السمك البارغوس المحتضر على فراش من الطحلب، العبيدات القديمات الباذخات ينادين على خضار ماريا لاباجا وثمار سان جاسينتو . بعد ذلك لا يتوقف قرع الباب طوال النهار . المتسولون ، بائعات التامبولا من أجل راهبات الإحسان ، المجلخ وشبابته ، مشتري القناني ، مشتري الذهب المكسر ، مشتري ورق الصحف ، الغجريات المزيفات لكشف البخت بواسطة الورق وخطوط اليد وفنجان القهوة وماء الدست . تمضي غالا بالاسيديا الأسبوع في فتح وإغلاق الباب وهي تقول لا ، عد في يوم آخر أو بالصراخ من الشرفة بمزاج سيىء قائلة، هذا يكفي ، تباً له من مساء ، لسنا بحاجة إلى شيء . لقد حلت محل العمة اسكولاستيكا بكثير من الاندفاع والكثير من اللطف ، إلى حد أن فيرمينا دازا تعاملها على أنها هي ، وتكن لها العاطفة نفسها . إنها مسكونة بهواجس العبيد . ما إن تجد وقت فراغ لديها حتى تنصرف إلى غرفة المشغل لتكوي الثياب البيضاء تدعها في أفضل حال ، ترتبها في الخزائن بين أزهار الخزامى ، ولا تكتفي بكوي وطي الثياب التي أنهت غسيلها فقط ، فهي تكوي وتطوي تلك التي فقدت رونقها ولم تعد قيد الاستعمال . حرصت على

الاحتفاظ بملابس فيرمينا سانشيز ، والدة فيرمينا دازا ، التي توفيت قبل أربع عشرة سنة . ولكن فيرمينا دازا هي من يتخذ القرارات ، تعطي تعليماتها فيما يتعلق بوجبات الطعام ، بالسوق ، بكل ما ينبغي القيام به ، وهكذا تدير حياة منزل لا تكلفها في الواقع بذل أي عناء . إذ عندما تنتهي من تنظيف الأقفاص ، وتقديم الطعام للعصافير ، وتتأكد من أن الأزهار ليست بحاجة لشيء ، تصبح عاطلة عن العمل . وكم من المرات حدث لها ، بعد طردها من المدرسة ، أن نامت من ساعة القيلولة إلى صبيحة اليوم التالي . دروس الرسم لم تكن سوى طريقة أكثر تسلية لإضاعة الوقت .

منذ رحيل العمة اسكولاستيكا إلى المنفى ، تفتقر علاقاتها مع أبيها إلى العاطفة ، على الرغم من توصل الطرفين إلى إيجاد صيغة ملائمة للعيش معاً دون انزعاج . عندما تستفيق من نومها يكون قد خرج لملاحقة أعماله . نادراً ما يتخلف عن مراسم الغداء ، على الرغم من كونه لا يتناول أي طعام في الغالب ، إذ ان المقبلات والمشهيات الإسبانية التي تقدم في مقهى « الباروواس » تكفيه . وهو لا يتعشى أيضاً : تضع له عشاءه على الطاولة ، في طبق يغطيه آخر ، مع معرفتها أنه لن يأكله مسخناً إلا صبيحة اليوم التالي أثناء تناوله طعام الفطور . يعطي ابنته نفقة المنزل مرة في الأسبوع ، يحسب المبلغ جيداً ، تتولى إنفاقه بصرامة ، ولكنه يوافق بكل طيبة خاطر على كل طلب تبديه حول نفقة غير متوقعة . لم يساومها على قرش أبداً ، ولم يسألها عن حساب ، ولكنها كانت تتصرف دائماً كما لو أنها ستمثل أمام محكمة التفتيش . لم يحدثها أبداً حول طبيعة وأحوال أعماله ، ولم يصطحبها لزيارة مكاتبه في المرفأ الواقعة في حي محظّر دخوله على الفتيات المحتشمات وإن برفقة آبائهن . لا يعود لورنزو دازا إلى منزله قبل العاشرة مساء ، ساعة حظر التجول في الأوقات غير الحرجة للحرب . يبقى في مقهى « الباروواس » يلعب بأي شيء ، فهو اختصائي في كل الألعاب ، إضافة إلى كونه استاذاً جيداً . يعود دائماً صافي الذهن ، دون أن يوقظ ابنته ، رغم تناوله أول كأس من خمرة اليانسون فور استيقاظه ، ورغم استمراره في مضغ طرف سيجاره وشربه من هنا وهناك طوال النهار . ومع ذلك ، وذات مساء ، أحست فيرمينا دازا عودته . شعرت خطواته الكوزاكية على السلم ، وبنفسه الضخم في ممر الطابق الثاني ، ضربات قبضة يده

على باب غرفتها . فتحت له ، ولأول مرة خافت عينه المائلة وتغثغة كلماته . قال :

« لقد أفلسنا ، أفلسنا نهائياً . هل تفهمين » ؟.

كان هذا كل ما قاله ، ولم يعد إلى الإشارة إليه أبداً . لم يحدث ما يدل على أنه قال الحقيقة ، ولكن في تلك الليلة ، أدركت فيرمينا دازا أنها وحيدة في هذا العالم . تعيش حياة هامشية . تقيم زميلاتها القدامى في المدرسة في سماء محظرة عليها منذ وصمة طردها ، جيرانها لا يتعاملن معها كجارة لأنهم عرفوها وهي بالزي المدرسي لمدرسة تقدمة العذراء البالغة القداسة وهم يجهلون ماضيها . أما عالم أبيها فهو عالم التجار المهربين ومتعهدي شحن البضائع ولاجئي الحرب في الوكر العام لمقهى « الباروواس » ، عالم للرجال فقط . في السنة الماضية ، خففت دروس الرسم من عزلتها ، إذ فضلت المعلمة دروساً جماعية ، اصطحبت معها تلميذات أخريات إلى غرفة الخياطة . ولكنهن فتيات ينتمين إلى فئات اجتماعية مختلفة يصعب تحديدها ، ولم يكنّ بالنسبة لفيرمينا دازا سوى صديقات مؤقتات تزول عاطفتها تجاههن مع انتهاء الدرس . أرادت هيلدبيراندا فتح المنزل ، تهويته ، استدعاء الموسيقيين ، المفرقعات ، ألعاب أبيها النارية ، إقامة حفل راقص مقنع تودي عاصفته الهوجاء بالفكر السقيم لابنة عمتها ، ولكنها لم تتأخر كي تدرك أن لا جدوى من مخططاتها ، وذلك لسبب غاية في البساطة : ما من أحد توجه اليه الدعوة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هي من أعادتها إلى الحياة . بعد الظهر إثر درس الرسم ، أخذت تتجول في الشارع للتعرف على المدينة . أرتها فيرمينا دازا الطريق الذي كانت تعبره كل يوم برفقة العمة اسكولاستيكا ، المقعد في الجنينة حيث كان يتظاهر فلورونتينو أريزا بالقراءة فيما هو ينتظرها ، الأزقة حيث تبعها ، مخابىء الرسائل ، القصر الذي كان في ما مضى سجن سانت ـ أوفيس والذي أعيد ترميمه ليتحول إلى مدرسة « تقدمة العذراء البالغة القداسة » التي تمقتها من كل قلبها . تسلقتا أعلى رابية مقبرة الفقراء حيث كان يقوم فلورونتينو أريزا بالعزف على الكمان وفق اتجاه الريح كي تتمكن من سماعه وهي في فراشها . ومن تلك الأعالي تأملتا كامل المدينة التاريخية ، غماءاتها التالفة ، جدرانها المتآكلة ، أطلال

قلاعها وسط الأجمات ، سلسلة الجزر في الخليج ، الأكواخ البائسة حول السبخات ، والكاريبي الواسع .

في ليلة الميلاد ، ذهبنا إلى قداس منتصف الليل في الكاتدرائية . جلست فيرمينا دازا في المقعد الذي احتلته في ما مضى كي تسمع مناجاة فلورونتينو أريزا الموسيقية وحددت بدقة لابنة خالها الموضع الذي ، في ليلة مشابهة ، رأت فيه ، لأول مرة عن قرب ، عينيه المضطربتين . جازفتا بالذهاب بمفردهما إلى باب الكتبة ، اشترتا الحلوى ، تسلتا في دكان الأوراق المموهة ، وبينت فيرمينا دازا لابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة أن حبها لم يكن سوى سراب . لم تنتبه إلى أن كل خطوة خطتها بين البيت والمدرسة ، كل زاوية في المدينة ، كل لحظة من ماضيها القريب ، لم يكن له معنى إلا بفضل فلورونتينو أريزا . لفتت هيلدبراندا نظرها إلى ذلك ، ولكنها لم تشاطرها الرأي لأنها لم تتقبل أبداً المسلمة القائلة بأن فلورونتينو أريزا ، بطريقة ما ، كان كل ما حدث لها في هذه الحياة .

وصل ، في تلك الفترة ، مصور بلجيكي أقام ستوديو في أعالي باب الكتبة . كل المقتدرين على دفع أجرته أفادوا من المناسبة ليتصوروا عنده . فيرمينا وهيلدبراندا بين الأوائل. أفرغتا خزانة فيرمينا سانشيز ، تقاسمتا أزهى الفساتين والمظلات ، أحذية السهرة والقبعات ، وارتدتا الزي النسائي لمنتصف القرن . ساعدتهما غالا بالاسيديا في ربط المشدات ، علمتها كيفية التحرك داخل الهياكل الحديدية للقرينول(*)، طريقة لبس القفازات ،وربط أزرار الأحذية العالية الكعب . اختارت هيلدبراندا قبعة مزينة بريش نعام يتدلى على الكتفين . فضلت فيرمينا دازا واحدة أكثر حداثة مزينة بفواكه من الجص الملون وأزهار من الكتان . وأخيراً سخرتا من نفسيهما عندما أبصرتا في المرآة أنهما تشبهان الصورة الداكيرية لجدتيهما . شعرتا بالسعادة ، تكادان تموتان من الضحك ، باتتا جاهزتين لالتقاط صورة العمر . رأتهما غالابالاسيديا من أعلى الشرفة تعبران الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما ، محاولات الحفاظ على توازنهن على كعوب أحذيتهن العالية ، يدفعن القرينول بكل قوتهن كما لو أنه عربة أطفال ، دعت لهن بالتوفيق للنجاح في التقاط الصورة .

(*) قرينول : قماش قطني يابس لتبطين الثياب .

الوضع مضطرب أمام ستديو البلجيكي ، إذ يتم تصوير بيتي سانتينو الذي فاز في ذلك الوقت ببطولة الملاكمة في باناما . إنه يرتدي بنطال الملاكمة والقفازات ، ويضع تاجاً على رأسه . لم يكن تصويره بالأمر السهل إذ عليه أن يبقى في وضع الهجوم طوال دقيقة مكتفياً بالحد الأدنى من التنفس ، ولكنه لم يستطع مقاومة إغراء إظهار براعته ليرضي أنصاره ، الذين ينفجرون بالهتاف والتصفيق ما إن يتخذ وضع الاحتراس . عندما جاء دور القريبتين ، كانت السماء قد تلبدت بالغيوم ، وبات هطول المطر أمراً مرجحاً ، ولكنهما سمحتا بوضع النشاء على وجهيهما ، واستندتا بكثير من الطبيعية إلى عمود رخامي حيث توصلتا إلى البقاء جامدتين مدة بدا أنها أطول مما ينبغي . إنها صورة أزلية . عندما توفيت هيلدبراندا في مزرعتها « فلوريس دي ماريا » عثر على نسخة منها في خزانة مقفلة في غرفتها وقد خبئت بين طيات الشراشف المعطرة بالقرب من حكمة محفورة داخل رسالة محتها السنون . احتفظت فيرمينا دازا بنسختها طوال سنين في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي حتى ذلك اليوم الذي اختفت فيه تلك الصورة دون أن يُعرف متى وكيف ، لتقع بين يدي فلورونتينو أريزا إثر سلسلة من الصدف غير المعقولة ، وفي زمن تعدى فيه كلاهما الستين من العمر .

عندما خرجت فيرمينا وهيلدبراندا من الاستديو احتشدت أروقة ساحة الكتبة بالناس وكذلك الشرفات . لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بفعل النشاء ، وأن شفتيهما مطليتان بطلاء له لون الشوكولا ، وأن ملابسهما غير منسجمة مع المكان والزمان . استقبلهما الشارع بصفير السخرية . حاولتا اللجوء إلى إحدى الزوايا في محاولة للفرار من هزء العوام عندما شقت العربة التي يجرها حصانان ذهبيان أشقران طريقها وسط المتسكعين . خمدت الأصوات وتشتتت جموع المتسكعين . لم تنس هيلدبراندا أبداً رؤيتها لأول مرة الرجل الذي قدم نفسه على مرقاة العربة ، قبعة الساتان ، صدرة البروكار ، أساليبه الراقية ، رقة عينيه ، وقوة حضوره .

على الرغم من أنها لم تره أبداً من قبل ، فقد عرفته على الفور . سبق لفيرمينا دازا أن حدثتها عنه ، بالصدفة تقريباً ودون أن ينبو عنها أي اهتمام . حدث ذلك بعد ظهر أحد أيام الشهر الماضي عندما رفضت المرور أمام منزل الماركيز دي كاسالدويرو لأن عربة الخيول الذهبية متوقفة أمام الباب . أخبرتها عن صاحبها وحاولت أن تشرح لها أسباب نفورها . نسيت هيلدبراندا هذا كله . ولكن عندما

أبصرته على باب العربة كرني(*) في حكايا الجن . رجل على الأرض وأخرى على المرقاة لم تستطع فهم دوافع ابنة عمتها .

قال لهما الدكتور جوفينال ايربينو : « يسعدني أن تصعدا . سأوصلكما إلى حيث تأمران » .

بدت على فيرمينا دازا حركة تردد ، ولكن هيلديبراندا سبق أن وافقت . تراجع الدكتور جوفينال ايربينو خطوة واحدة ، وبطرف أصابعه ، ودون أن يلمسها تقريباً ، ساعدها في الصعود إلى العربة . لم يعد من خيار لفيرمينا دازا ، تسلقت العربة وراءها وقد ألهب الخجل وجهها .

يقع المنزل على بضعة أمتار فقط . لم تلاحظ الفتاتان ما إذا كان الدكتور قد تواطأ مع الحوذي أم لا ، بدون شك فعل ذلك ، إذ استغرقت العربة ما يزيد على نصف ساعة لتصل . جلستا على المقعد الرئيسي في مواجهته ، جلس هو في وضع بعكس اتجاه السير . أدارت فيرمينا دازا رأسها لتشرد في الفراغ . في المقابل ، بدت هيلديبراندا مفتونة ، وقد زاد افتتان الدكتور ايربينو بافتتانها . ما إن أقلعت العربة حتى شعرت بالرائحة الدافئة للجلد الطبيعي للمقاعد ، بالجو الحميم داخل العربة ، بدا لها هذا المكان ملائماً تماماً للعيش . سرعان ما أخذا يضحكان ، يتبادلان المزاح كما لو أنهما صديقان قديمان ، ثم انطلقا في لعبة فكرية تعتمد تشويه اللغة عن طريق إدخال مقطع اصطلاحي بين كل مقطع في الكلمة . تظاهرا بالاعتقاد بأن فيرمينا دازا غير مصغية اليهما ، مع معرفتهما بأنها تفعل . بل أكثر من ذلك إنها لا تصغي إلا اليهما ، ولهذا السبب استمرا . بعد وقت قصير ، وبعد أن أفرطت في الضحك ، أشارت هيلديبراندا أنها لا تستطيع احتمال الآلام التي يسببها لها الحذاء لفترة أطول . قال الدكتور ايربينو :

« لا شيء أكثر سهولة من هذا ، سوف نرى من الرابح » .

أخذ يحل رباط حذائه ، وقبلت هيلديبراندا التحدي . العملية دقيقة ، أسلاك المشد تعيق حركتها ولا تسمح لها بالانحناء إلى الأمام . ولكن الدكتور ايربينو تأخر عمداً إلى أن أخرجت الحذاء من تحت تنورتها بعاصفة من الضحك المنتصر كما لو أنها استعادته من عمق بحيرة . عندها نظر كلاهما إلى فيرمينا دازا ، ورأيا جانبية

(*) رلي : شبح الجن .

وجهها الرائعة الشبيهة بطير السمنة ، رقيقة كما لم تكنه من قبل ، بادية بوضوح في نور الغروب الساطع . غضبت لأسباب ثلاثة : الحال التي هي فيها والتي تعتبرها في غير محلها ، سلوك هيلديبراندا الطائش ، وثوقها من أن الحوذي يسير كيفما اتفق بهدف تأخير وصولهما . ولكن هيلديبراندا بدت جامحة . « لقد أدركت الآن أن ما يزعجني ليس الحذاء وإنما هذا القفص الحديدي » عرف الدكتور جوفينال ايربينو أنها تتحدث عن القرينول ، التقط السانحة على الفور . قال لها : « لا شيء أكثر سهولة ، إنزعيه » . وبحركة سريعة كحركة المشعوذ أخرج منديلاً من جيبه ، عصب عينيه ، وقال :

« بت لا أرى » .

أبرزت العُصابة نقاء الشفتين بين اللحية المستديرة السوداء والشوارب ذات الأطراف المرهفة ، أحست هيلديبراندا بأن عاصفة من الذعر تهز كيانها . نظرت صوب فيرمينا دازا ، رأت أنها ليست حانقة فحسب وإنما هي مرعوبة لفكرة إقدامها على خلع تنورتها . عادت الرصانة إلى هيلديبراندا وسألتها بإشارة من يدها : « ماذا نفعل » ؟ أجابتها فيرمينا دازا بالطريقة نفسها إنهما إذا لم تعودا فوراً إلى المنزل فإنها ستلقي بنفسها من العربة ولو سائرة . قال الطبيب :

« ما زلت انتظر » .

ـ أجابت هيلديبراندا : بإمكانك النظر .

ما إن نزع جوفينال إيربينو العصابة حتى لاحظ أنها مختلفة . أدرك أن اللعبة انتهت ، وأنها انتهت بشكل سيء . أعطى الإشارة للسائق الذي قام بنصف دورة ، دخلت العربة حديقة الأناجيل في اللحظة التي كان فيها مضيء المصابيح يشعل خراطيم الغاز . قرعت أجراس الكنائس معلنة صلاة التبشير . نزلت هيلديبراندا مسرعة ، منزعجة قليلاً خشية أن تكون قد أساءت إلى ابنة عمتها . صافحت الطبيب مودعة دون تكلف . فعلت فيرمينا دازا مثلها ، ولكن عندما حاولت سحب يدها المقفزة بالساتان ، ضغط الدكتور بقوة على إصبعها الأوسط قائلاً لها :

« ما زلت انتظر ردك » .

سحبت فيرمينا دازا يدها بقوة أكبر فبقي القفاز الفارغ عالقاً في يد الدكتور

ايربينو . لم تنتظر حتى يعيده اليها . نامت دون أن تأكل . دخلت هيلديبراندا الغرفة ، بعد أن تناولت طعام العشاء مع غالابالاسيديا في المطبخ ، وكأن شيئاً لم يكن ، وبظرفها المطبوع تناولت أحداث ما بعد الظهر بالتعليق . لم تخفِ إعجابها بالدكتور جوفينال ايربينو ، بأناقته ولطفه . لم تعلق فيرمينا دازا بشيء . في إحدى اللحظات قالت هيلديبراندا بصراحة : عندما عصب الدكتور جوفينال ايربينو عينيه ورأت بريق أسنانه الرائعة بين شفتيه الورديتين تملكتها رغبة لا تقاوم لالتهامه بالقبل . أدارت فيرمينا دازا وجهها نحو الحائط واضعة بذلك حداً للحديث ، ودون أن تقصد إهانة ابنة خالها ، بل هي أقرب إلى أن تكون ممازحة ، قالت لها :

« أنت عاهرة حقيقية » .

امضت ليلة قلقة ، يتراءى لها الدكتور جوفينال ايربينو في كل مكان ، تراه يضحك ، يغني ، يبصق ، معصوب العينين ، بين أسنانه شرارات كبريت ، يهزأ منها بلغة مشوهة جامحة داخل عربة تصعد إلى مقبرة الفقراء ، أفاقت قبل بزوغ الفجر بمدة طويلة ، منهكة ومغمضة العينين بقيت مستيقظة تفكر بتلك السنين التي لا تحصى الباقية لها على قيد الحياة . بعد ذلك ، وفيما تتزين هيلديبراندا ، كتبت وبسرعة قصوى رسالة ، طوتها بالسرعة نفسها ، وبنفس السرعة وضعتها في مغلف ، وقبل أن تخرج هيلديبراندا من قاعة الاستحمام ، أرسلتها مع غالابالاسيديا إلى الدكتور جوفينال إيربينو . إنها احدى رسائله اليها ، اكتفت فيها بالقول ، دون أية كلمة زيادة أو نقصان : أجل يا دكتور تحدث إلى والدي .

عندما علم فلورونتينو أريزا أن فيرمينا سوف تتزوج طبيباً غنياً ومن أسرة نبيلة ، قد درس في أوروبا ويتمتع بسمعة مميزة قياساً إلى سنه ، بدا أنه ما من قوة قادرة على إنقاذه من خوره . ترانزيتو أريزا ، وقد لاحظت أنه فقد النطق والشهية ويمضي الليالي سهاداً باكياً دون توقف ، لجأت إلى أساليب المحبين ، بعد أسبوع وفقت في جعله يتناول الطعام من جديد . عند ذلك تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايزا، الوحيد الذي لا يزال حياً من الأخوة الثلاثة ، ودون أن توضح له السبب ، رجته أن يمنح ابن أخيه وظيفة ما في شركته الملاحية شريطة أن تكون في مرفأ منسي وسط غابات ماجدالينا ، حيث لا بريد ولا تلغراف ، وحيث لا يصادف إنساناً يمكن أن يخبره أي شيء يتعلق بمدينة الضياع هذه .

احتراماً لأرملة أخيه ، التي لم تكن تحتمل مجرد وجود النغل*، لم يعهد إليه العم بعمل ، وإنما حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فيلا دي ليفا ، قرية حالمة يقتضي الوصول اليها مسير عشرين يوماً وترتفع ثلاثة آلاف متر عن مستوى شارع « النوافذ » .

لم يعِ فلورونتينو أريزا هذه الرحلة العلاجية بشكل كامل أبداً . سوف يتذكرها طوال حياته ، كما سوف يتذكر كل ما حدث في هذه الرحلة عبر منشور خيبته المشوه . عندما تلقى برقية التعيين فكر ألا يلتحق ، ولكن لوتاريو توغيت أقنعه بحججه كألماني بأن مستقبلاً باهراً ينتظره في الإدارة . قال : « التلغراف مهنة المستقبل » . أهداه زوجاً من القفازات مصنوعة من فرو الأرانب ، قلنسوة للسهوب ، ومعطفاً ذا ياقة من القطيفة كان يرتديه في الشتاءات الجليدية في بافاريا . قدم له العم ليون الثاني عشر بذلتين من الجوخ ، وأحذية لا يخترقها الماء كانت لأخيه الأكبر ، ودفع عنه تكاليف الرحلة في قمرة على متن المركب المقبل . فصلت ترانزيتو أريزا الثياب وفق مقاس ولدها ، فهو أقل بدانة من أبيه ، وأقصر بكثير من الألماني . اشترت له جوارب صوفية وسراويل طويلة ، بشكل لا يحتاج معه إلى شيء في تلك الارتفاعات الموحشة الباردة . فلورونتينو أريزا ، وقد صلبت عوده الآلام ، يلاحظ تحضيرات رحلته كميت أتيح له حضور مراسم مأتمه . لم يخبر أحداً بذهابه ، لم يودع أحداً ، بسبب ذلك التكتم الحديدي الذي دفعه إلى الا يبوح بسر حبه إلا لامه ، ولامه وحدها . ولكن عشية الرحلة ارتكب قلبه ، وبوعي كامل ، جنوناً أخيراً كان يمكن أن يكلفه حياته . ارتدى بذلة الأحد في منتصف الليل ، وعزف تحت شرفة فيرمينا دازا فالس الحب المعروف لكليهما فقط ، الذي ألفه من أجلها ، والذي استمر طوال ثلاث سنوات رمز تواطئهما المعاند . عزفه وهو يتمتم بالكلمات ، كمانه مبلل بالدموع ، وبإلهام عميق إلى حد أنه منذ الأنغام الأولى أخذت الكلاب تنبح في الشارع ثم تبعتها كل كلاب المدينة ، ولكن شيئاً فشيئاً وقد سحرت الكلاب بالموسيقى انتهى بها الأمر إلى السكوت ، وانتهى الفالس في سكون فوطبيعي . لم تفتح النافذة خلف الشرفة ، ولم يظهر أحد في الشارع ، ولا حتى الحارس الليلي الذي غالباً ما يدنو مع فانوسه

(*) النغل : ولد غير شرعي .

وهو يأمل خيراً من فتات السيرينادات . بدا ذلك بالنسبة لفلورونتينو أريزا بمثابة رقية أراحته ، لأنه عندما أعاد الكمان إلى علبته وابتعد في الشوارع الميتة ، دون أن ينظر خلفه ، لم يعد يشعر أنه مسافر في الغد وإنما أنه قد سافر منذ سنين طويلة بقرار حاسم هو ألا يعود أبداً .

المركب واحد من ثلاثة مراكب متشابهة تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، تغير اسمها إلى بيوس السادس لوايزا تكريماً لمؤسسها . إنه منزل خشبي عائم من طابقين شيد على هيكل حديدي عريض مسطح مزود بغاطس يصل أقصى ارتفاعه إلى خمسة أقدام ، مما يساعده على تجاوز موضوع الأعماق المتفاوتة للنهر على أفضل وجه . المراكب الأكثر قدماً صنعت في سينسيناتي في منتصف القرن ، وفق النموذج الأسطوري للسفن التي تبحر في الأوهيو والمسيسيبي وتحوي في كل جانب عجلة دفع ذات مرجل يعمل على الحطب . وعلى هذه الشاكلة مراكب شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، ففي القسم السفلي ، على مستوى الماء تقريباً ، الآلات البخارية ، والمطابخ ، وأقفاص الدواجن ، والمكان الذي يعلق فيه طاقم السفينة الأراجيح بارتفاعات متفاوتة . في الطابق العلوي ، غرفة القيادة ، قمرات القبطان والضباط ، صالة لعب القمار ، وغرفة الطعام التي تدعى اليها الشخصيات المهمة المسافرة للعب الورق وتناول العشاء مرة على الأقل . في الطابق الأوسط ست قمرات للدرجة الأولى على جانبي ممر يستخدم كقاعة عامة للطعام . في جؤجؤ السفينة صالون مطل على النهر ، له درابزين مخرم من الخشب ومرتكزات من الحديد يعلق عليها المسافرون العاديون أراجيحهم ليلاً . وخلافاً للمراكب الأكثر قدماً ، فإن عجلات الدفع لهذه المراكب ليست على جانبيها وإنما في كوثلها حيث يوجد بالضبط ، تحت القمرات الخانقة لقسم المسافرين ، عجلة كبيرة ذات رياش . بعد أن صعد إلى السفينة ، في السابعة من صباح يوم أحد من شهر تموز ، لم يكلف فلورونتينو أريزا نفسه عناء التعرف إلى أرجائها كما يفعل ذلك بدافع غريزي أولئك الذين يسافرون فيها لأول مرة . لم يعِ الحقيقة الجديدة إلا في المساء ، عندما كانوا يعبرون قبالة قرية كالامار ، وفيما هو ذاهب ليبول إذ رأى عبر ثقوب القمرات العجلة العملاقة ذات الرياش تدور تحت قدميه بانفجار بركاني من الزبد والأبخرة المحترقة .

لم يسبق له أن سافر من قبل . حمل معه حقيبة سفر حديدية تحوي ثياباً لمواجهة الصقيع ، والروايات المصورة التي يشتريها كمسلسلات شهرية ويجمعها شخصياً في غلافات كرتونية ، وقصائد الحب التي يستطيع تلاوتها غيباً والتي توشك أن تبلى لفرط ما قرأها . لم يحضر الكمان معه ، فهو يتماهى في ذهنه مع تعاسته ، ولكن أمه أجبرته أن يأخذ « البيتات»(*) معه ، عدة عملية وشعبية للنوم : وسادة ودثار ، مبولة صغيرة رمادية اللون ، ناموسية ذات سردات دقيقة ومتلاصقة للوقاية من البرغش ، كل هذا في بورية ربطت بحبلين ينتهيان بعودين مما يسمح باستخدامها كأرجوحة للنوم عند الضرورة . لم يكن فلورونتينو أريزا يريد حملها لأنه رأى أن لا لزوم لها في قمرة مجهزة بالأسرة ، ولكن منذ الليلة الأولى ، رأى نفسه من جديد ، يشكر لأمه إدراكها السليم . وبالفعل ، وفي اللحظة الأخيرة ، صعد على متن السفينة مسافر حسن الهندام ، وصل صباح اليوم نفسه في باخرة قادمة من أوروبا ، يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً ، يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته وخادمه ، الذي يرتدي زي الخدم ، والحقائب السبع المسمرة بمسامير مذهبة والتي لم تمر في السلالم إلا بصعوبة بالغة . القبطان ، عملاق من كيراساو ، نجح في تحريك المشاعر الوطنية لدى المولدين توصلاً لتأمين راحة المسافرين المستجدين . شرح لفلورونتينو أريزا ، بمزيج من اللغة الإسبانية ولغة البابيامنتو ، أن الرجل الحسن الهندام هو الوزير المفوض المطلق الصلاحية الجديد لإنكلترة ، وأنه ذاهب إلى عاصمة الجمهورية مذكراً إياه أن هذه المملكة قدمت مساعدة حاسمة لتحريرنا من السيطرة الإسبانية ، وبالتالي فإن أية تضحية تبدو ضئيلة كي تشعر عائلة تتمتع بتلك الدرجة الرفيعة بأنها بيننا في وضع أفضل مما هي عليه في وطنها . وبالطبع تخلى فلورونتينو أريزا عن قمرته .

لم يأسف على ذلك في البدء ، لأن مسيل النهر في ذلك الوقت من السنة غزير إلى الحد الذي سمح للمركب أن يبحر دون عوائق . بعد العشاء ، حوالي الساعة الخامسة مساء ، وزع الطاقم على المسافرين أسرة مخيمات تطوى وذلك ليتولى كل واحد منهم فتحها حيث يمكنه ذلك ، ثم يرتبها مستخدماً عدة « البيتات » خاصته ويضع الناموسية فوقها . من يملك الأراجيح علقها في الصالون ، ومن لا يملك

(*) البيتات : متاع السفر .

شيئاً نام على الطاولات في قاعة الطعام متدثراً بشراشف الطاولات التي لا تستبدل سوى مرتين خلال الرحلة . بقي فلورونتينو أريزا مستيقظاً خلال الهزيع الأخير من الليل يظن نفسه يسمع صوت فيرمينا دازا في صبا النهر البارد ، يجتر وحدته وذكرياته ، يصغي إليه مغنياً في نَفَس السفينة التي تتقدم في الظلمات بخطوة حيوان كبير إلى أن بدت في الأفق أول البقع الوردية وأشرقت فجأة ، على المراعي المقفرة ومستنقعات الضباب ، شمس نهار جديد . بدت له الرحلة إذ ذاك دليلاً إضافياً على حكمة والدته ، وأحس بالقدرة على العيش في النسيان .

ومع ذلك ، بعد ثلاثة أيام من المياه المؤاتية ، أصبحت الملاحة أكثر صعوبة بين كثبان رملية غير متوقعة ولجاج خادع . بدا النهر معكراً وأخذ يضيق أكثر فأكثر في غابة تتشابك أشجارها الضخمة ، حيث يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب أكوام من الحطب أعدت لمراجل المراكب . لغط الببغاوات وصخب القردة اللامرئية ، ساهمت في زيادة شدة القيظ في منتصف النهار . في الليل ينبغي ربط المركب للتمكن من النوم ، ومجرد البقاء على قيد الحياة يبدو أمراً لا يحتمل . فإلى القيظ والحشرات تضاف نتانة شرائح اللحم المملح المعروض على درابزين السفينة كي يجفف . معظم المسافرين ، وخاصة الأوروبيين ، يفرون من نتانة القمرات ، ويمضون الليل في المشي على سطح السفينة ، يطردون كل أنواع الدويبات بالفوطة نفسها التي يمسحون بها عرقهم المتواصل . ومع إطلالة الصباح يبدو عليهم الانهاك والتورم بفعل لسع البرغش .

إضافة إلى ذلك ، اندلع في تلك السنة فصل جديد من الحرب الأهلية المتقطعة بين الليبيراليين والمحافظين ، فاتخذ القبطان إجراءات صارمة في ما يتعلق بالنظام في داخل السفينة وأمن المسافرين . في محاولة لتجنب الأخطاء والاستفزازات منع التسلية المفضلة في رحلات تلك الأيام : صيد التماسيح التي تنام في الشمس على كثبان الرمال . في ما بعد ، عندما انقسم عدد من المسافرين إلى فريقين متخاصمين ، إثر إحدى المناقشات ، صادر سلاح الجميع واعداً بإرجاعه لهم في نهاية الرحلة . كان صارماً في موقفه هذا حتى مع الوزير البريطاني الذي ظهر في اليوم الثاني للرحلة بزي صياد مع غدارة تصيب بدقة ، وبندقية ذات طلقتين بهدف اصطياد النمور . ازدادت شدة القيود بعد تجاوز مرفأ

« تينيريف » عندما التقوا سفينة ترفع راية الوباء الصفراء . لم يتمكن القبطان من الحصول على أية معلومات تتعلق بهذا التحذير المقلق لأن السفينة الأخرى لم تجب على إشاراته . في اليوم نفسه التقوا سفينة أخرى تنقل الماشية إلى جامايكا ، أخبرتهم أن السفينة التي ترفع علم الوباء تنقل مريضين مصابين بالكوليرا ، وأن الوباء يحصد الضحايا في كل أرجاء القسم المتبقي عليهم اجتيازه من مجرى النهر . منع المسافرون من مغادرة المركب ، سواء في المرافىء التالية ، أو حتى في الأماكن المقفرة حيث يتم التوقف للتزود بالحطب . وهكذا كان على المسافرين أن يكتسبوا ، في القسم المتبقي من الرحلة وحتى مرفأ الوصول ، عادات الإصلاحيات . من بين تلك العادات ، التأمل المفسد لبطاقات بريدية بورنوغرافية هولندية الصنع ، تنتقل من يد إلى أخرى دون أن يدري أحد من أين أتت ، مع أن أي خبير في شؤون النهر لا يجهل أنها تشكل بالكاد عينة من مجموعة القبطان الأسطورية . ولكن حتى هذه التسلية ، التي لا أفق لها ، انتهت لتزيد من حدة السأم .

احتمل فلورونتينو أريزا مشاق الرحلة بالصبر الفولاذي الذي يحزن والدته ويغيظ أصدقاءه . لم يصاحب أحداً . أمضى أياماً هادئة أمام الدرابزين يتأمل التماسيح الجامدة على كثبان الرمل تحت أشعة الشمس وقد فتحت أشداقها للإمساك بالفراشات ، أسراب مالك الحزين المذعورة التي تطير فجأة من المستنقعات ، خراف البحر التي ترضع صغارها من أثدائها وتفاجىء المسافرين بنواحها الذي يشبه نواح النساء . شاهد ، في يوم واحد ، ثلاث جثث بشرية طافية ، منتفخة وخضراء ، وقد انقضت عليها الكواسر . مرت أول الأمر جثتان لرجلين ، إحداهما دون رأس ثم جثة فتاة صغيرة أخذ شعرها الذي يشبه المدوس يتموج في اللثم الذي شقته السفينة . لم يتوصل إلى معرفة ما إذا كانوا ضحايا الكوليرا أو ضحايا الحرب ، إذ لا أحد يستطيع معرفة ذلك ، ولكن الرائحة العفنة المثيرة للغثيان ، أفسدت ذكرى فيرمينا دازا في ذاكرته .

إنه هكذا دائماً ، كل حدث ، جيد أو سيء ، له علاقة بها . في الليل ، عندما يتوقف المركب ، ولا تتوقف غالبية المسافرين عن مشي المئة خطوة على السطح ، يتلو عن ظهر قلب تقريباً المسلسلات المصورة على ضوء القنديل الزيتي لغرفة

الطعام ، الوحيد الذي يبقى مضاءً حتى الصباح ، وتجد المآسي ، التي اعاد قراءتها مرات ومرات ، سحرها الأصيل ، عندما يحل محل أبطالها الخياليين ، أصدقاؤه في الحياة الواقعية محتفظاً لنفسه ولفيرمينا دازا بأدوار الحب المستحيل . يمضي ليالي أخرى في كتابة الرسائل الكئيبة التي ينثر قطعها بعد ذلك على المياه التي تجري نحوها دون توقف . هكذا يمضي الساعات الأكثر صعوبة . يتقمص تارة شخصية أمير خجول ، وطوراً شخصية فارس يهيم حباً ، وثالثة جسده المسلوخ كعاشق حكم عليه بالنسيان ، وعند هبوب أولى النسيمات ينصرف ليتمدد على المقاعد قرب الدرابزين .

ذات ليلة توقف فيها عن المطالعة أبكر من المعتاد وتوجه ساهماً نحو المراحيض ، فُتح باب في قاعة الطعام المقفرة ، وأمسكت يد كاسرة بكم قميصه وأدخلته إلى القمرة . توصل بالكاد أن يحس في العتمة بامرأة عارية ، ذات جسد غير محدد السن ، جامحة الأنفاس ، تتصبب عرقاً حارقاً ، طرحته على الفراش ، حلت حزامه ، فكت أزرار فتحة بنطاله ، باعدت ما بين فخذيها فوقه ، امتطته ، وبدون أي مجد فضت بكارته . سقط كلاهما محتضراً في عدم هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع القريدس . استمرت لحظة فوقه وقد ضاق نفسها ، ثم تلاشى وجودها في العتمة . قالت له :

« إنصرف الآن ، وأنس هذا كله ، إذ لم يحدث شيء أبداً » .

بدا الهجوم سريعاً وناجحاً إلى حد لا يمكن اعتباره جنوناً مفاجئاً وسط الضجر وإنما هو ثمرة خطة استغرقت الوقت الكافي إعداداً وعناية كبرى بالتفاصيل . هذا اليقين المجمل زاد من قلق فلورونتينو أريزا ، إذ وهو في ذروة متعته أحس بالهام لم يكن بمقدوره أن يصدقه بل ورفض مجرد التسليم به ، إلهام مفاده أنه يمكن إحلال عواطف دنيوية محل الحب الواهم لفيرمينا دازا . وهكذا صمم على معرفة هوية مغتصبته العظيمة على غريزتها كفهدة تتيح له أن يجد دواء لحظه العاثر . ولكنه لم يتوصل إلى ذلك . بل على العكس ، كلما ذهب بعيداً في تحرياته شعر أنه يزداد بعداً عن الحقيقة .

لقد وقع الاغتصاب في القمرة الأخيرة ، ولكن هذه تتصل مع القمرة ما قبل الأخيرة بباب داخلي مما يعني أنها تشكل جميعاً جناحاً عائلياً يحوي أربعة أسرة ،

تشغله امرأتان شابتان وثالثة تكبرهما قليلاً فاتنة المنظر وطفل عمره بضعة شهور . صعدوا السفينة في بارانكو دي لوبا ، المرفأ الذي تحمل فيه بضاعة وركاب مدينة مومبوكس التي شطبت عن مسالك المراكب البخارية بسبب عدم ثبات النهر ، وقد لاحظ فلورونتينو أريزا صعودهن لأنهن كن يحملن الطفل في قفص عصافير ضخم .

إنهن يرتدين الزي الدارج على متن عابرات الأطلسي مع بطانات تحت تنانير الحرير ، ياقات من الدانتيل ورأسيات مزينة بأزهار من الموسلين . تبدل الشابتان ملابسهن عدة مرات في اليوم الواحد ، مما جعلهما تبدوان وكأنهما حملتا معهن برودة الربيع في الوقت الذي يختنق فيه سائر المسافرين من الحر . تتقن النسوة الثلاث استخدام المظلات ومراوح الريش مع الألغاز المضمرة لفتيات مومبكس في تلك الأيام . لم يتوصل فلورونتينو أريزا حتى إلى معرفة العلاقة التي تربط بينهن على الرغم من كونهن ينتمين دون شك إلى الأسرة نفسها . حسب بادىء الأمر أن أكبرهن قد تكون أم الأخريين ، ثم لاحظ أنها ليست متقدمة في السن بما فيه الكفاية ، إضافة إلى أنها في نصف حداد وهذا ليس حال الشابتين . لم يستطع تصور فكرة تجرؤ إحداهن في الإقدام على ما أقدمت عليه في الوقت الذي تنام فيه الأخريات في الأسرة المجاورة، الفرضية الوحيدة المعقولة إنها أفادت من فرصة عارضة ، أو من يدري من فرصة مدبرة سلفاً ، بحيث كانت وحيدة في القمرة . لاحظ أن اثنتين منهما تخرجان أحياناً للتمتع بالهواء البارد حتى ساعة متأخرة ، بينما تبقى الثالثة للاهتمام بالطفل . ومع ذلك ، وخلال ليلة أكثر حرارة خرج الثلاث جميعاً مع الطفل وقد نام في قفص من السوحر مغطى بالتول .

رغم هذا التشابك بالدلائل ، أسرع فلورونتينو أريزا إلى استبعاد احتمال أن تكون الأكبر سناً بين الثلاث هي من قامت بالهجوم ، ثم استبعد بعد ذلك على الفور الصغرى ، الأكثر جمالاً ووقاحة . فعل ذلك دون الاستناد إلى وقائع قيمة وإنما لسبب بسيط هو أن مراقبته للنساء الثلاث قادته لملاحظة رغبته العميقة بأن تكون العاشقة أم الطفل الذي في القفص . لقد فتن بهذه الفرضية إلى حد أنه أخذ يفكر بها بغزارة تفوق تفكيره بفيرمينا دازا ، ودون أن يهتم بأمر بيِّن وهو أن هذه الأم الشابة لا تعيش إلا من اجل ولدها . لا يزيد عمرها عن الخامسة والعشرين ،

www.liilas.com/vb3
RAYAHEEM

نحيلة وذهبية ، ذات أجفان برتغالية تجعلها أكثر بعداً ، قليل من فتات الحنان الذي تمنحه لطفلها كاف لأي رجل . من وجبة الفطور وحتى لحظة النوم تعتني به في الصالون بينما تلعب رفيقتاها «بالمهجونغ» ، وعندما تتوصل إلى جعله يغفو تعلق القفص في السقف إلى الجهة الأكثر برودة من الدرابزين . ولكنها لا تنصرف عنه حتى وهو نائم ، تهز القفص وهي تتمتم بأغاني الحب في الوقت الذي تحلق فيه أفكارها فوق بؤس الرحلة . تشبث فلورونتينو أريزا بأمل يقوم على أنها آجلاً أو عاجلاً سوف تكشف له عن نفسها ولو بمجرد إشارة . أخذ ينتبه لأي تغيير في تنفسها من خلال إيقاع التميمة التي تتدلى فوق بلوزة الباتيستا ، ينظر اليها بدون حياء من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته ، بل بات قادراً على ارتكاب الوقاحة المحسوبة بأن يبدل مكانه على المائدة ليصبح مواجهاً لها . ولكنه لم يحصل على أدنى إشارة تؤكد أنها هي المؤتمنة على النصف الآخر للسر . لم يبق له منها سوى اسم دون كنية نادتها به رفيقتها الصغيرة ذات يوم : روزالبا .

في اليوم الثامن ، تمكنت السفينة من العبور بصعوبة بالغة في قناة هائجة محصورة بين حواجز رخامية ، لترسو بعد الغداء في مرفأ « ناري » ، حيث ينبغي أن يغادر الركاب الذين يتابعون سفرهم في مقاطعة انطيوكيا ، إحدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة . يحوي المرفأ نصف دزينة من الأكواخ الحقيرة المسقوفة بسعف النخيل ، محل سمانة من الخشب مسقوف بالتوتياء . تتولى حمايته عدة مجموعات من الجنود الحفاة مسلحين بشكل سيء ، حيث تفيد معلومات أن المتمردين أعدوا خطة لسلب السفن . خلف البيوت ، تلامس السماء قمة جبل وعر ذي منحدر بشكل حذوة حصان منحوته على شفا الهاوية . لم يتمكن أحد في المركب من النوم بسلام ، ولم يقع الهجوم ليلاً ، واستفاق المرفأ وقد تحول إلى سوق يوم أحد ، يعج بالهنود الذين يبيعون تعاويذ التاغا وشرابات الحب بين صفوف البغال الجاهزة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام للوصول إلى الغابات السحلبية(*) لسلسلة الجبال الوسطى .

تسلى فلورونتينو أريزا بالنظر إلى إفراغ حمولة المركب على ظهر الزنوج ، شاهد إنزال سلال البورسلين الصيني ، آلات البيانو العائدة لعوانس « أنفيغادو » ،

(*) السحلبية : فصائل نباتات سحلبية .

ولكنه لاحظ ، بعد فوات الأوان ، أن مجموعة روزالبا بين المسافرين المغادرين . لقد أبصرهن يرتدين زي الفرسان ، ينتعلن أحذية الفارسات ، ويحملن مظلات ذات ألوان استوائية ، قرر عندها القيام بالخطوة التي لم يجرؤ على القيام بها في الأيام السابقة : لوح بيده مودعاً روزالبا ، فردت عليه النسوة الثلاثة بالحركة نفسها ، وبمودة طعنت جرأتها المتأخرة أحشاءه . رآهن يدرن حول محل السمانة ، تسير في إثرهن البغال المحملة بالحقائب وصناديق القبعات وقفص الطفل ، ليتسلقن بعد قليل حافة الجرف كصف من النمال الصغيرة النشيطة قبل أن يختفين ، وإلى الأبد ، من حياته . عندها أحس أنه وحيد في هذا العالم ، وذكرى فيرمينا دازا التي كانت كامنة في الأيام الأخيرة ، وجهت له طعنة قاتلة .

إنه يعرف أنها ستتزوج في احتفال مجلجل ، أما الكائن الذي يحبها أكثر من سواه في هذا العالم ، والذي سيستمر في حبها إلى الأبد ، فلا يحق له حتى أن يموت من أجلها . غمرت نفسه الغيرة التي كانت غارقة في الدموع حتى الآن ، طلب من الله أن تحرق صاعقة العدالة الإلهية فيرمينا دازا في اللحظة التي تستعد فيها لأداء قسم الحب والطاعة لرجل يرى في زوجته مجرد زينة اجتماعية ، أخذ يستمتع برؤية المتزوجة ، التي إما أن تكون زوجته أو لا تكون زوجة لأحد ، ممددة على بلاط الكاتدرائية قرب أزهار الليمون وقد جعلها ندى الموت نضرة ، ورؤية السيل المزبد لطرحتها فوق النواصب الرخامية لقبور المطارنة الأربعة عشر المدفونين مقابل المذبح الكبير . ومع ذلك ما إن انتهى من انتقامه حتى ندم على سوء طويته ، ورأى عند ذلك فيرمينا دازا تنهض لم تمس ، غريبة ولكنها حية إذ بدا له مستحيلاً تصور العالم من دونها . لم يجد الرقاد اليه سبيلاً . وإذا ما جلس أحياناً ليقضم شيئاً فإن ذلك يتم من خلال وهم مفاده أن فيرمينا دازا تجلس إلى طاولته ، أو على العكس كي لا يمنحها شرف الصيام من أجلها . يعزي نفسه أحياناً بحقيقة أنه في حميا حفل الزواج ، وحتى في الليالي المحمومة لشهر العسل ، سوف تتألم فيرمينا دازا ، ولو للحظة ، لحظة واحدة ، ولكنها لحظة على أية حال ، لحظة يتسلل فيها شبح الخطيب المخدوع المذل المهان إلى وجدانها ويفسد عليها سعادتها .

عشية الوصول إلى مرفأ كاراكولي ، نهاية الرحلة ، قدم القبطان احتفال الوداع